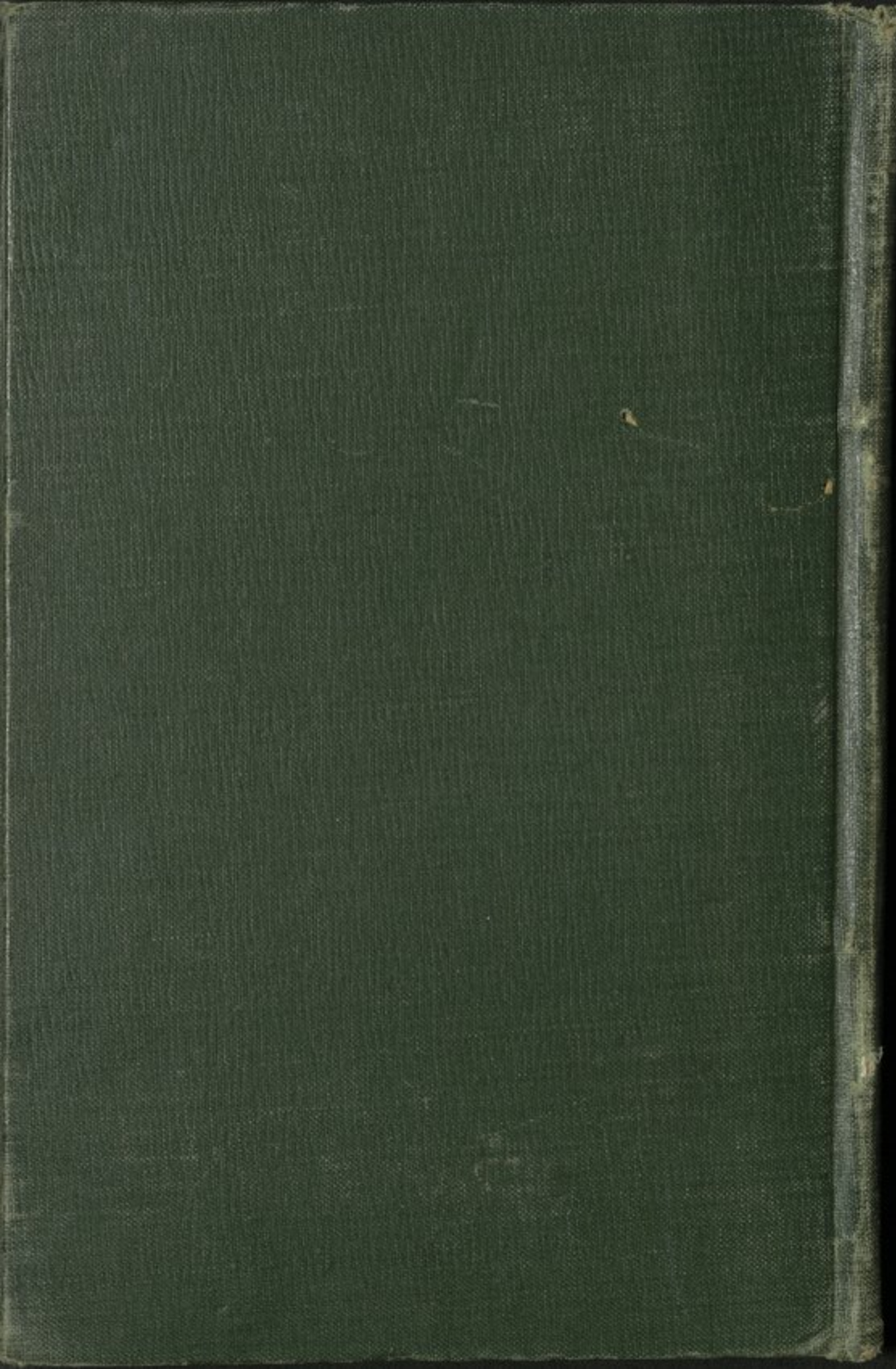
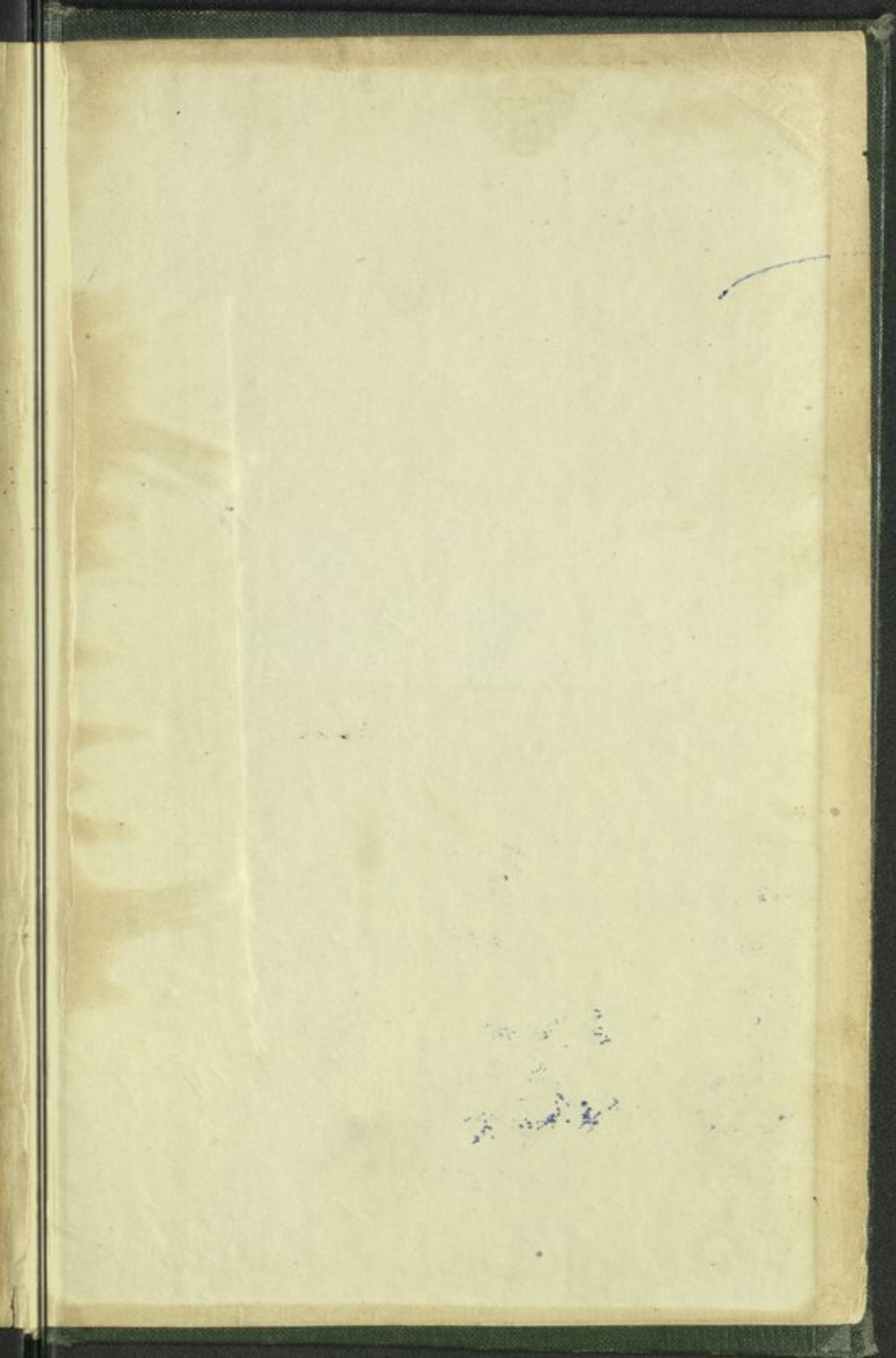
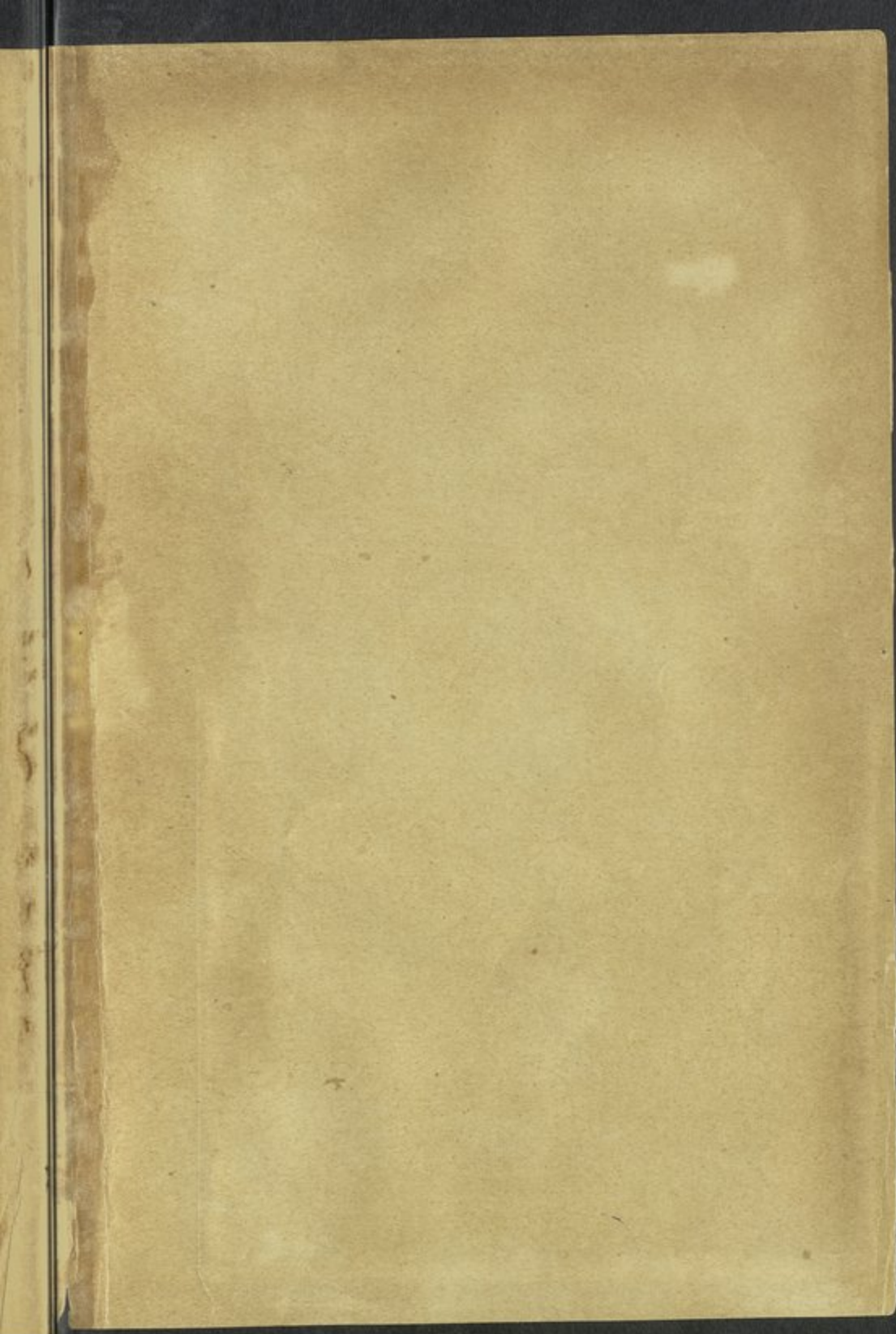






DATE DUE

تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة



297.2088

K456A

هذه بيبي

أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني :

الفن القصص

في القرآن الكريم

تأليف

محمد أحمد خليف الله

الطبعة الأولى

١٩٥٠ - ١٩٥١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كنت أريد أن أقف في هذا الموطن لأبين في وضوح وجلال العلل والأسباب التي دفعت بالجامعيين من أصحاب الهوى والغرض إلى هذه المواقف:

(١) التقوّل على رسالة « الفن القصصى فى القرآن الكريم » ، والادعاء عليها بما ليس فيها وبما لا يمكن أن يخطر ببال صاحبها ، وتحريف نصوصها تحريفاً يمكن من استثارة الجماهير ضد الرسالة وضد صاحبها فى سهولة ويسر .

(ب) قبول الأستاذ أحمد بك أمين أن يكون عضواً فى رسالة يشرف عليها الأستاذ الخولى مع تحاشيه مثل ذلك من قبل لما بين الأستاذين من خصومات ، وبخاصه إذا كان هذا القبول قد تم بعد أن نشأت المسألة الدينية وبعد أن اعتذر الأستاذ عبد الوهاب حموده . واعتذار الأستاذ حموده لم يكن إلا ليحل محله الأستاذ أحمد أمين ، ولم يكن إلا بعد أسابيع ثلاثة من تكوين لجنة الفحص ومن قبول الأستاذ حموده عضوية اللجنة .

حرص الأستاذ أحمد بك أمين على أن يجنب صديقه السنهورى باشا كل ما يعكر عليه صفو الحكم وملذاته ، ولذا نراه ينصح عميد الآداب ومدير الجامعة بالنيابة الدكتور عبد الوهاب بك عزام بأن يأخذ فى هذه الرسالة رأى المسئولين قبل أن يأخذ رأى العلماء وبجارية أخرى ينصحه بأن يأخذ رأى السنهورى باشا ومن هنا نستطيع أن نقول بأن الأستاذ أحمد أمين قد كتب تقريره على الأساس السياسى لاعلى الأساس العلمى ولاعلى الأساس الدينى . بل لعل الأستاذ أحمد أمين بك لم يقبل عضوية اللجنة إلا ليؤدى هذه المهمة . ومن هنا نراه يصمت بعد ذلك فلا يرد على تقرير الأستاذ الخولى

(ب)

ولمّا يترك مهمة الرد للأستاذ الشايب ولا يدفع عن نفسه ذلك الاتهام الفاضح الذى نشرته جريدة « أخبار اليوم » ، ولا يجيب عن ذلك التحدى العلنى الذى نشرته جريدة « الإخوان المسلمون » .

(ح) إصدار الأستاذ الشايب أحكاما ثلاثة فى شأن هذه الرسالة .

فهى عنده حسنة إلى الحد الذى يجعله حريصا على أن يشرك الأزهر فى مناقشتها ليتبين الأزهر بنفسه الجهود الحسنة التى يبذلها فى سبيل الدراسات الإسلامية أبناء الجامعة .

وهى عنده لا بأس بها وإنه إنما ينصح بتعديل بعض فصولها قبل تقديمها إلى المناقشة .

وهى عنده سيئة جداً . سيئة إلى الحد الذى يجعله يقرر بأن أقل ماتستحقه هو الرفض التام .

ثم إرساله بعد كل هذا خطابا إلى المشرف يسحب فيه بعض صفحات التقرير الثانى لأنه قد كتب ما كتب قبل أن يرجع إلى كتب التفسير .

وأخيراً التقاؤه مع الأستاذ أحمد أمين فى الحرص على سلامة الحكومة وهو نفسه الذى يدلنا على أنه قد تحدث مع العميد فى شأن الضجيج السياسى الذى تعانیه الحكومة وأنه يريد برفضه هذه الرسالة أن يجنب الحكومة أى ضجيج دينى^(١) .

لقد بدأ الأستاذ الشايب مساوما . رسالة برسالة . رسالة خلف الله برسالة المحاسنى . ثم نُسّى مدافعا عن الدين والقرآن الكريم . ثم ثلث مدافعا عن الحكومة لأنه الرجل الذى يريد أن يجنبها أى ضجيج .

(و) موقف الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد الآداب ومدير

الجامعة بالنيابة . وكيف أحدث هذه الأزمة باستماعه إلى وشايات الدكتور شوقي ضيف ^(١) .

ثم كيف أنه لم يسلك السبيل العلمية الجامعية مع هذه الرسالة فلم يجمع لجنة الفحص لتضع تقريرها عن الرسالة ، ولم يعرض المشكلة على مجلس الكلية ليرى رأيه في النزاع القائم . وإنما سلك سيلا سياسة ملتوية .

فهو أولا : يبلغ الطالب أن اللجنة المكونة لفحص الرسالة قد قررت أنها غير صالحة للمناقشة مع أن اللجنة لم تجتمع حتى هذه اللحظة ولم تضع من باب أولى مثل هذا التقرير .

وهو ثانيا : ينشر بيانا في الصحف يذيع فيه أن الجامعة قد رأت أن هذه الرسالة لا تستحق أن يمنح عليها صاحبها درجة علمية جامعية . مع أنه يعلم العلم كله بأن الأستاذين اللذين قد اعتمد عليهما في تنفيذ خطة السينسين قد فشلت الفشل كله حين ادعت على الرسالة وحين حرقت نصوصها وحين ثبت هذا التحريف في محضر قام بعمله رجال ثلاثة هم الدكتور الشرفاوى بك والدكتور زكى حسن بك والأستاذ عبدالوهاب خلاف بك .

ثم هو ثالثا : لم يقبل تكوين لجنة جديدة لفحص هذه الرسالة يكون مفتى الديار المصرية عضوا فيها . ويكون أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق عضوا ثانيا ويحسكون المشرف عضوها الثالث على ما هو القانون ونص اللائحة .

(هـ) موقف الجامعة . وكيف أنها ناقضت نفسها بنفسها في كثير من تصرفاتها حتى إنها دافعت عن الطالب في الرد على السؤال وهاجمت الطالب في الرد على الاستجواب ولم يكن ذلك إلا لرفض الطالب فكرة المساومة .

(١) لقد صاحب الرسالة في التمهيد بحوث الأستاذ شوقي فأحفظه ذلك وبدأ هجومه على صاحب الرسالة واتخذ من المسألة الدينية ميدان هذا الهجوم .

(٤)

(و) تصرفات معالى وزير المعارف وأحاديثه مع الطالب ومحاولاته إخفاء نفسه فى كل تصرف حتى ليكأن الجامعة هى التى تتصرف وحرصه الشديد على إنقاذ الأستاذ أحمد بك أمين بعد أن ورط نفسه فى سبيله . كنت أريد أن أقف عند كل هذه المسائل لأفسرها وأشرح العلل والأسباب التى أدت إليها وكيف أن الهيئات الدينية قد استُغِلت حتى لا ينكشف أمر السياسيين ومن اعتمدوا عليهم من الجامعيين . ولكنى أثرت أن أترك ذلك إلى ساحة أخرى تستطيع أن تأخذ المذنب بحريته وتحمله أضرار أخطائه المتعمدة وتلك هى ساحة القضاء .

(٢)

وكنيت أريد أن أقف أيضا لأحدد المخالفات التى لم تصدر عن هوى وغرض وإنما صدرت عن بطاء فى الإدراك وسوء فى الفهم وعن عدم بصيرة بالنظرية وبما يمكن أن تؤديه للإسلام من خدمات . وأرد على هذه المخالفات واحدة واحدة . ولكنى أثرت أن أشرح النظرية بتفصيل فأوضح المبهم وأفسر المشكل وأترك الأمر بعد ذلك للقارىء ، فإن شاء آمن بها وقال للمخالفين من الجامعيين « أَفَن يَهْدَى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدَى إِلَّا أَنْ يَهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » . وإن شاء أعرض عنها وقال معهم « تَلَوْ بُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقَرْ وَ مِنْ يَبْنِنَا وَيَبْنِيكَ حِجَابٌ » .

إنها إن تكن الثانية فليس لى معه ومعهم إلا قوله تعالى « هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

(٣)

بقيت كلمة صغيرة أقولها لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم أبطالا فى سبيل الدين وفى سبيل القرآن الكريم من الجامعيين وغيرهم . كلمة أقولها

لهم جميعا هي أنهم حتى في هذا الموقف الذي ينشدون فيه البطولة الدينية قد أعرضوا عن الإسلام وتعاليمه وعن هدى القرآن الكريم ، وأقبلوا كل الإقبال على تلك الخطة التي كان الجاهليون في وثنيتهم الأولى يحاربون بها النبي عليه السلام ويعارضون بها القرآن الكريم .

أعرضوا عن الإسلام وتعاليمه لأن القرآن الكريم ينصح النبي عليه السلام وينصح جماعة المسلمين بأن يجروا مع مخالفهم في الرأي والعقيدة على سنة المجادلة والمجادلة بالتي هي أحسن « وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . وليس يخفى أن هذه السنة كانت تحتم عليهم أن يقدموا الرسالة المناقشة .

وأقبلوا كل الإقبال على الخطة الجاهلية لأنهم اعتمدوا في كسبهم للخصومة في الرأي على استثارة الجماهير . وذلك هو ماصوره القرآن الكريم عن خطة الجاهلين (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) يأبى المخالفون . إن كنتم حريصين حقا على الإسلام وعلى القرآن الكريم فقارعوا الحجة بالحجة وأبطلوا الدليل بالدليل . أما استثارة الرأي العام وتحريك عواطف الجماهير فأمر لا يليق بالعقلية الإسلامية ولا يليق بأبناء القرن العشرين .

إن لكم في تعاليم الإسلام وهدى القرآن الأسوة الحسنة . وإن لكم في مسلك سعادة عبد الحميد بدوى باشا القدوة يجب أن تتبع إن كنتم حقا من المسلمين . وكنتم حقا من العلماء العاملين (١) .

(١) كانت بعض المشاكل قد أشكت على سعادة بدوى باشا فطلب عنها إيضاحا يجده القارئ في الصفحات التالية :

سعادة الأستاذ الكبير الدكتور عبد الحميد بروي باشا

تحدثت إلى السيدة ابنة الشاطيء طالبة أن أوضح لسعادتكم موقفي من هذه الآيات التي يصف فيها القرآن القصص بأنه الحق مع ما أذهب إليه من قول بفنية القصة القرآنية . ولقد ذكرت لى السيدة آيتين كريمتين نطقتم بهما في معرض الحديث هما قوله تعالى : ان هذا هو القصص الحق . وقوله تعالى : نحن نقص عليك نبأهم بالحق .

واخبر سعادتكم أولا وقبل كل شيء ان هذه المسألة من المسائل التي التفت إليها المفسرون ، والتفتوا إليها لأنها جاءت مع الامثال في قوله تعالى (ان الله لا يستحي ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم ... الخ ، والامثال لا يلزم ان تكون من الحقائق الثابتة فقد تكون من المتخيلات ومن الاساطير والاهوام .

ولقد اجاب هؤلاء عن هذه المسألة وكانت اجابتهم ان المثل يوصف بالحق لانه شارح للحق ومبين له ولانه مقرر للحق ومؤكده .

واستطيع ان اضع بين يدي سعادتكم هذا النص الذي يشرح به صاحب المنار الدور الذي يلعبه المثل في تقرير الحقيقة والذي يفسر به صاحب المنار معنى الحق مع المثل . جاء في ج ١ ص ٢٣٦ من تفسير المنار ما يلي « والمثل في اللغة الشبه والشبيه ، وضربه عبارة عن ايقاعه وبيانها ، وهو في الكلام ان يذكر لخال من الاحوال ما يناسبها ويشابهها ، ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا ، ولما كان المراد به بيان الاحوال كان قصة وحكاية . واختير له لفظ الضرب لانه يأتي عند ارادة التأثير وهيج الانفعال كأن ضارب المثل يقرع به اذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهي إلى أعماق نفسه ، ولكن في الكلام قلبا حيث جعل المثل هو المضروب وانما هو مضروب به . هذا ما قاله الاستاذ الامام . »

وجاء في ص ٢٣٧ من نفس الجزء . ثم ذكر تعالى ان الناس فريقان . فأما الذين آمنوا فיעملون انه الحق من ربهم . لانه ليس نقصا في حد ذاته . وقد جاء في كلامه تعالى : فهو ليس نقصا في جانبه وإنما هو حق لانه مبين للحق ومقرر له وسائق الى الاخذ به لما له من التأثير في النفس وذلك ان المعاني السكليه تعرض للذهن مبهمه فيصعب عليه ان يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها والمثل هو الذي يفصل اجمالها ويوضح ابهامها فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ومشكاة الهداية ونبراسها . ورحم الله تعالى عبد القاهر الجرجاني امام البلاغة والواضع الأول لعلى المعاني والبيان ومؤلف اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لتحقيق اعجاز القرآن . حيث قال في كتابة الأول واعلم ان مما اتفق العقلاء عليه ان التمثيل إذا جاء في اعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها بهمة وكسبها منقبة ورفع من اقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب اليها واستثار لها من اقاصى الافئدة صباية وكلفا وقسر الطباع على ان تعطيها محبة وشغفا ... الخ

هذا الذى يقال فى المثل يقال فى القصة لآن المثل قد يكون قصة أو ان القصة قد تنجى مثلا فحسب بل لأن هذا الذى يقال فى التمثيل من حيث شرح المسائل والتسكين لها فى الانفس يقال مثله وأكثر منه فى القصة . ولقد صرح القرآن الكريم فى كثير من المواطن بأن أخبار الانبياء والمرسلين أو اقاصيصهم لم ترد فى القرآن إلا على أساس انها من الأمثال . قال تعالى . واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ... الخ . وقال تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ... الخ . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ... الخ .

وعلى هذا الأساس جاء تعريف الرازى للقصة عند تفسيره لقوله تعالى

ان هذا هو القصص الحق . كما جاء تعريفه للحق عند تفسيره لقوله تعالى : وكلاً نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى .. إذ تراه يقول عند تفسيره للأولى : والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهتدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة كما تراه يقول عند تفسيره للثانية أما الحق فهو اشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة . وأما الذكرى ... الخ .

ومما يؤكده هذا الذي يذهب اليه المفسرون ان القرآن الكريم قد جرى في اقايصه على هذا الاساس أساس أن القصة إنما توصف بالحق لأنها تشرح الحق وتقرره لأنها في ذاتها حقيقة ثابتة . وليس ادل على هذا من قصة أصحاب الكهف تلك القصة التي وردت فيها الآية الكريمة « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » اذ الذي نظمنا اليه والذي قال به بعض الاقدمين من المفسرين ان القرآن الكريم لم يذكر في هذه القصة الحقيقة التاريخية . وإنما ذكر ما كان يعرفه اليهود وأهل الكتاب عن عدد الفتية وعدد السنين . والاستاذ النجار إنما يعتمد على هذا القول ويرفض ما عداه في تعليقه على مادة أصحاب الكهف من الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية على انا نستطيع ان نشرح المسألة بإيجاز فنقول .

يذكر الدارسون للقرآن والشارحون لأسباب النزول ان قصة أصحاب الكهف إنما نزلت إجابة عن أسئلة توجه بها المشركون من أهل مكة بأيعاز من اليهود إلى النبي عليه السلام ليعرفوا امن الانبياء هو أم من المتنبيين ؟ ويذكر الدارسون والشارحون ان المشركين حينما رجعوا من المدينة أو من عند اليهود إنما رجعوا ومعهم المقياس الذي يقيسون به صدق نبوة النبي وصحة رسالته ولم يكن هذا المقياس إلا الاجابة عن الاسئلة .

هنا نستطيع ان نسأل هذا السؤال . ما الاجابة التي يتوقع المتوقع ان

ينزل بها الوحي من السماء ليثبت نبوة النبي وصدق رسالته . اهي الحقيقة التاريخية من أمر أصحاب الكهف . أم هي الاجابة التي ذكرها اليهود من أهل المدينة المشركين من أهل مكة وجعلوها المقياس الذي يقاس به أمر النبي عليه السلام ؟ .

اعتقد انك قد فطنت إلى ان الاجابة الثانية هي المطلوبة لانها وحدها المقياس الذي وضعه اليهود في يد المشركين ولانها التي تثبت حقا ان الوحي ينزل من السماء لأن معرفة ما قاله اليهود للمشركين قد تكون اشق واعسر من معرفة الحقيقة التاريخية من أمر أصحاب الكهف لأن المعرفة الأولى معرفه الخبايا والاسرار والمعرفة الثانية معرفة الوقائع البشرية التي يسجلها التاريخ والتي يتناولها الرواة والافراد .

هذا الذي نقول به هو الذي يتضح تماما من فن بناء هذه القصة في القرآن . لماذا ردد القرآن الكريم عدد الفتية من أصحاب الكهف بين الثلاثة الرابعهم كلهم والخمسة السادسهم كلهم والسبعة الثامنهم كلهم ؟ لماذا ردد ولم يذكر العدد الحقيقي . كل هؤلاء ؟ .

ولماذا لم يذكر القرآن الكريم العدد الحقيقي للسنين ؟ لماذا قال ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ثم اعقبه بقوله قل الله أعلم بما لبثوا ؟ لماذا كل هذا ؟

لا نستطيع ان نتصور ان هناك من يدعى ان المولى سبحانه وتعالى كان يجهل العدد الحقيقي من أمر هؤلاء الفتية فانه يعلم السر واخفى والله يعلم حائنة الاعين وما تخفي الصدور وحاشا للمولى سبحانه وتعالى الا يتعلق بغلبة أمر ما في الأرض أو في السماء .

ان التردد في العدد وان التجهيل في أمر السنين لم يكن إلا لحكمة يريد بها

المولى وليست الحكمة فيما نرى إلا أن ينزل القرآن بما قالته اليهود المشركين ومن هنا كانت أيضا هذه النصائح التي يذكرها في القصة القرآن الكريم . لقد كانت اجابات اليهود غير موحدة ومن هنا كان ما ترى في القصة من تجهيل وترديد . فن بناء القصة في القرآن يشعر بما نذهب اليه من ان اصفه الحق في هذا الموطن لم تطلق على النبأ من حيث هو حق في ذاته وإنما اطلقت عليه من حيث هو شارح للحق ومبين له . ولا يزيد في هذا المقام ان نتعرض لما يقوله الكثيرون من ان هذه القصة ليست إلا اسطورة من الاساطير الرومانية لأن هذا التعرض لا يليق بهذا المقام . وقد يكفي في هذا الموطن ان نحيلك إلى دائرة المعارف لترى ما يذكره الذاكرون هناك .

والشارحون لمعنى كلمة الحق في القرآن الكريم من أمثال الراغب الاصفهان في كتابه المفردات في غريب القرآن يذهبون إلى ان الحق كلمة اوصفه بوصفها في بعض الاحيان الفعل أو العمل الذي يحى على مقتضى الحكمة . كما قد يحى وصفاً للفعل أو القول الذي يكون بحسب ما يجب وفي الوقت الذي يجب .

وعلى الاساس السابق لاستعمال لفظة الحق في القرآن الكريم لو انك مقصصت قصة خيالية على طفل صغير أو انسان كبير تقصدها ردعه وزجره أو تربيته وتهذيبه أو حتى ادخال السرور على قلبه وتنشيط همته واحداث القصص ما اليه قصدت فهذه القصة حق . هي حق لا من حيث الاحداث والاشخاص فهما كما ذكرنا من نسيج الخيال وإنما من حيث الأثر النفسى الذى تحدثه القصة أى من حيث الوصول إلى الهدف وتحقيق المقاصد والاغراض . هذا الذى نقول به على هذا الوجه هو الذى التفت اليه القاضى

عبد الجبار عند حديثه في كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن عن قصة المباحلة وإليك أولا ما قال .

يقول القاضي الفاضل في ص ٦٢ من كتابه ما يلي (مسألة . وربما قيل في قوله تعالى فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم .

كيف ترفع محاجة النصارى في عيسى إذ قالوا انه الله . وانه ابن الله . ومحاجة اليهود اذ كذبوا بولادته من غير ذكر بالمباحلة التي ذكرها الله ؟ وجوابنا ان الحجة في ابطال قولهم اذا ظهرت ولم يقع القبول وعلم الله تعالى ان في المباحلة مصلحة لم يمنع ذلك . ومعلوم ان عند المباحلة والملاعنة يخاف المبطل فرما يكون ذلك من سبب تركه الباطل اما ظاهرا واما باطنا ولذلك قال تعالى بعده « ان هذا هو القصص الحق » لان ما ينذر ويخوف يوصف بذلك . » انتهى

وواضح من قول القاضي عبد الجبار ان المباحلة لم تسكن إلا للتخويف وان الخوف من العوامل التي تدعو الانسان الى ترك الباطل وان ما يبعث الخوف يوصف بالحق .

١) القصة التي تبعث الخوف وتدفع الى ترك الباطل توصف بانها حق . توصف بهذه الصفة لا من حيث وقوعها أو عدم الوقوع وإنما من حيث بعثها للخوف واستثارتها له لأن ما ينذر ويخوف يوصف بذلك .

المسألة على هذا القول في غاية الوضوح ولا تحتاج الى دليل أو برهان .

على اننا نستطيع ان نفسر المسألة من وجهه نظر اخرى هي التالية :

يذهب بعض المفسرين الى التفرقة بين الحكاية أى بين جسم القصة أو هيكلها وبين ما فيها من توجيهات دينية أو اجتماعية . ويذهب هؤلاء الى

ان الجسم أو الهيكل غير مقصود وان المقصود من عملية القص القرآنية ليس إلا هذه التوجيهات . ليس إلا ما في القصة من المعاني الدينية والخلقية والقيم الاجتماعية والنفسية : ويذهب هؤلاء أيضا الى ان المشركين قد ضلوا السبيل حين اعتقدوا ان المقصود من عملية القص القرآنية هو الحكاية وانه من هنا ذهبوا الى ما ذهبوا اليه من عد القصص القرآني من الاساطير وها هي بعض العبارات من كتب هؤلاء المفسرين .

جاء في الرزاي > ٤ ص ٥٩١ عند تفسيره لقوله تعالى : بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ما يلي : الأول انهم كلما سمعوا شيئا من القصص قالوا ليس في هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا ان المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها .

وجاء في النيسابوري > ١١ ص ٨٥ هامش الطبري عند تفسيره للآية السابقة ما يلي . وذلك انما حماتهم على التكذيب أولا وآخرآ وجوه منها انهم وجدوا في القرآن أقاصيص الأولين ولم يعرفوا المقصود منها فتألوا اساطير الأولين وخفي عليهم ان الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم ونقل الأمم من العز الى الذل وبالعكس ليعرف المكلف ان الدنيا ليست مما يبقى فنهاية كل حركة سكون وغاية كل سكون إلا يكون ، كقوله عز من قائل لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب .

ريمضي الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده إلى ابعد من هذين حين يقول عند تفسيره لقصة هاروت وماروت من سورة البقرة ما يلي فيما نقل عنه صاحب المنار > ص ٣٩٩ ، قال الاستاذ الامام ما مثاله . بينما غير مرة ان القصص جاءت في القرآن لاجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وإنه ليحكى من عقائدهم الحق

والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل
الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز مواطن
الهداية ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأساليب النظم ما يدل على
استحسان الحسن واستهجان القبيح .

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند مخاطبين أو المحكى عنهم
وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله : كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من
المس ، وكقوله : بلغ مطلع الشمس ، وهذا الأسلوب مألوف فالتأني
كثير من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في
في خطبهم ومقالاتهم لاسيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء
ولا يمتدح أحد منهم شيئا من تلك الخرافات الوثنية ...

إذ الواضح أن الأستاذ الإمام يحيز أن يكون في التعبير القرآني قصصاً
وغير قصص أثر للأساطير إجراء للعبارات على تلك الظواهر الخرافية
لأنه يحكى من عقائدهم الحق والباطل كما يحيز أن يكون القرآن قد أجرى
أساليبه كما هو المعروف عند الأدباء فجعل الخرافات الوثنية أداة للتعبيرات
البلاغية .

يحيز الأستاذ الإمام هذا كله إلى جانب نصه الصريح الواضح على أن
التاريخ غير مقصود .

والآن إذا كانت المعاني التاريخية غير مقصودة فهل يحىء من يقول بأن
صفة الحق إنما تنصب على هذه المعاني ؟ أعتقد أن لا .

المقصود بالصفة هو الهدف الذى يقصد إليه القرآن من القصص فالحق
هنا ليس المعاني التاريخية وإنما هى المعاني الدينية والخلقية ، الخ . تلك التى قصد
إليها القرآن من عملية القص .

هذه تفسيرات مختلفة لهذه الصفة لك أن تقبل منها ما تشاء . وأن ترفض ما تشاء ولك أن تفهم إلى جانبها أن القصة الفنية قد تختار أحداثها وأشخاصها من التاريخ ومن واقع الحياة وليس يلزم حتما حين تقول بأن القصة في القرآن عمل فني أن تقول إن فنية القصة في القرآن إنما تجيء من أن عناصرها من نتاج الخيال .

لا يلزم هذا ويجب ألا يفهم قولي على إطلاقه وإنما هي الحلول التي نضعها لنفسج مجال القول أمام الدارسين ونمكن العقل الإسلامي من أن يفهم القصص القرآني على أسس أدبية ، أسس لم نجيء بها من عندنا وإنما وقفنا عليها من ملاحظة الظواهر الفنية والأدبية التي تجري عليها عملية القص في القرآن وفي الختام أرجو أن أكون قد قدمت ما فيه الخير .

والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد احمد خلف الله

القاهرة

تمهيد

أريد أن أوضح في هذا التمهيد شيئين . الأول منهما الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع موضوع الفن القصصي في القرآن الكريم والثاني المنهج التي سرت عليه في دراسته .

أما الأسباب التي جعلتني أعنى بالدراسة الأدبية وأجعل من القرآن ميداناً أبحاثي فيها فترجع قبل كل شيء إلى نوع من الاستهواء عمل على إذاعته في نفسى درس أستاذنا الحولى عن المنهج الأدبي في فهم القرآن وتفسيره فقد كانت تلك اللغات تستقر في نفسى استقراراً يجعلنى أنخيل أنى أستطيع تمثل هذا المنهج والسير عليه في تفسير كتاب الله .

ساعد على هذا التخييل ونماه في نفسى تلك التربية الدينية التي لاحقتنى صغيراً والتي جعلتني أؤمن إيماناً قوياً بأن العقلية الإسلامية الحققة إنما تظهر سافرة مشرقة في الجانب الدينى والتشريعى من جوانب الثقافة الإسلامية . ومن هنا كنت أعتقد أنى من أحق طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب وأجدرهم على السير في هذه السبيل والضرب فيها بخطائباته .

وكان منهج الأصولين في البحث في المقدمات اللغوية وفهم النصوص القرآنية حين يستخرجون الأحكام ويصبطون أمور التشريع من العوامل التي تغربني أيضاً فعددت العزم على أن أصنع صنيعهم في القرآن في غير باب التشريع . أعددت العزم على أن أجمع الآيات المتعلقة بجزئيه من الجزئيات أو مسألة من المسائل فأرتبها الترتيب التاريخي وأفهمها الفهم الذى يساعدنى على استخلاص الحقائق وتوضيح ما تشتمل عليه من أفكار وآراء

دفعني كل هذه الأشياء إلى القرآن فطاوعتها وأخذت موضوعي الأول
« جدل القرآن الكريم » موضوعا لدراسة الماجستير .

اخترته وما كنت قد تبينت تماما ذلك المنهج الأدبي فلم تكن أصوله
قد استقرت في نفسي استقرار الحقائق الواضحة وما كنت أطمع في
أكثر من دراسة القرآن على منهج الأصوليني في الدرس فإن انحرفت
فاستجابة لشيء مبهم لم يتضح بعد الوضوح الكافي .

لكنني ما لبثت أن تبينت حقيقة ذهلت لها أول الأمر فقد تبينت أن
القرآن نفسه اعتمد على ما يعتمد عليه أصحاب الدعوات من عوامل وأنه
صور العوامل النفسية للدعوات ولفت الذهن إلى الفاعلية القوية التي
تكمن في الألفاظ وعرف للدعاية والرقابة سلطانها ففرضهما على النبي عليه
السلام وعلى المؤمنين بالقدر الذي كانت تسمح به الظروف في هاتيك
الأيام .

ومضيت في الدرس فاستقر في نفسي شيء آخر هو أن تلك الآراء
التي يثبتها المفسرون على أنها متعارضة وتلك المذاهب العديدة التي توزعتها
الفرق الدينية المختلفة لعلها قامت على غير أساس . قامت لأن قصد القرآن
من استعمال الألفاظ لم يفهم تماما . وقامت لأنه استقر في ذهن المؤمنين
بها أن المطلوب من وراء الألفاظ ليس شيئا غير المعاني . وقامت لأن هذه
الفرق قد حددت المعنى حينما استقر في ذهن أصحابها من وراثة أو تلقين .
وعلى الجملة قامت لأن هذه الجماعات كانت تفرض آراءها ومعتقداتها على
القرآن ولم تفهم القرآن الكريم فهما سديدا قائما على أسس سليمة من
الدرس والفهم والتي من أولها ألا نفرض ثقافتنا وعلينا وفلسفتنا على
النصوص التي أمامنا وإنما نحاول جاهدين الوقوف على ما في هذه النصوص
من قيم ومن آراء ومعتقدات ومن أفكار عليية واجتماعية يدل عليها النص

نفسه ويوحى بها ويشير إليها حتى ولو لم تتفق هذه الأفكار وما به ندين .
وإذا اردنا أن نضع بين يديك ألوانا من هذه المثل فلن نجد خيرا من
هذين المثلين .

(١) في تفسير المفسرين لقوله تعالى « يس والقرآن الحكيم إنك لمن
المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتندر قوما ما أنذر
آبائهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون إنا جعلنا في
أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا
ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم
تنذرهم لا يؤمنون » نجد كثيرا من الآراء المتعلقة بالمشكلة الفلسفية مشكلة
القضاء والتقدير وخلق الأفعال هي التي تملئ على المفسرين أقوالهم في الآية
حتى لنرى الطبري — وهو أبعد المفسرين عن حشو كتابه بآراء الفرق
الدينية — يقول « يقول تعالى ذكره وسواء يا محمد على هؤلاء الذين حق
عليهم القول أي الأمرين كان منك إليهم الإنذار أو ترك الإنذار فأنهم
لا يؤمنون لأن الله قد حكم عليهم بذلك ، وهو قول يدعو إلى العجب من
غير شك إذ الناظر في هذه الآيات ~~يلاحظ~~ أمثالها يرى أنها وصف أدبي دال
يعبر أقوى تعبير عن حال أولئك الذين أثقلتهم التقاليد وطال عليهم الأمد
فقسست قلوبهم . وأولئك الذين تمسكنت منهم العقائد الباطلة حتى لينظرون
إلى الوجود من خلالها . ولم يرد القرآن الكريم فيما نرى تلك الأشياء التي
وقف عندها المفسرون وبخاصة الرازي من أدلة الفرق الدينية وجدها
العتيم فأطالوا الوقوف وذكروا منها ما يباعد بين المرء وبين الفهم السديد
للقرآن الكريم . بل ذكروا ما يفسد ذوقه الأدبي وحسه بوقع الالفاظ
على النفس الانسانية وما يلفت الذهن إلى قضايا عقلية كان من الخير له
وللقرآن الاعراض عنها .

إن ختام هذه الآيات يشرح لنا ما يريد القرآن أجمل شرح وبوضوح
 لنا ظاهرة اجتماعية تحدث مع كل دعوة وتوجد في كل زمان ومكان إذ
 نفوس الناس مختلفة واستعداداتهم متفاوتة وقدرتهم على التخلص من
 القديم والاستجابة للجديد تتوقف إلى حد كبير على ما يحيط بهم من ظروف
 وما يلم بهم من أحداث وما يعده الزمن للمستقبل من رجال أحرار يحاولون
 النهوض بأمتهم والأخذ بيدها في طريق التقدم والرقى ومن هنا نرى القرآن
 الكريم يقابل في الآيات السابقة بين صنفين من الناس . صنف عدم القادة
 فأثقلتهم التقاليد وتمسكنت من نفوسهم العقائد وهؤلاء هم الذين وصفهم
 القرآن الكريم بقوله تعالى « لتنذر قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون » .
 وصنف استعدت نفوسهم وتهيأت لأمثال هذه الدعوات وهم الذين قال
 فيهم « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » .

ونستطيع أن نمضى مع هذه الآيات وكثير غيرها فترى أن القرآن
 الكريم يقصد إلى هذه الظاهرة فيصورها ويصور استعدادات النفوس
 فإن اختلف التصوير فلامر يقصد كأن يكون القصد التسرية عن النبي عليه
 السلام وإزالة الهم والغم عن نفسه . أو يكون تنفير هؤلاء وأمثالهم من
 ذلك الموقف الذى يحيط به الجود من كل النواحي . كما قد يكون غير هذين
 من أمور يستطيع الباحث الوقوف عليها . ولكن لن يكون منها فيما نعتقد
 ذلك الذى ذهب إليه المفسرون من أن المولى سبحانه وتعالى قد حكم عليهم
 بعدم الايمان فى المستقبل ولسنا بحاجة إلى القول بأن كثيرا من هؤلاء
 الذين وصفهم القرآن الكريم بهذه الصفات قد آمنوا عام الوفود و عام
 فتح مكة فهذه أمور قد تسكفل بها التاريخ .

(١) وفى تفسير المفسرين أوفى محاولتهم للتوفيق بين ألفاظ الجان
 والشعبان والحية من قصص موسى نراهم يهتمون بالمعاني ويعرضون عما

تثيره الألفاظ من انفعالات وأحاسيس ومن هنا لا يوفقون إلى الفهم الصحيح فيما نعتقد . يقول صاحب الكشف في تفسيره لقصة موسى من سورة طه « فأنا قلت كيف ذكرت بالفاظ مختلفة بالحية والجان والشعبان قلت . أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأما الشعبان والجان فيبينهما تناف لأن الشعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفي ذلك وجهان أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حية حلا لها تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورم وبتزايد جرمها حتى تصير شعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالشعبان مآلها . والثاني أنها كانت في شخص الشعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان . وقيل كان لها عرف كعرف الفرس وقيل كان بين لحياها أربعون ذراعاً .

وصاحب الكشف ومن تابعه يعتقدون أنهم بهذا القول قد خرجوا من تناقض وأن القرآن قد سلم من اعتراض وإنه لتناقض دفع إليه الوهم وساعد عليه ما في قصة الخروج من الجنة من اختلاف بين التوراة والقرآن فقد ساعد على خروج آدم من الجنة إبليس في القرآن والحية في التوراة ووفق الموفقون بين القولين وانتهوا إلى أن الجان نوع من الحيات .

إن القوم لو تدبروا قليلاً لما احتاجوا إلى مثل هذه الوقفة فالقرآن في استعماله لهذه الألفاظ إنما يقصد إلى ما تثيره الألفاظ من انفعالات وما توحى به من عواطف وهو في هذه الآيات إنما يستعمل لفظ الجان حين يقصد إلى الحديث عن موسى عليه السلام لتصوير عاطفة الخوف وغريزة الهرب وذلك عند رؤيته العصا تتحرك ولذا نراه يقول بعد لفظ الجان « ولى مدبراً » والجان فيما نرى مثير للخوف ينفر منه الناس ويولون ما أسعفتهم أرجلهم . ويستعمل القرآن لفظ الشعبان أو الحية حين يقصد

إلى تصوير ما حصل بين موسى والسحرة أو موسى وفرعون وبعبارة أخرى حين لا يقصد إلى تصوير خوف موسى حين رأى العصا تهتز .

ثم مضيت وكلما ازدادت مضاء استقر المنهج الأدبي في نفسي فازددت تعلقاً بالقرآن ودرسه وتنبه ذهني إلى كثير من موضوعاته التي يمكن أن يكون منها موضوع رسالة الدكتوراه .

كان القصص القرآني من الموضوعات التي اتجه إليها ذهني منذ اللحظة الأولى وكان السبب في ذلك أن القصص كان من أهم العوامل النفسية التي لجأ إليها القرآن في الجدل والحوار وفي البشارة والإنذار وفي شرح مبادئ الدعوة الإسلامية والتمكين لها وفي تثبيت قلب النبي عليه السلام وقلوب من اتبعه من المهاجرين والأنصار .

اتجه ذهني إلى القصص القرآني ولم أكن قد قدرت بعد سلطان القصة في الجزيرة العربية في ذلك الوقت ولم أكن قد عرفت بعد أنها الوسيلة التي كانت تلجأ إليها المعارضة حين تحاول الكيد للنبي عليه السلام والتحدى للقرآن الكريم . ولم أكن قد وقفت بعد على ما يروونه عن النضر بن الحارث وكيف كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس محمد عليه السلام وكيف كانت قریش تستملح حديثه حتى لتتصرف عن النبي إليه حين يقص على الجماعات أخبار فارس وقصص رستم واسفنديار .

لم أكن قد وقفت على شيء من هذا ولذا لم أكد أقف عليه وأتأمله حتى قرأت في نفسي أن يكون « الفن القصصي في القرآن الكريم » موضوع رسالتي المقبلة رسالة الدكتوراه .

على أني لم ألبث أن تبينت أسباباً أخرى أكدت في نفسي ما سبق فقد لاحظت أن أئمة الدين والتفسير يعدون القصص القرآني من المتشابهة

وأن الملاحدة ومن نحاحوهم من مبشرين ومستشرقين قد وجدوا منه الثغرة التي ينفذون منها للطعن على النبي وفي القرآن الكريم .
هنا حلال الوقوف فأطلت وإليك ماعن من ملاحظات .

لاحظت أن السبب في موقف أولئك وهؤلاء من القرآن يرجع في جملته وفي تفصيله إلى ذلك المنهج المنحرف الذي جرى القوم عليه والذي دفعهم إلى دراسة القصص القرآني كما تدرس الوثائق التاريخية لا كما تدرس X النصوص الدينية والنصوص الأدبية البليغة أو المعجزة ومن هنا وقفت لأدرس القصص القرآني على منهج الأصوليين واللغويين والأدباء عسى العقد أن تحل وعسى المشكلات أن تزول وعسى هذا الباب الذي يلج آمنه الملاحدة والمبشرون أن يوصد إلى غير رجعة إن شاء الله .

X ولاحظت أن الوحدة القصصية في القرآن الكريم لا تدور بحال من الأحوال حول شخصيات الرسل والأنبياء عليهم السلام وإنما تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على الموضوعات الدينية والأغراض القصصية من اجتماعية وخلقية ومن هنا تبينت لماذا عدَّ القدماء من المفسرين القصص القرآني من المتشابه .

٢ ولاحظت أن القرآن لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ إلا في النادر الذي لا حكم له وأنه على العكس من ذلك عمد إلى إيهام مقومات التاريخ من زمان ومكان ومن هنا تبينت أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ وهي غير مقصودة وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني . ولو أنهم شغلوا أنفسهم بتلك المقاصد الحققة لأراحوا أنفسهم من عناء كبير ولأبرزوا الجوانب الدينية والاجتماعية من القصص القرآني إبرازاً ملموساً يهز المشاعر والعواطف ويؤثر في

العقول والقلوب وعند ذلك كانوا يمكنون للدين وقضاياه ويسرون
وهدى القرآن الكريم .

ولاحظت أن القوم أعرضوا عن الوقوف عند الأحداث والأشخاص
من حيث تصويرها تصويرا معجزا رائعا ووقفوا عندها من حيث هي أداة
من أدوات التاريخ ومن هنا أخذوا يسألون أنفسهم أسئلة عقدت القصص
القرآني أمامهم فكانوا يسألون مثلا عن الحادثة أوقعت أم لم تقع ؟ وإذا
كانت قد وقعت فمن الذي أوقعها ؟ واين ومتى ؟ إلى غير ذلك من أسئلة
حالت العناية بها بينهم وبين الوقوف على القصد الذي يرمى إليه القرآن من
تصويره للأحداث من حيث هي أدوات ترغيب وترهيب وموعظة وعبرة
وهداية وإرشاد ولو أن القوم درسوا الصيغ المعبرة عن الأحداث على هذا
الأساس لأراحوا واستراحوا وفطنوا إلى أمور كثيرة من أسرار الإعجاز
ولعرفوا الفاعلية القوية لسحر الألفاظ .

ولاحظت أخيرا أن المستشرقين قد عجزوا عجزا يكاد يكون تاما عن
فهم أسلوب القرآن الكريم وطريقته في بناء القصة وتركيبها وعن الوحدة
التي يقوم عليها فن البناء والتركيب ومن هنا ذهبوا إلى ذلك الرأي الخاطيء
القائل بتطور الشخصية في القرآن الكريم . كما رأيتهم قد عجزوا عن فهم
طبيعة المواد القصصية في القرآن وعن أسرار اختيارها ومن هنا ذهبوا
إلى ذلك الرأي الذي سبقهم إليه المشركون من أهل مكة والملاحدة من
المسلمين من القول بأن الذي يعلم محمدا بشرا وأن بالقرآن أخطأ من أخطأ
التاريخ . ولو أنهم فهموا أسرار القرآن لما كان منهم ذلك القول الذي يدل
على جرأة على الحق وبعد عن روح العلم وهي مما لا يحب العلماء أن تكون
من صفاتهم .

لاحظت كل هذه الأشياء فأكدت في نفسي كما قلت عوامل اختيار الفن القصصى فى القرآن الكريم ومنيت النفس بحل المشكلات وإزالة الشبه وإنى لأعتقد أنك سترى من ذلك ما يعجبك وما يرضيك .

وهنا جد فى الأمر جديد هو من الخطورة بمكان . هو أن القصص القرأنى يحقق غرضاً منهجياً فى الدراسة الأدبية الجامعية . غرضاً منهجياً أحدث عنه كليتنا أو قسمنا على أقل تقدير مع أنه المنهج السليم فيما أرى واليك البيان .

كنت قد أحسست بحاجتى الملحة إلى الإطلاع على ما يفعله علماء الغرب حين يدرسون الأدب وتاريخه فاستجبت لهذا الإحساس وقرأت بعض الكتب التى تعالج هذه المسائل وكان مما قرأت تلك المجموعة من الأبحاث التى قام بها الأدباء وعلماء الأدب من الانجليز وأخرجتها جامعة اكسفورد على أساس من الدراسة فريد فلقد قامت دراسة هؤلاء على أن الأدب تجربة وتقليد وأرى الدراسة التاريخية له على هذا الأساس يجب أن تبدأ معه وهو وليد .

وقامت هذه الدراسة أيضاً على أساس أن كل لون من ألوان الأدب يكتب فى تاريخه لإنسان مؤرخ للأدب وأديب يكتب فى الشعر مؤرخ للشعر وشاعر يكتب فى القصة مؤرخ للقصة وقصاص وفى النثر الفنى مؤرخ للنثر وكاتب وهكذا .

ثم كان مما قرأت أيضاً ذلك البحث القيم الذى كتبه عن المنهج الأدبى لانسون وعربه مندور قرأت هذه الكتب فأنهت بى القراءة إلى الإحساس بالمفارقة العجيبة التى توجد بين ما تصوره للدراسة الأدبية من منهج وما عليه نسير .

تصورت أن القوم يفرقون بين دراستهم للنصوص دراسة أدبية وبين قراءة هذه النصوص للاستمتاع واللذة وترضية العواطف والشعور .
وتصورت أنهم حين يدرسونها دراسة أدبية يعنون العناية التامة بالفرقة بين ما فيها قيم عقلية وما فيها من قيم عاطفية وأخرى فنية أو بلاغية .

وتصورت أنهم لا يصدر عن حكماء من الأحكام الأدبية على شاعر أو مدرسة أدبية أو مذهب فني أو حتى على عصر من العصور وبيئة من البيئات إلا بعد استكمال الوسائل التي تمكنهم من الحكم على هذا أو ذاك .

وتصورت أن أولى هذه الوسائل هي الوقوف على المواد التي يجب درسها قبل إصدار الحكم ومن هنا رأيتهم حينما يحاولون إصدار حكم أدبي يتطلبون استكمال هذه المواد .

أولاً -- النصوص الأدبية فيجمعونها ويحققونها ويدرسونها دراسة أدبية عميقة توضح الظواهر العقلية والعاطفية والفنية وتفسرها تفسيراً واضحاً مقبولاً .

ثانياً -- وهم ثانياً لا يفسرون خصائص الأديب الشاعر أو الناثر كما لا يفسرون خصائص المدرسة أو المذهب والعصر أو البيئة إلا على أسس ثابتة .

فالخصائص التي لا يشرك الأديب فيها غيره هي خصائصه المميزة والخصائص التي يشرك فيها غيره هي خصائص المدرسة أو المذهب فإن كانت من الخصائص العامة التي تعم البيئة أو تجاوزها فهي خصائص العصر أو البيئة وهكذا .

ثالثاً — وهم ثالثاً لا يستطيعون الحكم الأدبي على عصر من العصور أو مدرسة من المدارس ويتبينون خصيصة المميزة إلا بعد الوقوف على الخصائص المميزة لكل عصر من العصور السابقة .

انهم يتطلبون في الدراسة القيمة للتاريخ الأدبي أن تسير سيرا منطقيا مسلسلا وأن تبدأ مع الأدب فتخطو معه خطواته الأولى وتشرکه في الحياة منذ أن تدب فيه .

انهم يسلسلون التيارات الأدبية ويحللون ما فيها من قيم ويصورون لنا الحياة العقلية بما فيها من فلسفة وعلم والحياة الفنية بما فيها من مذاهب وصور للتعبير .

وفرق كبير بين ما عليه هؤلاء وما عليه تسير وإنه لفرق يشعرنا بالنقص الذي يجب علينا أن نتداركه وإلا ضاعت قيمة العلم والتعليم وتستطيع أن تفكر معي في هذا المثال .

هذان بحثان آخرجهما زميل من الزملاء هما الفن ومذاهبه في الشعر وقد كان رسالة لنيل درجة الدكتوراه والفن ومذاهبه في النثر وقد خرج بعد الأول بثلاثة أعوام فهل نستطيع أن نتصور أنهما أخرجا إخراجا علميا سليما؟

إن إخراج هذين يحتاج إلى درس نستطيع أن نعهده في حكم المستحيل من حيث ما يتطلبه من دقة علمية واستقصاء في البحث ذلك لأن هذا الإخراج يتطلب قبل كل شيء الوقوف على المواد الأدبية أو على النصوص وتصور معي طول الزمن واتساع الرقعة فهذا الأدب العربي يطول ويطول حتى يطوى خمسة عشر قرنا أو يزيد . وهذه الرقعة تتسع وتتسع حتى لتجاوز القارة الواحدة إلى القارات فانها تشمل بلاد العرب بما فيها الحجاز واليمن

وتشمل بلاد الشام بما فيها سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن وتشمل العراق . ثم هي تنتقل من آسيا الى إفريقيا فتشمل مصر وشمال إفريقيا طرابلس وتونس والجزائر ومراكش . ثم تنتقل الى القارة الأوروبية فتشمل بلاد الأندلس

ثم تصور معي الى جانب طول الزمن واتساع الرقعة ما تراكم فيها من ثرات فهناك الشعر العربي كله وهناك النثر العربي كله بمسافيه من خطب ومقالات ورسائل وحكايات وكتب مختلفة الألوان وقصص ومقامات .

تصور كل هذا ما طبع وما لا يزال مخطوطا وقل لى هل استطاع صاحبنا جمع هذا الترات والوقوف عليه في دقة واستقصاء ؟ واذا كان فهل استطاع أن يدرسه حقا ؟ واذا كان فهل استطاع من هذه الدراسة الوقوف على كل ما فيه من ظواهر عقلية وأخرى عاطفية وثالثة فنية أو بلاغية ؟ واذا كان فهل استطاع أن يفسر هذه الظواهر تفسيراً سليماً ؟ واذا كان فهل استطاع أن يسلسل الصور التعبيرية من استعمال للألفاظ وبناء للجمل والتراكيب والرسائل والقصص والمقامات ... الخ ؟ واذا كان فهل اقام الفروق في كل هذا على الخصائص المميزة لسلك من الأدب ثم المدرسة والمذهب ثم العصر والبيئة ؟ . ان قلت نعم فاني اقول كلا والاف مرة كلا اللهم الا اذا كان صاحبى ممن يصنعون الخوارق ومن تجرى على ايديهم المعجزات .

ان اختيارنا لأمثال هذه الموضوعات يباعد بيننا وبين الدرس العلمى الصحيح ومن هنا يكون كل مانصنعه أننا نقرأ ما كتب عن هذه النصوص نفسها وأنا نسجل من الأحكام الادبية قضايا عامة لم تمحس ولم تدقق ومن هنا يكون العلم منها راء .

ان الخطة العلمية الجامعية عندنا تسير على غير هدى وبينه و من هنا نعرض كثيرا عن الجزئيات ونجربى سراعا الى الامور العامة وهذا هو البلاء .

اننا فى حاجة الى أن نبدأ أعم الادب وهو وليدونسايره فى النمو حتى تكون الاحكام صادقة ويكون الدرس العلمى متجاوئسد فى كليتنا الخطوات هذا هو الجديد الذى قوى فى نفسى اختيار الفن القصصى فى القرآن الكريم فقد رأيت هذا الموضوع يحقق هذا المنهج من حيث أن القصص القرآنى نقطة البدء فى دراسة القصة العربية عامة والدينية بصفة خاصة ولا اخالك فى حاجة الى أن أدلك على أن ما سبق القصص القرآنى من قصص عربى لا يسلح أن يكون مادة للدراسة الادبية للقصة بحال من الاحوال وليس ذلك الا لانه لم يصلنا سليما وكل ما حوفظ عليه فيه هو قيمته الفكرية وأنه من هنا يصلح لدراسة التيارات العقلية ولا يصلح لدراسة التيارات الفنية ان القصص القرآنى هو القصص الذى وصلنا سليما وهو الذى نشق به ونظمئن اليه ومن هنا نستطيع أن نعتبره الصورة الاولى للقصة العربية .

هذه الامور مجتمعة هى التى دفعتنى الى اختيار هذا الموضوع وإنى لأرجو أن أكون فى درسه من الموفقين .

المنهج

وأستطيع الآن أن أوضح المنهج وأن أصور الخطوات التي سرت عليها أثناء الدرس لهذا الموضوع . وهي خطوات قد تعتبر جديدة بالنسبة لموضوعنا هذا فلم يسبق أن درس القصص القرآني على هذا الأساس الأدبي الذي يصور ما فيه من ظواهر أدبية هي سر قوته واعجازه . ثم هي جديدة أيضا إذا فهمنا أن ليست هناك مناهج عامة تصلح لكل شيء إذ لكل مشكلة حلها الخاص بها ومنهجها الذي تعالج أو تدرس بمقتضاه والسبب في ذلك سهل يسير فنحن نعرف أن لكل مشكلة ظروفها المحيطة بها ولكل مسألة أدبية أو بلاغية عواملها الخاصة التي لعبت دورا مهما في تكوينها والتي لا تحل المشكلة حلا دقيقا أو سليما إلا إذا نظرنا في بحثها إلى أثر تلك الظروف أو هذه العوامل .

وهذه الخطوات ذاتها قد تعتبر قديمة إذا نظرنا إليها على أنها مستقاة من كتب المناهج أو من الواقع العملي لما يفعله النقاد وكبار رجال الأدب حين يدرسون الآثار الأدبية والفنية ولقد مكنتني متابعتي لما يفعله هؤلاء من الوقوف على أساليب مختلفة في تسجيل الظواهر بعد الوقوع عليها وفي تفسيرها تفسيراً أدبياً معقولاً كما علمتني كيف اتذوق تذوقاً أدبياً عميقاً .

ولعل أهم ما أفادتني هذه الخبرة هو أن القصد من أي بحث يلعب دوراً كبيراً في تشكيل منهجه وفي رسم خطته ومن هنا كان من الختم أن نلتفت سوياً إلى الوراء وأن نذكر الأسباب التي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع إذ

منها يتبين القصد .

والآن نستطيع أن نعرض عليك الخطوات :-

أولاً - - جمع النصوص ١ - إذا كانت معرفة نص ما تستلزم حتماً وجوده كانت أولى الخطوات من غير شك هي الوقوف على النصوص وجمعها وأنى لأعترف بأنى لم أجد فى موضوعى هذا من حيث هذه الناحية عناء يذكر . ذلك لأن القصص القرآنى موجود فى القرآن والقرآن قد جمع فى المصاحف أصدق جمع وأدقة بالنسبة لما عاصره من نصوص حتى بالنسبة لأحاديث الرسول عليه السلام . ومن هنا لم يكن عملى فى هذه المرحلة إلا الرجوع الى المصحف وقراءة القرآن الكريم للوقوف على ما فيه من أفاصيل .

وأنى لأعترف هنا أيضاً بأنى قد اكتفيت فى استخراج الأفاصيل القرآنية بحد للقصّة غير جامع ولا مانع إذا كان لابد من الحدود الأدبية للقصّة القرآنية وهذه هى موطن البحث والدرس والا لزم الدور .

اكتفيت إذا بحد اللغويين والمفسرين للقصّة حين هممت بالجمع والتسجيل وأرجأت الحد الأدبى إلى ما بعد الدرس والبحث . وستقف على هذا التعريف الأدبى فى الفصل الأول من الباب الثانى إن شاء الله .

ثانياً - - الترتيب التاريخى للنصوص . وهذا الترتيب يدل الباحثين على التطور فى الفنون والآداب ويستوى فى ذلك عندهم التطور الداخلى والتطور الخارجى . ونقصد بالأول أن يدلنا هذا الترتيب على تطور ذوق الكاتب وأفكاره أو ميادينه الفنية ونشاطه النفسى . ونقصد بالثانى دلالة النص على التطور العام لتاريخ الآداب والفنون من حيث صلته بالسابق واللاحق

والدور الذى لعبه النص فى الحياة الأدبية ومجراها العام .

وانى لأعترف هنا أيضا بأن هذه الخطوة وان تكن أشق من الأولى وأعسر الا انى لم أبذل فيها جهداً يذكر ذلك لأنى اعتمدت فى هذا الترتيب التاريخى للقصص القرآنى على المصحف الملى وان كنت أعلم أنه ليس بالترتيب التاريخى الدقيق لكن ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

ولكنى اعترف الى جانب هذا بأن ذلك الترتيب كان عظيم الفائدة فى دراسة القصص القرآنى وصلته بالبيئة ونفسية النبى وتطور الدعوة الإسلامية فلقد كان مرآة صادقة لكل ما يصادف الدعوة من عقبات كما كان الصورة الصادقة لما يعانى به النبى عليه السلام من أزمات نفسية وعاطفية .

وعلى كل فقد أفادنى هذا الترتيب التاريخى فيما يخص القصص القرآنى بدراسه التطور الداخلى لهذا القصص وشرحت ذلك فى فصلين هما تطور الفن القصصى فى القرآن . القصص القرآنى ونفسية الرسول عليه السلام .

أما التطور الخارجى فقد حالت بينى وبينه عقبات . منها أن الوقوف على النصوص السابقة للقصص القرآنى من أقاصيص الجاهليين لاسيلى اليها ومنها أن صلة القصص القرآنى باللاحق يتوقف أولاً على صلته بالمعاصر من أحاديث الرسول وهذه من الأمور التى سأفرغ لها بعد بحثى هذا إن شاء الله .

وقفت من هذه الخطوة إذا عند الفائدة التى تجنيها من التطور الداخلى وحسبى هذا فى هذا الموضع . ونظره إلى ميسرة .

ثانياً — فهم النصوص : — وهنا لابد من التفرقة بين نوعين من الفهم الأول الفهم الحرفى وهو الذى يقوم على دراسة معنى الالفاظ والتراكيب

والجل كما يقوم على توضيح العلاقات الغامضة والإشارات التاريخية وكل تلك أمور تتوقف إلى حد كبير على ثقافة الدارس تلك الثقافة التي شرطها بالنسبة لموضوعنا هذا المفسرون للمفسر والتي حدد ميادينها الاصوليون في مقدمات كتبهم واني لاعترف هنا بأني قد وقفت على الكثير من هذه الامور من كتب التفسير المختلفة وكان الجهد الذي ابدله يقوم على المقارنة والترجيح والوقوف عند بعض اللمسات التي تفتح افاقا واسعة أو تصحح اخطاء بعض الاقدمين وذلك أمر ليس باليسير فيما اعتقد . الثاني . الفهم الادبي . وهو ذلك الفهم الذي يقوم على تحديد مافي النص من قيم عقلية وعاطفية وفنية فنقف على مافي النص من صور وأراء ونبحث عما خلف هذه الصور وهذه الآراء من أخرى لم يشعر صاحب النص بالحاجة الى التعبير عنها إما لانه كان يفهمها في نفسه وإما لان المعاصرين له كانوا يفهمونها عنه .

وأعتقد أن هذا الصنيع في الفهم الأدبي كان جديداً بالنسبة لموضوعي هذا اللهم الا في القليل النادر فما في القصص القرآني من قيم عقلية وعاطفية وما في القصص القرآني من ظواهر أدبية وفنية لم يدرس ولم يعرض بالصورة التي عرضتها فيه هنا . وذلك أمر لم يكن سهلاً ولا يسيراً .

رابعاً - التقسيم والتبويب . عند ما يصل الباحث إلى هذا الحد من الفهم الأدبي يكون قد أقام من العلاقات ما تسمح له بأن يقسم بحثه أبواباً وفصولاً يقيم كل واحد منها على نوع من العلاقات التي يوحى بها المنهج أو القصد من الدراسة . فقد تجمع النصوص لما بينها من علاقات في الموضوع وقد تجمع لما بينها من علاقات في الصياغة وقد تجمع لما

يتسلط عليها من مقاصد وأغراض . وهذه كلها أشياء قد وقفت عليها وأقمت عليها أساس التقسيم في موضوعي هذا وهي التي انتهت بي إلى ذلك التقسيم الذي ستراه في هذا البحث فهي التي دفعتني إلى أن أجعله بابين كبيرين هما باب القيم العقلية وباب القيم الفنية أو الظواهر الأدبية ، وهي التي دفعتني إلى أن أجعل فصول الباب الأول هي القيم التاريخية والقيم الاجتماعية والنفسية والقيم الدينية والخلقية وهي التي دفعتني إلى أن أجعل كل واحدة من الفصول فقرات .

أما الباب الثاني فقد قسمته إلى الفصول الآتية :-

القصة الأدبية وألوانها الوحدة القصصية في القرآن الكريم . الموضوعات والأغراض . المواد القصصية وأسباب اختيارها . العناصر القصصية وتوزيعها ، الأشخاص ، الأحداث ، الحوار ، المناجاة . تطور الفن القصصي في القرآن الكريم . القصص القرآني ونفسية الرسول عليه السلام . وقسمت كذلك كل واحد إلى فقرات .

خامساً — الاصاله والتقليد :- وهذه مسألة من أهم المسائل عند الدارسين لحياة العلوم والفنون وعند من يريدون الفهم الدقيق العميق للمسائل العلمية والأدبية . ذلك لأنها هي التي ستدلنا على المواد التي تكون منها النص وعلى كيفية تكوينه . وعلى أي منها من عند الأديب وأيها سبق إليه أو بعبارة أخرى أيها اهتمت إليه فطرته وأيها من رواهب الأجيال السابقة .

وهنا اعترف بأن هذا البحث في موضوعنا هذا من العسر والمشقة بحيث يعرض الإنسان لشر عظيم الخطر ولست أخفي أني لقيت عناء كبير أولست

أخفى بأنى أخشى ضرراً عظيماً لكن ما حليتى والعلم يقتضينى أن أستوفى هذا الموضوع حقته .

لقد درست هذه المسائل وكانت لها نتائج قيمة بعضها يخص إثبات التجديد فى الحياة المسكية الأدبية وذلك كمسألة القصة الاسطورية ووجودها فى القرآن الكريم . وبعضها الآخر يخص القوة القادرة على تحويل المواد من تاريخية الى أدبية أو الى قصصيه حتى لتصبح سحراً من السحر أو أشد . وهذه مسائل قد عرضتها فى فصل خاص بها هو فصل المواد القصصية وأسرار اختيارها .

ولعل من المسائل ما وقفت فيه بين بين فلم أعرف أهو من التجديد القصصى فى القرآن أم هو من الاستعمال العادى المألوف عند العرب وذلك كرسمة الأشخاص وتصويره للأحداث .

• • •

تلك هى الخطوات المنهجية التى سرت عليها والتي انتهت بي الى هذا البحث الذى سأعرضه عليك منذ الآن .

الباب الأول

المعاني والقيم التاريخية والاجتماعية

والخلقية والدينية

الأمموت في القرآن

الفصل الأول المعاني التاريخية

ليس المقصد من هذه الوقفة حصر المعاني التاريخية أو الأحداث القصصية التي وردت في قصص القرآن الكريم وإنما المقصد منها البحث عن قيمة هذه الأحداث القصصية في المجالات التاريخية . فهل هي من الوقائع التاريخية أو هي من الأحداث القصصية التي لم يقصد منها إلى التاريخ ؟

والوصول إلى ما نعتقد أنه الحق في هذه المسألة يتطلب منا أولادرس هذه المسألة في العقلية الإسلامية والوقوف على التيارات المختلفة التي لعبت دورها في تكوين هذه الآراء التي نراها في العقلية الإسلامية والتي احتفظت بها كتب التفسير ذلك لأن هذا الدرس هو سبيلنا الوحيدة إلى تكوين الرأي السديد في هذه المسألة الشائكة .

وتاريخ هذه المسألة إنما يرجع إلى عصر البعثة المحمدية أو قبله بقليل . ذلك لأنه يرجع إلى ذلك الرأي الديني الذي كانت تقول به يهود والذي يجعل لهم الحق في معرفة الصادق والكاذب ممن يدعون النبوة ويذكرون للناس أن الوحي ينزل عليهم من السماء فلقد كان من مقاييس هؤلاء في التفرقة بين النبي والمنتبي أن النبي يعلم الغيب وأن من علوم الغيب معرفة أخبار السابقين من الرسل والأنبياء ومن خفيت على الناس أمورهم .

هذا المقياس واضح كل الوضوح من هذه الحادثة التي يقص أخبارها المفسرون والباحثون في أسباب النزول والتي وردت في أسباب النزول

للنيسابورى بعبارة هذا نصها . (وذكر محمد بن اسحاق سبب نزول هذه القصة — قصة أصحاب الكهف — مشروحا فقال : كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلسا ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم فكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام . ويقول : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلوا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس . ثم إن قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبه ابن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لها سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فأنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد . فقال أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقول ...) (١) فإن هذا النص كما ترى يدلنا على أن اليهود هم الذين كانت بأيديهم المقاييس التي يفرقون بها بين الصادق والكاذب من النبيين والمنتبين . ثم هو يدلنا على أن معرفة أخبار السابقين من هذه المقاييس .

على أن القرآن نفسه قد اعتمد على هذا المقياس في الإيحاء بنبوة محمد عليه السلام وصدق رسالته حين ختم بعض الأقاصيص القرآنية بآيات يستفاد منها أن الأخبار الواردة في هذه الأقاصيص من أنباء الغيب وأنها

(١) أسباب النزول سورة الكهف .

قد أوحيت إلى النبي عليه السلام . قال تعالى عقب قصة مريم « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » (١) . وقال عقب قصة يوسف وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . » (٢) . كما قال في قصة موسى « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكننا أنشأنا قرونا فتناول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون . » (٣) . وقال في ختامه لقصة نوح « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين . » (٤) .

x والظاهرة التي يحسن بنا الالتفات إليها في هذا المقام هي أن القرآن حين جعل هذه الأخبار من آيات النبوة وعلامات الرسالة جعلها أيضا مطابقة لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار حتى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة ان تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار . قال تعالى بعد ذكره لقصة يوسف « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل

(١) آل عمران ٤٤

(٢) يوسف ١٠٢

(٣) القصص ٤٤ — ٤٦

(٤) هود ٤٩

كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (١). وقال تعالى بعد ذكره لقصة موسى وفرعون «فأن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» (٢).

واعتماد القرآن على هذا الرأي الديني اليهودي أو على هذا المقياس خالف في الجوهر في عصر النبوة وما تلاه رأيين مختلفين.

(١) الرأي الأول رأى المشركين والكفار من أهل مكة بأن هؤلاء مع معرفتهم لهذا المقياس عن طريق وفدهم إلى أحبار اليهود بالمدينة لم يستطيعوا التسليم بما ترتب عليه من نتائج فلم يؤمنوا بصدق النبي عليه السلام أو بصحة رسالته اعتمادا على هذه الأخبار الواردة بالقصص القرآني وليس يرجع ذلك إلى أن هذه الأخبار لا تتفق ومعارفهم التاريخية فيظهر أنها كانت تتفق وما يعرفون أو تجري وهذه المعرفة في نسق. وإنما يرجع ذلك فيما هو الواضح من آيات القرآن الكريم إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أن الوقوف على أمثال هذه الأخبار الواردة في القصص القرآني ليس شاقا ولا عسيرا فضلا عن أن يكون مستحيلا حتى يصبح معجزا ومن هنا ذهبوا إلى أن محمدا عليه السلام يكتب هذه الأخبار وأنها ليست من الوحي وأن الذي يعمله إياها بشر. قال تعالى «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا» (٣) وقال تعالى «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعمله بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي

(١) يوصف ١١١

(٢) يونس ٩٤

(٣) الفرقان ٥

مبين،^(١) بل ذهبوا إلى أبعد من هذا فذهبوا إلى أنهم يستطيعون الاتيان بمثل هذه الأساطير . ولقد صور القرآن قيلهم وصور صنيعهم . فقال تعالى مصورا هذا القيل « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . »^(٢) . وقال تعالى مهددا أولئك الذين يعارضون النبي والقرآن . « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . . . »^(٣) . « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم »^(٤) .

وفهم المفسرون هذا الصنيع من المعارضة وإنهم ليزكرون لنا أن قريشا كانت تستملح هذه الأحاديث حتى لتصرف عن النبي عليه السلام إلى النضر بن الحارث وأضرابه . جاء في الكشف بصدد حديثه عن الآية السابقة . [وقيل نزلت في النضر بن الحارث وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ويقول إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الخيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن]^(٥) .

كان المشركون فيما هو الواضح من النصوص السابقة يستبعدون أن

(١) النحل ١٠٣

(٢) الأنافال ٢١

(٣) الأنعام ٩٣

(٤) لقمان ٧٤، ٦

(٥) الكشف ص ١٩٣ ج ٢

يكون هذا الذى يأتى به محمد من عند الله ومن هنا كانوا يسخرون . فاذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين^(١) . وكانوا يطلبون من العلى القدير أن ينزل عليهم العذاب إن كان الذى يأتى به محمد هو الوحي وهو الحق . وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم^(٢) .

وكان المشركون يعتقدون أن هذه الأخبار التى يجيئهم بها محمد ليست إلا أساطير الأولين ومن هنا لم يؤمنوا ولم يكن لذلك المقياس الذى اعتمد عليه القرآن الكريم فى الإيحاء بنبوة النبي عليه السلام وصدق رسالته وهو الأتيان بأخبار السابقين كبير قيمة عندهم .

مضى هؤلاء وجاء من بعدهم قوم لم يقفوا بالمسألة عند حد القدرة على الأتيان بمثل هذه الأخبار وإنما حاولوا مستعينين بمعلوماتهم ومعارفهم الطعن فى النبي عليه السلام وفى القرآن الكريم وذلك باتخاذ التاريخ مقياسا تقاس به هذه الأخبار وبيان وجه المخالفة بين الأفاضل القرائية وبين ما يعرفون من تاريخ ونستطيع أن نعرض عليك فى هذا الموقف بعض المسائل التى وقف عندها الملاحدة أو اليهود والنصارى أو المستشرقون والمبشرون .

(١) يقول الرازى عند تفسيره لقوله تعالى ويكلم الناس فى المهد . . . من سورة مريم ما يأتى [واعلم أن اليهود والنصارى يشكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى زمان الطفولة واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع

(١) النحل ٢٤

(٢) الأنفال ٣٢

العجيبة التي تتوافر الدعاوى على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لاسيما وهم من أشد الناس غلوا فيه حتى زعموا كونه إلهاً ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علينا أنه لم يوجد . ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لمكانت عدواتهم معه أشد ولما كان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علينا أنه ما تكلم . . . (١)

(٢) ويقول عند تفسيره لقوله تعالى يا هامان ابن لي صرحا . . . من سورة المؤمن ما يلي [. . . المسألة الرابعة . قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودا البتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر فالقول بأن هامان كان موجودا في زمان فرعون خطأ في التاريخ . وليس لقائل أن يقول إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم في زمانه . قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجودا في زمان فرعون ما كان شخصا خسيسا في حضرة فرعون بل كان كالوزير له ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والخلية فلو كان موجودا لعرف حاله . وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجودا في زمان فرعون وإنما جاء بعده بأدوار علم أنه غلط وقع في التواريخ . قالوا ونظير هذا أنا نعرف في دين الاسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد صلى الله عليه

وسلم فلو أن قائلا ادعى أن أبا حنيفة كان موجودا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو أيضا يسمى بأبي حنيفة فأن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا^(١)

(٣) ويقول عند تفسيره لقصة بلقيس وسليمان من سورة النمل ما يلي (البحث الأول . إن الملحدة طعنت في هذه القصة من وجوه . . . وثالثها كيف خفي على سليمان عليه السلام حال مثل تلك المملكة العظيمة مع ما يقال أن الجن والانس كانوا في طاعة سليمان وأنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال . . . ومع أنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام .

رابعها . من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه^(٢) .

(٤) ويقول القاضي عبد الجبار في كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن . (وربما قيل في قوله تعالى . يا أخت هارون . كيف يصح أن يقال لها ذلك وبينها وبين هارون أخى موسى الزمن الطويل ؟ . وجوابنا أنه ليس في الظاهر أنه هارون الذى هو أخو موسى بل كان لها أخ يسمى بذلك وإثبات الاسم واللقب لا يدل على أن المسمى واحد ، وقد قيل كانت من ولد هارون . كما يقال للرجل من قریش يا أخا قریش^(٣) .

(٥) ويشرح المبشرون مسألة مريم السابقة فيقولون . (قصة مريم .

(١) المصدر السابق ج ٧ ص ٢٧٧

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٢١٨

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٢٠

ورد في سورة مريم الآية فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء . . . الخ . فيتضح من هذه الآية أن محمدا كان يرى أن مريم كانت أخت هارون أخي موسى . وبما يزيد هذا الأمر وضوحا وجلاء ما ورد في سورة التحريم ونصه « مريم ابنة عمران » وهذا مذكور أيضا في سورة آل عمران « إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محررا . . . الخ » وفي سورة الفرقان ونصه « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا » . فثبت من ذلك أن عمران وموسى وهارون ومريم هم ذوات الأشخاص الذين ورد ذكرهم بهذه الأسماء في خمسة أسفار موسى غاية الأمر أن ورد في التوراه عمران عوضا عن عمران . وورد في سفر العدد الاصحاح ٢٦ الآية ٥٩ ما نصه « واسم امرأة عمران يوكابد بنت لاوى التى ولدت للاوى فى مصر . فولدت لعمرام هارون وموسى ومريم اختهما » . وورد في سفر الخروج أيضا الاصحاح ١٥ الآية ٢٠ أن مريم النبية كانت أخت هارون . كما رأينا في سورة مريم حيث قيل « يا مريم . . . يا أخت هارون فلا شك أن محمداً توهّم أن مريم أخت هارون التى كانت أيضا ابنة عمران » أى عمران ، هى نفس مريم التى صارت أم يسوع — المسيح عيسى — بعد ذلك بنحو ألف وخمسمائة وسبعين سنة . وهذا القول يشبه الرواية الواردة في الشاهنامة . . . الخ . وربما كان سبب هذا الغلط أنه ورد في إحدى خرافات اليهود كلام بخصوص مريم أخت هارون نصه « أن ملاك الموت لم يتسلط عليها . بل ماتت بقبلة إلهية ولم يتسلط عليها الدود ولا الحشرات » . وعلى كل حال فهذا خطأ جسيم لأنه لم يقل أحد من اليهود أن مريم هذه بقيت على قيد الحياة الى أيام المسيح (١)

هذه الأقوال وكثير غيرها قصد إليها المبشرون والملاحدة ليثبتوا للناس أن القرآن من عند محمد لأنه لو كان من عند الله لما وجدت فيه هذه الأخطاء التاريخية .

وهذه الأقوال وكثير غيرها إنما كانت لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم القصص القرآني على أساس من التاريخ ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي أو البياني البلاغي لأغلقوا هذا الباب الذي جاءت منه الريح ولسدوا على المشركين والمبشرين السبل وحالوا بينهم وبين الطعن في النبي عليه السلام وفي القرآن الكريم .

(ب) أما الرأي الثاني فهو رأي المسلمين وهم يؤمنون بهذا المقياس ويعتقدون بصحته ويرون أن ورود هذه الاخبار في القصص القرآني إنما هو دليل النبوة وعلامة الرسالة وأنه لولا الوحي لما عرف النبي الأمي هذه الاخبار مع أنه لم يقرأ في كتاب ولم يتلذذ على من قرأ في كتاب .

وإيمان المسلمين بهذا المقياس لم يكن وقفاً على عصر النبوة وإنما امتد به الزمن حتى شمل الأعصر الإسلامية من لدن البعثة المحمدية الى وقتنا هذا . وحتى أصبح عنصراً مهماً من العناصر المكونة للعقلية الإسلامية يهتز باهتزازها ويتأثر بما تتأثر به من تيارات فكرية تتعاقب عليها بتعاقب السنين والأعوام .

وإيمان المسلمين بهذا المقياس جعل المفسرين منهم يصدرون في فهمهم للقصص القرآني وتفسيرهم له عن ثقافة تاريخية لا ثقافة أدبية ومن هنا لم تسلم لهم الخطأ وقامت في وجوههم العقبات فوقفوا وأطالوا الوقوف

لعل الطريق أن تسلم ولعل الفهم أن يستقيم ولكن شيئا من ذلك لم يكن
ألهم إلا في بعض المواطن التي رجعوا فيها إلى الحق والتي أقاموا فيها فهمهم
للقصص القرآني على أسس من البلاغة العربية والفن الأدبي تلك الأسس
التي تجعل الأحداث القصصية مكانها الأول في الشرح والتفسير ولا تجعل
المواد التاريخية إلا مقاما ثانويا أو لا مقام على الإطلاق .

والمواقف التي وقف عندها المفسرون لتسلم لهم الطريق ويستقيم الفهم
كثيرة متنوعة ونستطيع أن نعرض عليك بعضا منها لتستبين إلى أي حد
كان يتعثر هؤلاء المفسرون .

أولا — الاشارات التاريخية : وقف المفسرون وقفة طويلة عند هذه
الاشارات التاريخية التي جعلها القرآن مادة أدبية في بناء القصة القرآنية .
وهي إشارات قد قصد القرآن إلى إبهامها أو إلى إبهام مقوماتها التاريخية .
وقصد القرآن إلى ذلك إنما يفسر بحالة من حالتين . يفسر بأن القرآن قد
أبهى هذه المقومات لأن المعاصرين للنبي عليه السلام ولزوله كانوا يعرفون
ما وراء هذا الإبهام من ثقافة تاريخية . كما يفسر بأن القرآن قد عمد إلى تنحية
التاريخ عن ميدان القصة القرآنية ليتجه العقل البشري منذ اللحظة الأولى
إلى ما هو المقصود من أقاصيص القرآن من عظة وعبرة ومن إرشاد وهداية
ومن إنذار وبشارة .

أبهى القرآن مقومات التاريخ في قصصه فأبهى الزمان والمكان وأبهى في
كثير من المواطن الصفات المميزة للأشخاص . واختار من الأحداث
التاريخية بعضا دون بعض . صنع القرآن كل هذا أو أحسن المفسرون منه
بهذا الصنيع وشعروا بأن الفهم التاريخي للقصص القرآني لن يستقيم حتى
يذهب هذا الغموض التاريخي وحتى يذهب ما قصد إليه القرآن من إبهام

ومن هنا رأيناهم يعمدون إلى الثقافة التاريخية وإلى الاسرائيليات بل رأيناهم أحيانا يعمدون إلى الفروض النظرية الصرفة لعل واحدة منها أو كلها مجتمعة أن تزيل عن القصص القرآني ما به من غموض أو إبهام تاريخي .

والظواهر التي يحسن بنا أن نلتفت إليها من وقفات المفسرين عند هذه الإشارات التاريخية وما يحيط بها من غموض أو يكتشفها من إبهام هي التالية .

(١) أن المفسرين وقد ارتضوا الأساس التاريخي أساسا للفهم وقفوا كثيرا وطويلا عند مسائل التاريخ وقضاياها حتى لنرى بعضهم يقف عند كل قصة ويجعل لها عنوانا كذلك الذي نجده في كتب التاريخ ثم يتحدث عن شخصية النبي وعن الأحداث القصصية كما يتحدث المؤرخون سواء بسواء^(١) .

(٢) أن هذه الوقفات الطويلة عند الأساس التاريخي جعلت المفسرين يألفون هذا المذهب في فهم القصص القرآني حتى لنراهم ينكرون غيره من مذاهب فنية وأدبية وحتى لنراهم حين تلجئهم الضرورات إلى المذاهب الأدبية يوجزون في القول ولا يقفون إلا لما . هذا ما فعله الزمخشري في تفسيره لقصة . وهل أتاك نيا الخضم إذ تسوروا المحراب . . . الخ من سورة ص وهذا ما فعله الطبري في أحد أقواله عند تفسيره لقصة آدم في كل من سورتي البقرة و ص^(٢) . وإنا للشعر من صنيعهم أنهم يعتقدون

(١) راجع قصص سورة الأعراف ويونس في تفسير الحازن .

(٢) الطبري ١٧٥ و ١٧٦ ج ١ ، ١٠٧ ج ٢٣ .

عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فأني غفور رحيم وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين... الخ ، ولماذا قال في سورة القصص غير هذين؟

إن الموقف واحد وإن الحادثة واحدة ولكن الوصف مختلف والحوار غير الحوار وحديث الرب العلي مع موسى النبي في موطن غيره في آخر .

لقد حاول العقل الاسلامي أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة التي تخص تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير ولكنه لم يهتد إلى رأى قاطع ومن هنا أثر الكثيرون عند القصص القرآني من الآيات المتشابهات^(١) . يقول الطبري (المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني)^(٢) . وكذلك يقول غيره من شيوخ المفسرين .

ولو أن العقل الاسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس بلاغي أو أساس فني أدبي لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولى أن الذي عدّه من التكرار ليس من التكرار في شيء لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص^(٣) وأن مقاصد القرآن من مواظ وعبر ومن

(١) راجع درة التنزيل وثمره التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز للخطيب الاسكافي .

(٢) الطبري ١٠٣ ج ٣ .

اختلاف مذهب زيار النعم لا يقتضي الخلاف

إنذارات وإشارات تختلف في موطن عنها في آخر ومن هنا كان الاختلاف لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية .

مقصد القرآن من قصة موسى في سورة طه غيره من قصة موسى في سورة النمل وقصة موسى في سورة طه قصة مستقلة وقصته في سورة النمل قصة مستقلة ومن الوجهة الأدبية البلاغية هذه قصة وتلك أخرى وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه . وكل هذه مسائل ستشرح يتفصيل في الباب الثاني إن شاء الله .

ثالثا - المادة القصصية والحقيقة : - وقفة ثالثة وقفها العقل الاسلامي حين بان له أن كثيرا من هذه المواد القصصية التي جاء بها القرآن الكريم لا تستقيم وما يعرف من علم إلا على ضرب من التأويل وإلا بعد الرجوع إلى المذهب الأدبي يستمد منه العون ويطلب إليه المدد (١) بان للعقل الاسلامي أن مسألة غروب الشمس في عين حجة لا تستقيم وما يعرف عن حقائق هذا الكون من أن الشمس طالعة أبدا وأن الأرض تدور حولها وأن الشمس لا يمكن أن تغرب في هذه العين الخشنة بحال من الأحوال . وخيل إلى العقل الاسلامي أن كلام الله لن يستقيم إلا على ضرب من التأويل فأوجب هذا التأويل على نفسه وانتهى به الأمر فيما نرى إلى التسليم بالمذهب الفني إذ قرر أن القرآن قد صور في هذه القصة الصور الذهنية لغروب الشمس لا حقيقة هذا الغروب . صور ما يراه القوم بأعينهم ولم يصور ما يحدث فعلا من غروب للشمس وشروق . يقول الرازي في تفسيره لقصة ذي القرنين من سورة الكهف ما يلي (البحث الثاني : أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة

بها ولا شك أن الشمس في الفلك وأيضا قال ووجد عندها قوما . ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود . وأيضا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ...

إذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله تغرب في عين حمئة من وجوه .

الأول . أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهذه مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر ... (١)

ويقول القاضي عبد الجبار (كيف يصح أن يجدها تغرب في شيء من الأرض وهي إنما تغرب في مجارى غروبها ؟ . فجوابنا . أنها تغرب على وجه يشاهد كذلك كما توجد الشمس تغرب في البحر إذا كان المرء على طرفه وكما يقول المرء إن الشمس تطلع من الأرض وتتحرك في السماء . والمراد بذلك ما ذكرناه من تقدير المشاهدة) (٢) .

(٢) وبان للعقل الاسلامي أن ودا وسواع ويغوث ويعوق ونسرا كانت الأوثان التي تعبد في الجزيرة العربية زمن البعثة المحمدية وقبلها بقليل أو كثير . وعجز العقل الاسلامي عن أن يفهم الصلة بين هذه الأوثان وبين نوح عليه السلام حتى تجيء في قصته ولذا عد هذه المسألة من المشكلات .

(١) الرازي ج ٥ ص ٣٠٥ وما بعدها . وسنشرح هذه المسألة في الباب الثاني .

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢١٧ .

جاء في الرازي بصدد تفسيره لسورة نوح ما يلي (المسألة السادسة . هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب فكان القرب مكان ود لسكّاب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمعاد ونسر لخمير ولذلك سميت العرب بعبد ود وعبد يغوث . هكذا قيل في السكّاب . وفيه اشكال لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان فكيف بقيت تلك الأصنام وكيف انتقلت الى العرب ؟ ولا يمكن أن يقال ان نوحا عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام انما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن أن يقال انه وضعها في السفينة سعيا منه في حفظها) (١) .

(٢) وبان للعقل الاسلامي أن هذه المحاوراة التي يصورها القرآن الكريم قائمة بين المولى سبحانه وتعالى وبين عيسى عليه السلام في آخر سورة المائدة لا تفهم على ظاهرها ولا تفسر على أنها قد وقعت حقا وأنها لا يمكن أن تكون إلا التصوير الأدبي الذي يقصد منه إلى توبيخ النصاري المعاصرين لمحمد عليه السلام . جاء في كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ما يلي (مسألة . وربما قيل في قوله تعالى . واذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله . كيف يصح ذلك وعيسى لم يقل ذلك للناس ؟ وكيف يصح أن يقول واذا قال الله وذلك يخبر به عن الماضي ولم يتقدم ذلك منه تعالى في الدنيا ؟

وجوابنا . أن ذلك من الله تعالى على وجه التوبيخ والتقريع لمن قال ذلك وقد يجوز من الحكيم أن يخاطب بذلك متهما بفعل ليكون ردعا وتوبيخا لمن فعل والله تعالى عالم بالأمور ولا يصح الاستفهام عليه فالمراد

ما ذكرنا فقد كان فيهم من يزعم أن عيسى صلى الله عليه وسلم أمرهم بأن يتخذوا إلهين فيعبدوهما ويطيعوهما كطاعة المرء لله ولذلك قال بعده إن كنت قلته فقد علمته (١).

(٤) وبأن للعقل الإسلامى أن وصف عيسى عليه السلام بأنه رسول الله فى قول اليهود الذى حكاه عنهم القرآن فى قوله تعالى « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله » لا يمكن أن يفهم على أنه قد صدر حقا عن اليهود فهم لم ينطقوا بهذا الوصف وإنما القرآن هو الذى أنطقهم به ذلك لأن وصفه بالرسالة ليس إلا التسليم بأنه رسول الله وهم لم يسلبوا بهذا ولو سلبوا بها لأصبحوا مسيحيين ولما كان بينهم وبينه أى لون من ألوان العداء ولما كان قتل وصلب . إن اليهود إنما يتهمون عيسى بالكذب وينكرون عليه أنه رسول الله ويذكرونه بالشر ويقولون إنه ابن زنا وأن أمه زانية . يقول اليهود كل هذا وأكثر منه ومن هنا لم يستطع العقل الإسلامى أن يسلّم بأن وصف عيسى عليه السلام بأنه رسول الله قد صدر حقا عن اليهود ولجأ العقل الإسلامى فى هذا الموقف إلى المذهب الفنى فافاده . جاء فى الكشف عند تفسيره لهذه الآية (فان قلت كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله قلت قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الأرض مهدا (٢) .

وبأن للعقل الإسلامى أنه لا يستطيع أن يتصور مساعدة الملائكة

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١١٥ .

(٢) الكشف ج ١ ص ٢٨١ .

للمسلمين في غزوتى وبدر وأحد اللهم إلا أن يكون حديث القرآن عن ذلك حديث من يأخذ الناس بعقائدهم تقوية للروح المعنوية وبثا للأمل القوى بالانتصار السريع في النفوس . جاء في المنار (وأنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال . إن الملك الواحد يكفي في اهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط فإذا حضر هو يوم بدر فأى حاجة الى مقاتلة الناس الكفار ؟ وبتقدير حضوره أى فائدة في إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضا فان أكابر الكفار كانوا مشهورين وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

وأيضا لو قاتلوا فأما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا ؟ وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل أحد بذلك ولأنه خلاف قوله (ويقللکم فی أعينهم) ولو كانوا في غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ولم ينقل ذلك البته .

وعلى الثاني كان يلزم جز الرءوس وتمزق البطون وإسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات فكان يجب أن يتواتر ويشتهر بين المسلم والكافر والموافق والمخالف . وأيضا أنهم لو كانوا أجساما كثيفة وجب أن يراهم الكل وإن كانوا أجساما لطيفة فكيف ثبتوا على الخيول [١] .

بانت للعقل الاسلامى هذه الأشياء وكثيراً غيرها وفطن العقل الاسلامى إلى أن هذه الأشياء لا تفهم على أنها الحق التاريخى والواقع

العملى إلا بضروب من التأويل ولو أن العقل الإسلامى أقام فهمه
للقصص القرآنى منذ اللحظة الأولى على المذهب الأدبى لما احتاج إلى هذه
التأويلات وإلى أمثال هذه الوقفات التى ألجأته إلى المذهب الأدبى مضطراً
لا مختاراً .

رابعا : — الأخبار والأعجاز : — وقفة أخيرة وقفها العقل الإسلامى
يحاسب فيها نفسه وينظر ما قدمت يدها من خير فهل كان من الخير للنبي
عليه السلام وللقرآن الكريم أن يكون المذهب التاريخى الأساس الأول
فى فهم القصص القرآنى أو أن هذا المذهب كان الثغرة التى نفذ منها
المبشرون والملاحدة للطعن فى النبي وفى القرآن ؟

أحصى العقل الإسلامى كل شئ عدداً فاحصى أقوال المشركين وأقوال
الملاحدة والمبشرين وأحصى المشكلات التى تعرض لها حينما وقف عند هذه
الاشارات التاريخية وما فيها من غموض وإيهام وعند هذه الأفاصيص
المسكرة وما تدفع إليه من قول بعد القصص القرآنى من المتشابه وعند
هذه الأخبار والصور التى لا تتفق وما يعتقده الحق والواقع إلا بضرب
من التأويل أو قول بالمذهب الأدبى .

أحصى العقل الإسلامى كل هذه الأشياء فتبين له أن ما يقدمه المذهب
التاريخى فى فهم القصص القرآنى من خير أقل بكثير مما يقدمه من شر ونكر
وبلاء . وعند ذلك أعاد العقل الإسلامى التفكير فى هذا المذهب نفسه وفى
الأسباب التى تدعوه إلى التمسك به والتشبث باهدابه . ووجد العقل
الإسلامى الأسباب واضحة فى هذه الأفاصيص التى يعتمد عليها القرآن فى
الإيحاء بنبوة النبي عليه السلام وصحة رسالته وفى عد ما شتمت عليه هذه
الأفاصيص من أخبار من المعجزات .

أما إن هذه الأخبار من المعجزات فأمر أعاد العقل الاسلامى التفكير فيه وانتهى به هذا التفكير إلى أن هذه الأخبار لم تكن فيما هو الواضح من آيات القرآن مناط الرد على المشركين من أهل مكة ولا موطن التحدى حتى يصح القول بأنها إحدى المعجزات .

فكر العقل الاسلامى فى هذه الأخبار فرأى أولا أن الكثير منها كان معروفا بالجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية ومعروفا المعرفة التى جعلت المفسرين يعللون بلاغيا بهذه المعرفة التركيب القصصى القرآنى « ألم تر » . جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى ألم تركيب فعل ربك بعاد . . . الخ من سورة الفجر ما يلى [ألم تر ألم تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم وذلك لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر . أما عاد وثمود فقد كانا فى بلاد العرب . وأما فرعون فقد كانوا يسمعون من أهل الكتاب وبلاد فرعون أيضا متصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضرورى والعلم الضرورى جار مجرى الرؤية فى القوة والجلال والبعد عن الشبهة فلذلك قال ألم تر بمعنى ألم تعلم ^(١) . وهذه المعرفة تجعل من غير شك أمثال هذه الأخبار غير صالحة لأن تكون موطن التحدى أو دليل الإعجاز .

وفكر العقل الاسلامى فى هذه الأخبار فرأى ثانيا أن تلك الأقاصيص التى يعتمد عليها القرآن فى الإيحاء بنبوة النبي وصدق رسالته لا تشمل على أخبار يستحيل معرفتها وهى على العكس من ذلك أخبار معروفة لدى أهل الكتاب وإذا كان هناك من استحالة فإنها الاستحالة العادية التى تقوم على

أمية النبي محمد عليه السلام أو تقوم على التفصيلات الدقيقة لهذه الأخبار جاء في كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن . (مسألة . وربما قيل في قوله ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . كيف يصح ذلك وقد كان هذا الخبر موجودا عند النصارى وغيرهم ؟

وجوابنا . أنه صلى الله عليه وسلم لم يخالطهم مخالطة يقف بها على تفصيل هذه الأمور وكان كسائر العرب فيبين تعالى أنه قد خصه بهذا الغيب ليعرف به صحة نبوته ولذلك قال . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم فحكي تفصيل ما كان يجري في أمر مريم وذلك من أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم^(١) . وجاء في الرازى . (فإن قيل أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم . قلنا تلك القصة بحسب الاجمال كانت مشهورة أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة^(٢) .

وفكر العقل الاسلامى فى هذه الأخبار فرأى ثالثا أن القول بأنها إحدى المعجزات لا يدهض أقوال المشركين أولئك الذين قالوا بأن محمدا عليه السلام يكتب هذه الأخبار وأنه يعلمه إياها بشر وأنهم لو شاءوا لقالوا مثلها وأنهم قد قصوا بالفعل أخبار رستم وأحاديث اسفنديار وأن قريشا كانت تستملح هذه الأقاصيص وتنصرف عن محمد عليه السلام إلى المعارضين للنبي وللقرآن .

فكر العقل الاسلامى فى كل هذه الأشياء وانتهى به التفكير إلى أن

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٥٩ .

(٢) الرازى ج ٥ ص ٦٥ .

القرآن نفسه لم يجعل هذه الأخبار موطن التحدى ومناطق الإعجاز وإنما جعل الإعجاز كل الإعجاز فى قوة التأثير وسحر البيان . جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ما يلى (والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه إنما عرفها بالوحى وهو كاذب فيه . ثم إنه تعالى أجاب عنه بأن قال لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى وأما وجه تقرير الجواب فاعلم أنه إنما يظهر اذا قلنا القرآن الكريم إنما كان معجزا لما فيه من الفصاحة العائدة الى اللفظ وكأنه قيل هب أنه يتعلم المعانى من ذلك الأعجمى إلا أن القرآن إنما كان معجزا لما فى ألفاظه من الفصاحة) (١) . ولعله من هنا كان القرآن يتحدى العرب بالسور المفتريات جاء فى المنار (كأنه يقول أدع لكم ما فى سور القصص من الأخبار عن الغيب وأتحداكم أنتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الأتيان بعشر سور مثل سور القرآن فى قصصها مع السماح لكم بعملها قصصا مفتراه من حيث موضوعها) (٢) .

التحدى إنما يقوم كما رأيت على قوة التأثير وسحر البيان ومن هنا لا نستطيع أن نعد هذه الأخبار التى جاءت فى القصص القرآنى احدى المعجزات .

أما إن هذه الأخبار قد أفادت كثيرا فى الإيحاء بنبوة النبي عليه السلام وصدق رسالته فهو الأمر الذى لا ننكره بل نقر به ونؤكد

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠

(٢) المنار ج ١ ص ١٩٤ .

لكن على أساس أن قوة هذا الإيحاء إنما تقوم على ذلك الرأى الدينى اليهودى الذى كانت تدين به الجماعة والذى لا يلزم حتما أن تكون هذه الأخبار من التاريخ فقد كان يكفيه منها أن تكون مما يعرفه اليهود أو تعرفه العرب كما سنرى بعد لحظات .

هذه الوقفات الطويلة وهذا التفكير المستمر جعل العقل الإسلامى يقرر أخيرا ويقرر فى قوة أن التاريخ ليس من مقاصد القرآن وأن التمسك به خطر أى خطر على النبى عليه السلام وعلى القرآن بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة .

جاء فى الرازى [واعلم أن هذا الكلام — قوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله — يَحْتَمِلُ وجوها . الأول أنهم كلما سمعوا شيئا من القصص قالوا ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها] ^(١) .

وجاء فى غرائب القرآن للنيسابورى عند تفسيره للآية السابقة (وذلك إنما حملهم على التكذيب أولا وآخرا وجوه منها أنهم وجدوا فى القرآن أقاصيص الأولين ولم يعرفوا المقصود منها فقالوا أساطير الأولين وخفى عليهم أن الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرف فى هذا العالم ونقل الأمم من العز إلى الذل وبالعكس ليعرف المكلف أن الدنيا ليست بما يبقى فنهاية كل حركه سكون وغاية كل سكون ألا يكون كقوله عز

من قائل لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) (١).

وجاء في المنار (ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسأله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره لم يبين الزمان والمكان ...) (٢).

وجاء (هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع) (٣).

وجاء (بيننا مرارا أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزميتها وأمكتتها ليس من مقاصد القرآن وأن ما فيه من قصص الرسل مع أقوامهم فانما هو بيان لسنة الله فيهم وما تتضمنه من أصول الدين والاصلاح) (٤).

وجاء (فان قيل إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء بها عن الوحي فلماذا كثر سور الأخبار التاريخية في القرآن وكانت في التوراة أكثر؟

والجواب . ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم إنذارا للكافرين بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لقلبه وقلوب المؤمنين) (٥).

(١) غرائب القرآن : ج ١١ ص ٨٥ ط هامش الطبري .

(٢) المنار ج ١ ص ٢٧٩ .

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٧

(٤) " " ج ١٢ ص ١٠١

(٥) " " ج ٢ ص ٣٠٠

وماروت من سورة البقرة ما يلي (ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لا يقتضى أن يكون ما يحكى فيها عن الناس صحيحا فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التى علمت من النفي لا تستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن ولو لم يكن ذكرها في سياق النفي .

قال الأستاذ الامام . بينما غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لالبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية^(١) .

هذه هي الفوائد التى جناها العقل الاسلامى بعد أن قطع هذه المرحلة الطويلة الشاقة من التفكير فى العلاقة بين القصص القرآنى والتاريخ وإنها فوائد لا يدفع خطرها ولا تنسك قيمتها وإن تكن بعد ذلك قاصرة عن أن تحل تلك المشكلة الخالدة التى من أجلها عقدنا هذا الفصل وهى المشكلة القائمة على أساس أن بالقصص القرآنى أخطاء من أخطاء التاريخ .

إنها مشكلة خالدة بين المسلمين والمعارضين فالأولون ينكرون هذا القول ويقولون بأن الذى فى القرآن هو الحق وأن ما عداه هو الخطأ ولن يحكم التاريخ على القرآن الكريم . والآخرون يؤيدون القول بما وصلوا إليه من علم ومعرفة ويذهبون إلى أن هذه الأخطاء هى الدليل كل الدليل على أن القرآن لم ينزل من السماء وأن محمدا ليس بالنبي وأنه الذى يصنع القرآن ويدعى أنه من عند الله وأنه يخلق من الحوادث ما لم يقع ويصوره على أنه الواقع التاريخى .

وليس من شك عندى فى أن هذه القضية لا تحتل من مبدئها هذا اللجاج ولا هذا العناد وأن كلا من الفريقين قد جانب الحق وباعد الصواب .

وليس من شك عندى أيضا فى أن مصدر الخطأ فيما ذهب إليه من آمن بهذه الأشياء وصدق كل ما فيها من تاريخ أو من أنكرها وادعى أنها أخطاء تاريخية أو قصص ملفقة هو جهل أولئك وهؤلاء أو تجاهلهم لما بين الأدب والتاريخ من علاقات ولما يصنعه الأول وخاصة ما فيه من قصص حين يستغل الثانى فى أداء رسالته فى هذه الحياة .

واعتقد أن من حقنا أن نقف وقفة قصيرة نشرح فيها هذه العلاقات لنقدر ما فى القرآن من قيم تاريخية تقديرا لا ينكره الدين .

٢- الأدب والتاريخ

أما اعتماد التاريخ على الأدب فأمر لا ينكره أحد ذلك لأن المؤرخين يؤمنون بأن الأدب أخصب ميدان لتصوير حضارة الشعوب ولذا نراهم يعتمدون عليه وبعدهونه من أهم العناصر المكونة للتاريخ بل لعل منهم من يراه أصدق الأشياء في هذا الجانب ذلك لأنه يدل على البذور الكامنة في النفوس لكثير من الآراء التي قدر لها أن تسود الجماعات ولأنه يصور الآمال والمثل العليا بل يصور الأحلام وما فيها من رغبات مكبوتة لجأ الأدب نفسه في تصويرها إلى الرمز والأشارة وغيرهما من أدوات التعبير .

وأما اعتماد الأدب وبخاصة القصة على التاريخ فهو الأمر الذي يحتاج إلى حديث . نعم إن الواقع العملي لكبار الكتاب يؤيد هذه القضية . وإن اعتماد القصص على التاريخ يكسب حديثه سحر ويجعل النفوس شديدة الميل وسريعة التصديق لكثير مما جاء فيه . ولكن المسألة فيما نعتقد ليست مسألة اعتماد فحسب وإنما هي إلى جانب ذلك أو قبل ذلك مسألة الخلق الفني وإذا كان الخالق المبدع يعمل غير مقيد بعمل وقد ملك حريته كان من الحتم علينا أن نتحدث عن هذه الحرية (١) ميدانها (٢) وحدودها .

أما ميدان هذه الحرية فقد يكون اختيار بعض الأحداث التاريخية دون بعض وقد يكون إهمال مقومات التاريخ من زمان ومكان وترتيب للأحداث كما قد يكون القرب أو البعد من الواقع التاريخي وبعبارة أخرى

قد يكون تحرى الصدق والصحة أو المجاوزة عن هذا التحرى وذلك لأن الأدب يكتفى في كثير من الحالات بالمشهور المتداول من المعارف التاريخية أو بالصور الذهنية للجماعة البشرية عن هذا الكون وأحداثه وبخاصة حينما يقصد إلى هذه المعارف ليتخذ منها المواد التي تعينه على ضرب الأمثال وقص القصص وإذا كان من المحدثين من يعبر عن هذه الحالة بقوله إن الأدب يتناول الأشياء لا كما هي بل كما تبدو في ظاهرها ولا كما هي كائنة في ذاتها بل كما تدركها الحواس وتؤثر في عواطفنا فأن من الأقدمين العرب من فطن إلى هذه الحقيقة الفنية وأولئك هم البلاغيون إذ ليس يخفى أنهم اكتفوا في اللزوم بالزم الذهني الذي يقوم على العرف والعادة ولم يتطلبوا اللزوم العقلي المنطقي الذي يقوم على حقائق الأشياء في ذاتها لا كما تدركها الحواس. واكتفوا هم باللزوم العرفي في مسائل البيان من تشبيه واستعارة ومن كناية وتمثيل ومن قص القصص لضرب الأمثال وللهداية والارشاد يجعلهم في حل من أن يعتمدوا من قضايا التاريخ ما هو المشهور المتداول حين يقصون القصص ويضربون الأمثال وليس يلزم أن يكون هذا المشهور المتداول مطابقا للحق والواقع لأن هذه المطابقة إنما يتطلنها المؤرخ والفيلسوف لا الشاعر ولا الأديب القصاص (١).

وأما حدود هذه الحرية فقد تتسع لدى القصاص حتى لتشبه قصته أن تكون أسطورة أو ضربا من ضروب الخيال وقد تضيق حتى لتشبه القصة أن تكون كتابا من كتب التاريخ والأمر بعد متوقف على قصد الأديب فإن كان تعليم التاريخ بواسطة القصة ضاقت هذه الحدود لكن لا إلى الحد الذي تفسد فيه الحقائق التاريخية على القارئ استمتاعه بالفن :

أما إن كان القصد من القصة التاريخية الاعتماد على ذلك الميل النفسى ميل المحبة لكل ما هو قديم لأنه يكسب القصة روعة وجلالا ويضفى عليها شيئا من السحر ويكسبها تلك القوة التى تجعلها قريبة من الواقع وتجعل القارىء أو السامع يصدق بسهولة كل ما جاء فيها فان هذه الحرية تتسع لسكن لا إلى الحد الذى يتعارض فيه الواقع التاريخى مع قضايا الفن ومسائله وإلا أفسد هذا التباين على القاص غرضه ولذا تعتبر القضايا التاريخية المغرقة فى القدم والى تجهل تفاصيلها جهلا يكاد يكون تاما أحسن ميدان لهذا النوع من القصص إذا أردنا للخلاق الفنى الإنطلاق من القيود والإنفلات من الحدود والتمتع بالحرية التامة الشاملة .

والأمثلة التى نستطيع أن نضربها كثيرة متنوعة فلدينا من أحداث التاريخ أحداث كثيرة استغلها قصاص كثيرون وقد كان لكل منهم حريته فى تصوير الحادثة وخلق الشخصوص وقد يكفى فى هذا المقام أن نذكر كليوبطرة وكيف استغل كل من شكسبير وبرنارد شو وشوقي موقفها من انطونيو فى تصوير قصته . وقد يكفى كذلك أن نذكر من أسماء القصاص الذى استغلوا التاريخ اسم والتر سكوت لنعرف كيف كان يتصرف فى التاريخ فلقد كان هذا الرجل يعتمد إلى أحياء التاريخ الأوسط وكان يرى فيه مجالا خصبا لإرسال الخيال وخلق القصص ومن هنا لم يلتزم الصدق والدقة بل كثيرأ ما كان يخلق شخصا من العدم وينطقهما بما يشاء من أقوال كما كان يذكر أحداثا لم تقع ويصورها الصورة التى يرى أنها تحدث الأثر المطلوب .

لكن الوصول بنا الى هذه المسألة يوقعنا فى حيرة ويعقد المسألة أمامنا ويجعل من الشاق العسير أن نستخلص ما فى القصة من صور صادقة عن

الأحداث الماضية ويجعل ما في القصة من قيم تاريخية مجال الشك إن لم يكن الرفض ذلك لأن الباحث لن يستطيع أن يعلم في يقين أين من الحقائق المذكورة ما أفرغ فيه الكاتب خلجات نفسه وأين منها ما خلقه خلقا لتتسق له الصورة وأين منها ما اكتفى فيه برواية الصادق الأمين .

إن استخلاص الحقائق التاريخية من الأفاصيص يتوقف على معرفتنا لمدى تلك الحرية التي تمتع بها القاص أثناء تصويره للأحداث وتحريكه للأشخاص وتصويره للبيئة وإنطاقه كل هذا بما يوائم الفن ويلائم الحرية ويجرى مع الخلق الأدبي في مضمار واحد حتى النهاية . وأنه لأمر شاق عسير .

نعم نستطيع أن نفترض أن دراسة الأحداث التاريخية والوقوف عليها من كتب التاريخ ييسر الأمر ويسهل السبيل ويصل بنا إلى ما نريد من تحديد وتقدير لما في القصص من قيم تاريخية . ولكن ذلك الفرض لن يشفي الغليل لأن الأمر قد يكون أمر أحداث أغرقت في القدم ثم نقلت إلينا في روايات شفوية زادت عليها أو نقصت منها حتى أحالتها إلى شيء يشبه القصص أو يشبه الأساطير ووقفت الأمور عند هذا الحد حتى لم نجد أى دليل غير تلك الروايات ومن أمثال ذلك ما رواه الجاهليون عن ناقة صالح وجن سليمان وساقه القوم فيما بعد على أنه الحقيقة والتاريخ . كما قد يكون الأمر أمر اعتماد القاص على الواقع النفسى لا الواقع التاريخى أى الاعتماد على المشهور المتداول لا على الصور الحقيقية لأحداث التاريخ .

هذه أمور يجب مراعاتها حين البحث عما في القصص من مسائل التاريخ وقضاياها وهى أمور تحيى دائما بعد البحث عن أغراض القصص لأن

الأغراض والمقاصد تلعب الدور الأول في كيفية بناء القصة من حيث توزيع المناظر واقامة الحوار ورسم الشخصوس والأحداث وليس يخفى أن تلك من عوامل الإستهواء التي توحى بما يريد القاص من فكر أو آراء ومعتقدات .

والآن نستطيع أن ننتقل مرة ثانية إلى الجو القرآني لنرى رأينا في تلك المشكلة المتعلقة بالقصص القرآني وما يقال من أن به أخطاء من أخطاء التاريخ .

وقبل البدء ننظر في اعتراض قد يستثار ذلك لأن ما قرناه من صلة بين التاريخ والقصة يعتمد على ظاهرات في القصص لوحظت حديثا وقررت على أنها بعض التقاليد الادبية التي تصور ما للقاص من حرية . والقرآن أقدم من هذه الملاحظات للظواهر وهذه المقررات للتقاليد . على أنها لو كانت قديمة لاتلزم القرآن في شيء اذ لكل قاص مذهبه وطريقته ولكل خالق حريته في الخلق والابتكار ولن يقرر ما في القرآن من قيم الامذهب أدبي التزمه القرآن نفسه أو على أقل تقدير حرص عليه وهو قول له وجهته فيما نعتقد ثم هو يلزمنا الى أن نبحت طريقة القرآن من واقعة العمل فهل توجد فيه ياترى تلك الحرية أو التزم طريقة واحدة هي طريقة الصدق والتحرى عن الحقيقة حين يصور أحدث التاريخ ؟

يدلنا الاستقراء على أن ظواهر كثيرة من ظاهرات الحرية الفنية توجد في القرآن الكريم ونستطيع ان نعرض عليك منها في هذا الموقف مايلي :

(١) إهمال القرآن حين يقص لمقومات التاريخ من زمان ومكان فليس في القرآن الكريم قصة واحدة عني فيها بالزمان . أما المكان فقد أهمل إهمالا يكاد يكون تاما لولا تلك الأمكنة القليلة المبعثرة هنا وهناك والتي لم يلفت القرآن الذهن إليها إلا عرضا .

على أن القرآن عمد إلى إهمال الأشخاص في بعض أفاصيصه إهمالا تاما . وهذه من المسائل التي سنعرض لها في الباب الثاني إن شاء الله .

(٢) إختياره لبعض الأحداث دون بعض فلم يعن القرآن بتصوير الأحداث الدائرة حول شخص أو الحاصلة في أمة تصويرا تاما كاملا وإنما كان يكتفي باختيار ما يساعده على الوصول إلى أغراضه أى ما يلفت الذهن إلى مكان العظة وموطن الهداية ولعله من أجل ذلك كان القرآن يجمع في الموطن الواحد كثيرا من الأفاصيص التي تنتهى بالقارىء إلى غاية واحدة . وتلك أيضا من المسائل التي ستشرح في الباب الثاني .

(٣) كان لا يهتم بالترتيب الزمني أو الطبيعي في إيراد الأحداث وتصويرها وإنما كان يخالف في هذا الترتيب ويتجاوز الأمر الذي أكثر من الإشارة إليه صاحب المنار ^(١) والذي نستطيع أن نجعل منه أيضا قصة لوط فقد قال تعالى في سورة الحجر « فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وآتيناك بالحق وإنا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيغ فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بتاني إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فأخذهم الصيحة مشرقين ،

فأن هذه القصة لو لوحظت مع إحدى قصص لوط في القرآن كقصته في سورة هود مثلاً لوجدنا القصة في سورة هود تجري على هذه الطريقة .
 مجيء الملائكة ، ثم حاله واضطرابه النفسى ، ثم مجيء القوم ثم موقفه وعرض بناته حتى لا يخزى ، ثم ردهم عليه وعزمهم على إتمام قصدهم ، ثم موقف الملائكة واخبارهم إياه أنهم رسل ربه ، واخباره بمجيء العذاب وموعده ، ثم نوع العذاب . فهنا نلاحظ أن المحاورة بينه وبين قومه تتم قبل أن يخبره الملائكة بأنهم رسل ربه والقصة تجري بعد ذلك وقد رتبنا وقائعها الترتيب الذى يشعر بأن الزمن هو المحور الذى يربط هذه الوقائع المختارة أو هذه الأحداث المصورة . أما فى الحجر فتعده الملائكة كل شئ قبل مجيء قومه ومع ذلك تضى المحاورة مع قومه وكأنه لم يعلم بأن أضيافه من الملائكة . وليس يخفى أن هذا بعيد عن الوقائع ومشاكلته قريب من القصص وما فيه من حريه تؤذن للقصص بأن يرتب أحداثه الترتيب الذى يصل إلى الغرض ويؤدى إلى الأهداف .

(٤) اسناده بعض الأحداث لأناس بأعيانهم فى موطن ثم اسناده نفس الأحداث لغير الأشخاص فى موطن آخر ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الاعراف « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عظيم » إذ نراه فى سورة الشعراء مقولاً على لسان فرعون نفسه « قال للهلأ حوله إن هذا لساحر عظيم » . وكذلك نجد فى قصة إبراهيم من سورة هود أن البشرى بالغلام كانت لامرأته بينما نجد البشرى لإبراهيم نفسه فى سورة الحجر وفى سورة الذاريات .

(٥) انطاقة الشخص الواحد فى الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرر القصة ومن ذلك تصويره لموقف الإله من موسى حين رؤيته النار

فقد نودى في سورة النمل بقوله « فلما جاءها نودى أن بورك من في النار ومن حولها » وفي سورة القصص « فلما آتاها نودى من شاطئ اليمين في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين » وفي سورة طه « فلما آتاها نودى ياموسى إني أنار بك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى » . وذلك يشبه أيضا تصويره للوقوف الواحد بعبارات مختلفة حين صور خوف موسى فمرة اكتفى بقوله « خذها ولا تخف » ومرة أخرى قال « فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون » . وهكذا في غيرهما من المواقف كتمثيله بالرجفة مره وبالصيحة أخرى والطاغية في غيرهما وكتعبيره في انشقاق الحجر عن الماء في قصة موسى فانفجرت مرة وانبعجت أخرى وهكذا من المسائل التى جعلتهم يعدون القصص القرآنى من المتشابه وليس من شك عندى فى أن الاختلاف كان نتيجة تغير فى القصد أو الموقف وأن هذا التغير جعل هذه قصة وتلك قصة وما نرى من اختلاف ليس الا الصور الأدبية التى تلائم المقاصد والأغراض .

(٦) وجود مواقف جديدة لم تحدث بعد فى سياق القصة التى تصور أحداثا وقعت وانتهت ومن ذلك قوله فى سورة الأعراف « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يحدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، وذلك فى سياق القصة التى تصور موسى واختياره لل سبعين رجلا وتوجهه إلى الله ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه من قوله تعالى « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فليس من شك أن اليهود ينكرون رسالة عيسى ومن أجل ذلك قتلوه . فهم لم يقولوا هذا القول وإنما أنطقهم به القرآن . ومن قوله تعالى فى آخر سورة المائدة وصفا للموقف فى الآخرة « وإذا قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس إتخذونى وأمى إلهين من دون الله .. إلخ ،

فإن هذا القول وهذا الحوار تصوير لموقف لم يحدث بعد بل لعله لن يحدث . إذ القصد منه كما سبق أن ذكرنا التأثير على المعاصرين لمحمد عليه السلام والعمل على تنفيرهم من عبادته وعبادة أمه عليهما السلام .

ومثل ذلك الموقف أو قريب منه ما عرض له القرآن من حديث عن الجن في أثناء تصويره لوفاة سليمان عليه السلام فقد قال تعالى « فلما قضينا عليه الموت مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبئت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين » فقد قصد القرآن وقد عرض للجن بالحديث في أثناء قصه أشياء عن سليمان عليه السلام أن يحارب الفكرة الجاهلية الشائعة في الجزيرة العربية وقت البعثة المحمدية من أن الجن تعرف أخبار السماء وتطلع على الغيب وتلقى ما تعرف من ذلك على العرافين والسكان فقد كانت هذه الفكرة من العقبات القوية إن لم تكن أولى هذه العقبات في سبيل النبي عليه السلام وإثبات نبوته فلقد كان القوم يذهبون إلى أن الشياطين تملئ عليه ما يقول وأنها تسمع هذا الذي تملئهم من السماء « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون » .

✓ وهكذا نستطيع أن نمضي في حصر الظواهر التي تثبت لنا مذهب القرآن القصصى والتي تدل دلالة قوية على أن بعض ظواهر الحرية الأدبية التي يمنحها الأدباء لأنفسهم توجد في القرآن الكريم وأن القرآن قد قصد إليها ولكننا نريد أن نقف من كل ذلك عند قصتين اثنتين كانتا موطن إختبار النبي عليه السلام لمعرفة صدقه من كذبه أو معرفة هل هو نبى أو متنبى وهما قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين فإن هاتين القصتين تقدمان لنا الدليل القوى على المذهب القرآنى في العلاقة بين القصة والتاريخ .

أما قصة أصحاب الكهف فنقف منها في هذا الموطن عند مسألتين الأولى مسألة عدد الفتية والثانية مدة لبثهم في الكهف .

أما من حيث العدد فليس يخفى أن القرآن لم يذكر عددهم في دقة وإنما ردد الأمر بين ثلاثة رابعهم كلهم وخمسة سادسهم كلهم وسبعة ثامنهم كلهم . وليس يخفى أيضا أن القرآن الكريم قد ختم هذه الآية بتلك النصيحة التي يتوجه بها إلى النبي عليه السلام وهي قوله تعالى قل رب أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحداً ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً .

ما معنى هذا الترديد في العدد ؟ وما معنى هذه النصائح ؟

لا نستطيع أن نقول إن المولى سبحانه وتعالى كان يحفل عدد الفتية من أهل الكهف وأنه من أجل هذا لم يقطع في عددهم برأى فالمولى سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وأنه ليعلم السر وأخفى . وإنما نستطيع أن نقول إن هذا لم يكن إلا لحكمه والحكمة فيما نعتقد هي أن المطلوب من النبي عليه السلام أن يثبت أن الوحي ينزل عليه من السماء وأن يثبت ذلك لا بالعدد الحقيقي للفتية من أصحاب الكهف فذلك لم يكن موطن الإجابة وإنما بالعدد الذى ذكره اليهود من أهل المدينة للمشركين من أهل مكة حين ذهب وفدكم ليسأل عن أمر محمد أنبي هو أم متنبى وإذا كان أجبار اليهود قد اختلفوا في أمر العدد وذكر كل منهم عددا معينا كان على القرآن أن ينزل بهذه الأقوال حتى يكون التصديق من المشركين بان محمداً عليه السلام نبى ولو ذكر القرآن العدد الحقيقي وأعرض عن

أقوال اليهود لكان التكذيب القائم على أن محمدا لم يعرف عدد الفتية وليس وراء هذا الا أن الوحي لا ينزل عليه من السماء .

ومثل هذا تماما موقف القرآن من عدد السنين فلم يذكر القرآن العدد الحقيقي وإنما اكتفى المولى سبحانه وتعالى بما يعرفه اليهود ومن هنا نصح النبي عليه السلام بأن يقول قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ولسنا بحاجة الى أن نقول هنا أيضا بأن العلى القدير لم يعرض عن عدد السنين الحقيقي الا لحكمة وأن هذه الحكمة هي أن يكون ما يذكر في القرآن الكريم مطابقا لما قاله اليهود للمشركين . وهذا هو الذى أشار اليه بعض الأقدمين من المفسرين . جاء فى الطبرى . . . فقال بعضهم ذلك خبر من الله تعالى ذكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله قل الله أعلم بما لبثوا وقالوا لو كان ذلك خبرا من الله عن قدر لبثهم فى الكهف لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه مفهوم وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره . . .^(١)

موقف القرآن من قصة أصحاب الكهف موقف من لا يحكى الحقيقة التاريخية وإنما يحكى أقوال اليهود التى قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها ومن هنا لا يصح أن يتوجه أى اعتراض على هذه القصة من حيث اختلافها مع الواقع لأن تحقيق هذا الواقع ليس المقصود من القصة فى القرآن الكريم وسنزيد هذه القصة بيانا وإيضاحا فى الباب الثانى ان شاء الله .

وأما قصة ذى القرنين فقد سبق أن شرحنا أن القرآن إنما يصور فى

هذه القصة وبخاصة عند حديثه عن غروب الشمس ما يراه القوم بأعينهم وبعبارة أخرى يعبر القرآن عن مبصرات القوم كما يستطيعون رؤيتها لا حقيقة ما يقع وإذا كنا سنقف عند هذه القصة في الباب الثاني لنثبت أن القرآن إنما صور في هذه القصة ما كانت تعرفه الجماعة العربية عن ذى القرنين وعن غروب الشمس من طريق السمع وأنه صور مسموعاتهم لا مبصراتهم فأنا سنقف هنا لنرى رأينا في مذهب القرآن البلاغى. فهل كان يقيم تشبيهاته وإستعاراته كما كانت تقيمها العرب على العرف والعادة أو كان يتطلب الحقيقة العقلية ليقيم عليها بيانه العربى من تشبيه واستعاره ومن كناية وتمثيل ؟ .

كان القرآن يجرى على الصور الذهنية أو على الواقع النفسى في تشبيهاته وإستعاراته حين يتحدث عن جهنم ويصف طعامها والشراب وحين يتحدث عن الذى يتخبطه الشيطان من المس. جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى « انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعا كأنه رؤوس الشياطين » ما يلى (وأما تشبيه هذا الطلع برؤوس الشياطين ففيه سؤال لأنه قيل انا ما رأينا رؤوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شئ بها ؟ . وأجابوا عنه من وجوه . الأول وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسير واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشوية فى الصورة والسيره فسكنا حسن التشبيه بالملك عند تقرير السكال والفضيلة فى قوله ان هذا إلا ملك كريم فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة)^(١)

وجاء فى السكشاف عند تفسيره لقوله تعالى « لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ما يأتى (لا يقومون اذبعثوا من قبورهم

إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان أى المصروع وتخبط الشيطان من زعمات العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء فورد على ما كانوا يعتقدون .

والمس الجنون ورجل ممسوس وهذا أيضا من زعماتهم وأن الجنى يمسه فيختلط عقله وكذلك جن الرجل ضربته الجن ورأيهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب وإنكار ذلك عندهم كأنكار المشاهدات (١) .

القرآن يجرى كما ترى فى فنه البيان على أساس ما كانت تعتقد العرب وتخيّل لأعلى ما هو الحقيقة العقلية ولأعلى ما هو الواقع العملى ولعله أن يكون من ذلك حديث القرآن عن المنافقين فى قوله تعالى « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك رسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فأنا نراه يقيم تكذيب المنافقين على أساس ما يعتقدون لأعلى أساس ما هو الحق والواقع فلقد كان المنافقون يعتقدون أن محمداً غير مرسل من ربه وكان الحق والواقع أنه رسول وقيل المنافقين له إنك رسول الله يتفق مع الحق ويختلف وما يعتقدون ومن هنا رماهم القرآن بالكذب وحذر النبي عليه السلام منهم .

والقرآن يجرى على هذا المذهب أيضا حين يتحدث عن الجن وعن عقيدة المشركين فيهم وأنهم كانوا يستمعون الى السماء ليعرفوا أخبارها ثم يقومون بعد ذلك بالقاء هذه الأخبار على الكهنة وكان الكهنة يدعون الإطلاع على الغيب ومعرفة الأسرار .

يجرى القرآن على هذا المذهب الأدبى فى محاولته هدم عقيدة المشركين السابقة وقد كانت تعتبر العقبة الأولى فى سبيل الدعوة الإسلامية لما فيها من

وسابعها . أن هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض بدليل أننا نشاهد حركتها بالعين ولو كانت قريبة من الفلك لما شاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب وإذا ثبت أن هذه الشهب إنما تحدث بالقرب من الأرض فكيف يقال أنها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك ؟ . وثالثها . أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى السكينة فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم ؟ .

وتاسعها . لم لم يمنع الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب ؟ ^(١)

ولو أن الرازي فطن من أول الأمر إلى أن القرآن إنما يحارب هذه العقيدة ويحاربها بأسلوبه الخاص القائم على فكرة التدرج وأن هذا التدرج يشبه تماما التدرج في التشريع في مسألة محاربة الخمر وغيرها وأن النسخ في التشريع إنما يعلل بهذه الفكرة لوفطن الرازي إلى كل هذا لما أتعب نفسه وأتعب غيره في هذه الوقفات الطويلة ولقال بأن القرآن إنما يأخذ الناس بتصوراتهم وأنه في هذا الموقف قد سلم بهذه العقيدة لأنها حق وصدق وإنما لأنه يريد أن يهدمها تدريجيا فيسلم بها أولا ثم يأخذ في هدمها مستعينا بالزمن .

أعتقد أن قد أضح الآن أن القرآن كان يأخذ الناس بتصوراتهم ويأخذهم بالعرف والعادة وأنه كان يفعل هنا ما كان يفعله في أمور التشريع من أخذ الناس بعاداتهم ومن تغيير هذه العادات تدريجيا الأمر الذي من أجله كان النسخ في التشريع .

وأعتقد أن قد وضح أيضا أن القرآن قد قص في القصص التي كانت موطن الاختبار لمعرفة نبوة النبي عليه السلام وصدق رسالته ما يعرفه أهل الكتاب عن التاريخ لا ما هو الحق والواقع من التاريخ وأنه من هنا لا يجوز الاعتراض على النبي عليه السلام وعلى القرآن الكريم بأن بهذه الأفاصيص أخطاء من أخطاء التاريخ .

أعتقد أن قد وضحت هذه الأمور وسنزيد هذه المسائل بيانا ووضوحا في الباب الثاني إن شاء الله .

وقبل أن نختم هذا الفصل نلفت ذهن القارئ إلى أنه إذا وضح لديه الوضوح الكافي بأن القصة القرآنية قد قصد منها إلى التاريخ فإنه يتعين عليه أن يؤمن بما جاء فيها على أنه التاريخ وذلك كتقرير القرآن لمسألة مولد عيسى عليه السلام وتقريره لمسألة إبراهيم عليه السلام وأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا. أما تلك التي يقصد منها إلى العظة والعبرة وإلى الهداية والإرشاد فإنه لا يلزم أن يكون ما فيها هو التاريخ فقد يكون المعارف التاريخية عند العرب أو عند اليهود وهذه المعارف لا تكون دائما مطابقة للحق والواقع . واكتفاء القرآن بما هو المشهور المتداول أمر أجازته النقد الأدبي وأجازته البلاغة العربية وجرى عليه كبار الكتاب ومن هنا لا يصح أن يتوجه اعتراض على النبي عليه السلام أو على القرآن الكريم .

الفصل الثاني

القيم الإجتماعية والنفسية

وتختلف المسألة هنا عنها في القيم التاريخية اختلافا يكاد يكون تاما وذلك لأسباب كثيرة لعل أهمها ما يخص :

- (١) المقاصد والأغراض .
- (٢) وما يخص النتائج المترتبة على كل .

أما من حيث المقاصد فقد سبق أن علمنا في الفصل السابق بأن المعاني التاريخية غير مقصودة من القصص القرآني . فطن إلى ذلك المفسرون ونص عليه القرآن ومن هنا لم تكن صالحة لأن تكون محلا لاستنباط القضايا التاريخية كما لم تعتبر جزءا من الدين وعنصرا من عناصره نزلت لتعبد بها أو تؤمن بما فيها من رأى . أما هذه المعاني الاجتماعية ونفسية فقد قصد إليها القرآن وحاول تقريرها في القصص وفي غيره ثم هو قد أخذ يستند إليها كلما حاول الدفاع عن النبي عليه السلام وعن الدعوة الإسلامية وصورها على أنها من القواعد العامة الثابتة في كل قصة تصور نزاعا بين الرسل وأقوامهم حتى لقد أصبحت في عرفة من النواميس العامة التي تصلح لكل زمان ولكل مكان وذلك من أمثال بحىء الرسل بالسنة أقوامهم وأن لكل أمة رسولها ولكل أمة أجلها إلى غير ذلك من الأمور التي سنسطها في هذا الفصل إن شاء الله .

وأما من حيث النتائج فنحن نعلم أن المعاني التاريخية كانت الباب الذي يلج منه الملاحدة والمستشرقون والمبشرون وكل من أراد السكيد للنبي وللإسلام أما هذه النواميس فهي فخر كل مسلم يؤمن بالقرآن ويدين بالقرآن ويدين للإسلام ذلك لأنها تقرر من النواميس النفسية والاجتماعية ما يجعل الدعوة الإسلامية أكثر ارتباطا بالفطرة وأقصد الدعوات على مسيرة الرقي العقلي والتطور الاجتماعي في هذه الحياة .

ولعل من أقوى المثل التي تصور لك هذا الرأي موقف القرآن من المعجزات فلقد كان الأقدمون من أهل الكتابيين ومن مضي من الأمم السابقة لا يؤمنون بالنبوة ولا يدينون بالرسالة إلا على بينة من المعجزات وجاء القرآن فارتفع بالعقل البشري درجات ودرجات . ارتفع به حين فصل بين المعجزات وبين الإيمان بالرأى وذلك حين قال « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا إن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (١) .

وارتفع به حين أزال عنه شبح الخوف حين دله على أن المعجزات لم تكن إلا للإكراه والإلزام وذلك حين قال « وما متعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآيتنا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » (٢) .

وارتفع به حين رد مسألة الإيمان والكفر إلى أسباب عامة ونواميس ثابتة مستقرة وذلك حين قال « يس والقرآن الحكيم إنك من المرسلين

(١) الانعام ١١١

(٢) الاسراء ٥٩

على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر أبائهم فهم غافلون
لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي
إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم
فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون إنما تنذر من اتبع
الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم .^(١)

إذ يرى الناظر في هذه الآيات وأمثالها أنها وصف أدنى دال يعبر أقوى
تعبير عن حال أولئك القوم الذين أثقلتهم التقاليد وطال عليهم الأمد
فقست قلوبهم وأولئك الذين تمسكت منهم العقائد الباطلة حتى لينظرون إلى
الوجود من خلالها وختام هذه الآيات يشرح هذه الظواهر أجمل شرح
ويوضح تلك الظاهرة الاجتماعية التي تحدث مع كل دعوة وتوجد في كل
زمان ومكان وهي أن نفوس الناس مختلفة واستعداداتهم متفاوتة وقدرتهم
على التخلص من القديم والإستجابة للجدید تتوقف إلى حد كبير على ما يحيط
بهم من ظروف وما يلم بهم من أحداث وما يعده الزمن للمستقبل من رجال
أحرار يحاولون النهوض بأممتهم والأخذ بيدها والسير بها في طريق التقدم
والرفق ومن هنا نرى القرآن في هذه الآيات يقابل بين صنفين صنف عدم
القادة فأثقلتهم التقاليد وتمسكت من نفوسهم العقائد الموروثة وهؤلاء هم
الذين خصهم بقوله « لتنذر قوما ما أنذر أبائهم فهم غافلون » وصنف آخر
استعدت نفوسهم وتهيات عقولهم وقلوبهم لأمثال هذه الدعوة وهم الذين
خصهم الله بقوله « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » .

وهكذا نستطيع أن نمضي مع هذه الآيات وأمثالها فنرى أنها من الأمور

التي يفخر بها كل مسلم ويطمئن اليها كل باحث ويحرص عليها كل من وهبه
الله ذوقاً مترفاً وإحساساً مرهفاً ليتبين أن هذه النواميس من أكبر مواطن
الإعجاز .

هذه أهم الثمروق فيما نرى بين هذا المقام وذاك .

وهنا أمر لا بد من الوقوف عنده هو أننا لن ندرس في هذا الفصل من
القيم الاجتماعية إلا ما كان عاماً كالنواميس الاجتماعية والنفسية التي تثبت
وتستقر ولا تتغير بتغير الظروف والأحوال . أما تلك الحالات الخاصة
التي كان يصورها القرآن في حديثه عن الأقوام كصورته لقوم عاد وصورته
لأهل مدين أو قوم شعيب من أنهم ينحتون من الجبال بيوتا أو يطففون
المسكيات والميزان فأمر لن نعرض لها هنا لأنها بباب القيم الخلقية أليق
ولأنها من قبيل الأجواء التي يحرص عليها القصصا ص .

وكذلك الحالات النفسية الخاصة كحلم إبراهيم وسرعة انفعال موسى
إذ أقرب المواطن إلى درسها هو الحديث عن عنصر الشخصيات .

سنتقصر الحديث هنا على النواميس النفسية والاجتماعية واعتقد أن
قد آن الأوان للتمييز بين اللونين ليتضح في ذهن القارئ المراد .

سنقصد بالنواميس الاجتماعية تلك النظريات التي أشار إليها القرآن أو
لفت إليها الذهن حين صور العوامل المؤثرة في رقي الأمم وحياة الشعوب
والتي جعلها من الأحكام العامة حتى لنحس من صنيعه بأنها من النواميس التي
لا تتخلف في زمان أو مكان وذلك من أمثال ما تشير إليه الآية الكريمة
« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم

الهيئة رسول من الله يتلو صحف مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة^(١). « من نوا مبس إذ هي تشير أولا إلى أن الأمم والجماعات في حاجة إلى الرجال في حاجة إلى الأبطال النابغين الذين يأخذون بيدها وينشرون لها السبيل . في حاجة إلى الذين يفهمون رغباتها وآمالها أو أحلامها وأمانها . في حاجة إلى الذين يعبرون عن احتياجاتها ويصورون لها مثلها العليا . في حاجة إلى الذين يأخذون بيدها دائما حتى لا تثقلها التقاليد أو تنومها العادات وحتى لا تقف جامدة حيث يتقدم غيرها في مصار السباق في هذه الحياة .

ثم هي تشير ثانيا إلى أن هؤلاء الأبطال أو القادة يكونون مثار فرقة ومصدر انقسام ذلك لأن الأفراد يختلفون فيما بينهم فطرة واستعداداً ومن هنا يختلفون على الرأي بين مؤيدين ومعارضين وعلى المبادئ بين مؤمنين وكافرين حسب ما يحيط بهم من أحداث وما يستثار في أنفسهم من عواطف وانفعالات .

ومن أمثال ما تشير إليه هذه الآية أيضا « وإن يكاد الذين كفروا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنننا تحويلا . »^(٢) إذ تشير الآية الكريمة إلى ناموس آخر هو أن الأمة التي تستعصى على التجديد تهلك ولا تعمر في الحياة طويلا .

س ونقصد بالنواميس النفسية تلك العواطف أو الانفعالات أو الأسس

(١) البينة ١ - ٤

(٢) الاسراء ٧٦ و٧٧

النفسية التي تصاحب سلطان مبدأ أو سيطرة زعيم والتي تمكن للبإدىء
أو تززع سلطانها وتحد من قدرتها والتي تظهر فى الأفراد أو فى الجماعات
حين تلم بها الأحداث أو تزعجها ظروف الزمان وذلك من أمثال العجب
الشديد والحرص على المعتقد القديم البإديان فى قوله تعالى « وعجبوا أن جاءهم
منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاء واحدا إن
هذا لشيء عجاب وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا
لشيء يراد (١) » .

ومن أمثال الخوف الشديد على المعتقد وحياته ومحبة التخلص من
المعارضين الواضحين فى قوله تعالى « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من
الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً (٢) »
ومن أمثال التضحية فى سبيل المعتقد بالنفس والنفيس حتى ليصل
الحال إلى التهديد بالقتل والتعذيب بالصلب مما سنعرضه عليك مفصلاً فى هذا
الفصل إن شاء الله .

وقبل أن أبداً بتسجيل ما وقفت عليه من ظواهر نفسية واجتماعية
أخبرك بأنى قد جمعت بين اللونين من النوميس فى فصل واحد لأن القصص
القرآنى قد وحد بينهما فى كثير من الأحيان ولأنى أريد أن أرتب هذه
النوميس أو تلك الأسس حسب مقتضيات الزمان من حيث ظهورها فى
ميدان الدعوات .

(١) من ٦-١

(٢) نوح ٢٦، ٢٧

على أن هناك امرا آخر هو أن النوميس الاجتماعية نفسها لا تفهم ولا يمكن تتبع ظواهرها إلا على أساس نفسى ومن هنا أيضا أحسست بأن هذا الجمع مرغوب فيه وأن الاعتراض عليه ليس بذى بال .

ونبدأ الآن بتسجيل هذه الظواهر ونبدأ منها بالحديث عن الأشخاص .

(١) الأنبياء والبيئة

ولن تناول هنا أشخاصهم وكيف صورها القرآن فذلك له موطنه من البحث في باب القيم الفنية وإنما سنحاول أن نتحدث عنهم كأشخاص لهم في أهمهم أثر كما أن لهم بها صلة لنعرف أين يضعهم القرآن من البيئة أكانوا أثرا من آثارها ونتاجا من معدنها وترتبتها أم كانوا فريدين تقدموا العصر والبيئة حتى لنحسبهم من عنصر خارج لم يرث عن الآباء والأجداد ولم يتأثر بالبيئة فيأخذ عنها أى أثر .

ولنعرف أيضا كيف مضى معهم القرآن مصورا نفسياتهم حيال مبادئ الإصلاح وسلطانها عليهم وحيال شخصيات المؤيدين والمعارضين من أقوامهم وحيال العقبات التي صادقتهم وهل وقفوا عندها أو تخطوها .

للأنبياء في القصص القرآنى أقدارهم فهم الذين يجددون بناء المجتمع بما يشئون من أفسكار ويبذرون من آراء ويوجدون من مبادئ وهم الذين يلائمون بين حاجات الأمم ومقتضيات الزمان فيطيلون أعمارها ويباعدون بينها وبين الضعف والانحلال ، فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية يهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا واتبع الذين ظلموا ما أترفوا

فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ^(١) .
(قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم
من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم
تعلمون ^(٢) .

والأنبياء في القرآن هم الذين يهتدون للأمم للتقدم ويجعلونها قادرة على
التخلص من آثار الماضي وهم حين يندرون تفقد الأمة هذه القدرة فتتوهم
بها العادات وتثقلها التقاليد حتى لا تستطيع منهما تخلصا أو لهما فكاكا فتقف
حينئذ مكتوفة الأيدي وتعجز عن التقدم في مضمار الحياة لتنذر قوما
ما أنذر آباهم فهم غافلون ^(٣) .

والأنبياء في القرآن هم الذين يهتدون للأمم الوحدة فيجمعون ما تفرق
من شملها بتوحيدهم للعقائد وإحالتهم لها إلى قوة دافعة يصدر عنها الأفراد
والجماعات حين يفكرون ويعملون فتفسر المسائل حينئذ تفسيرا يوحد بين
وجهاً النظر في الأفراد فلا تفرق بينهم الأهواء أو تتوزعهم العواطف
وتكون المبادئ إذ ذاك كالنور الذي يضيء الطريق ويهدي إلى السبيل القويم
« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن
سبيله . » « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا . »
« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا
يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من

(١) سورة هود ج ١٢

(٢) نوح ٢-٤

(٣) يس ٦

الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . .

والأنبياء ينبتون نباتا طبعيا فهم من البيئة وليسوا بالغرباء عنها . هم من جنس القوم فلو كان سكان البيئة من الملائكة لكان انبياءهم كذلك « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . . بل هم اخوانهم المتحدثون بلسانهم فنبى قوم عاد اخوهم هود ونبي قوم ثمود اخوهم صالح ونبي مدين اخوهم شعيب . . » كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم اخوهم نوح ألا تتقون . . ، « كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم اخوهم لوط ألا تتقون . . ، « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم اخوهم هود ألا تتقون . . ، « كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم اخوهم صالح ألا تتقون . . ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم . .

والأنبياء ولدوا في البيئة وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدوهم في كل ما يقال وما يفعل وهم أطفال حتى لقد آمن بعضهم بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا لما تدين له من رأى وعبدوا ما تعبد من إله ولعلمهم قد أتوا من ضروب التقديس والأجلال بما تأتى ولعلمهم قد تركوا منها ما تذر وما تدع فوسى مثلا قد تربى في حجر فرعون فتأثر به وبدينه « قال ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلتها وأنت من الكافرين قال فعلتها إذا وأنا من الضالين . . » وشعيب عبد ما يعبد قومه [« قال الملا الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودون فى ملتنا قال أولو كننا كارهين قد افترينا على

الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . . والرسل جميعا يجرون على هذه القاعدة ويسيرون على هذا المنوال « وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا . »

كان سلطان هذه الأشياء على الأنبياء عظيما يوم أن لم يكن لهم من أمرهم شأن غير التلقين والتقليد فلما أن بلغوا أشدهم واستوا أتهم البيئه من ربهم وعند ذلك رأوا غير ما ترى البيئه وقدروا غير ما تقدر فيوسف ترك دين قومه « إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . » ومحمد صلى الله عليه وسلم نهى عن عبادة غير الله لما جاءت البيئه « قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين . »

كانت البيئه في حالة تشبه الفساد إن لم تكنه فهفت نفوس أفرادها إلى الأنبياء ومننت نفسها بالإستجابة لهم والإيمان بما يدعون إليه من رأى أو عقيدة « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لنن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم . » « وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكر آ من الأولين لكننا عباد الله المخلصين . » « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير . »

بل لعلها كانت تتطلع إلى فرد بعينه وشخص بذاته تعقد عليه الآمال وترجو أن يكون مخلصها من الشر ومنقذها من الضلال « قالوا يا صالح

قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .

رجت فأستجاب لها ربها واصطفى واحدا من أبناءها وأرسله ليكون لها هاديا وبشيرا . أرسله فأستجاب له قوم ونفر منه آخرون وحدث ما يحدث في كل دعوة من وجود مؤيدين ومعارضين أو مؤمنين وكافرين فكانت الفرقة وكان الإنقسام .

...

(٢) الانقسام

والانقسام في الجماعة نتيجة حتمية للاختلاف في الآراء والتعصب لها .
واختلاف الآراء والتعصب لها أمران يحدثان كليهما دعا داع أو هم بالإصلاح
رسول « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم
الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين
أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا
فيه من الحق بأذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . »

ويصور القرآن هذا الاختلاف على أنه الناموس العام الذي أراده الله
للناس « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من
رحم ربك ولذلك خلقهم . »

ومن هنا لا نعجب حين تلمس أثر ذلك الناموس الاجتماعي في قوم
موسى « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك
لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب . » وفي قوم عيسى « ولما جاء عيسى
بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذين تختلفون فاتقوا
الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف
الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . » وفي قوم
صالح « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان
يختصمون . » بل في قوم كل نبي من الأنبياء « وكذلك جعلنا لكل نبي
عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا . »

بل قد لا نعجب إذا امتد أثر هذا الناموس إلى ماهو أبعد غورا وأكثر عمقا فلا نعجب مثلا حين نلمس أثره في الأسرة الواحدة وفي البيت الواحد حين نرى فرعون في واد وزوجته في آخره ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين وحين نرى نوحا ينادى ابنه بقلب مغطور ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني أركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

وحين نرى إبراهيم عليه السلام يحاول أن يهدي أباه فيعجز ويعتزله وقومه وما يدعون من دون الله ، يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك وأهجرني مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان نبي حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعائى ربى شقيا . . . بل قد لا نعجب إذا لمسنا أثر ذلك الناموس في ذلك الموقف الفرد الذى يقف فيه ولد من والديه موقف الخصومة يدعوانه فلا يستجيب ويصم أذنيه عن الدعاء : ذلك الموقف الذى يقطر فيه البر والحنان من جانب والقسوة والعنف من آخر والذى يصوره القرآن ابلغ تصوير فيملؤه بالحركة والقوة والعواطف الهاججة والإنفعالات الثائرة ويعبر عنه بصيغ لم تخلق إلا لهذا الموقف وامثاله ، والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين .

وهكذا يسجل القرآن صور هذا الناموس ويتعقبها لا في حياة الجماعة
فحسب بل في حياة الأسرة الواحدة وفي المنزل الواحد بل قد يجاوز كل هذا
إلى أثر ذلك الناموس في الحياة الفكرية للفرد حين تتنازعه العوامل بين
قديمه والجديد وحين تتسلط عليه الخواطر فيصيبه القلق ، وإذ قال إبراهيم
رب أرني كيف يحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي
قال فخذ . . .

والقرآن لا يقف من هذا الناموس الاجتماعي عند أثره في نفس الفرد
أو في نفس الجماعة وإنما يعدوه إلى شرح علله وأسبابه ويرينا من كل هذه
الأمور ما هو من عوامل التقدم والتجديد وما هو من عوامل الجود والتقليد
وهو يربط كل ذلك بظواهر اجتماعية هي من النواميس التي لا تتخلف . ولعل
أحسن ما وقفنا عليه منها هو ما يأتي .

(١) الحالة المعيشية . — والنظرة الأولى فيما صور القرآن من عوامل
تدلنا دلالة قوية على أن الأغنياء يقفون دائماً في وجه الدعوات ، وما أرسلنا
في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . . . وأنهم يكونون
كتلة المعارضة التي تحارب الأفكار الجديدة والتي تنفق الأموال الضخمة في
سبيل القضاء عليها بصد الناس عنها ومحاربة الداعين إليها ووضع العقبات في
سبيلها ، إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها
ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . . .

والنظرة الأولى أيضاً تبين لنا أن الفقراء على العكس من ذلك فهم الذين
يستجيبون للأنبياء وهم الذين يؤمنون بالدعوات وهم الذين يقفون
إلى جانب الرسل ينصرونهم ويشدون أزرهم حين يكونون في حاجة إلى

الانصار والأعوان ثم هم الذين يدافعون عنهم ويعصون أمر مخالفهم حين يكون الجدل والحوار . فالمستضعفون من قوم صالح هم الذين لبوا دعوته وصدقوا رسالته وآمنوا بما جاء به من دين جديد . قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلبون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كفرون فحقروا الناقة وعتو عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين .

وتتعمد الأمور دائما بين الفقراء والأغنياء كلما دعا أو جاء رسول بدين جديد . ومن هنا نرى تلك الخصومة التي تقوم بين الأغنياء والفقراء أو المستضعفين والمستكبرين . كما نرى الأغنياء يعيرون الرسل بانضمام الفقراء إليهم وأنهم أول من استجاب للدين الجديد . وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي . بل يذهبون إلى أبعد من هذا ويرون أن دخول أمثال هؤلاء الفقراء في الدين هو الذي يحول بينهم وبينه وهو الذي يمنعهم من الإيمان والتصديق . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأراذلون . ومن هنا نراهم يطلبون إلى الأنبياء طرد الفقراء من مجالسهم وتنحيهم عن أن يكونوا عقبات في سبيل هؤلاء الأغنياء . وهنا يصور لنا القرآن رفض الأنبياء خوفا من عقاب الله أو حرصا على مصلحة الدعوة ونصرة الدين . وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين ، ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . ، ، ويا قوم من ينصرفي من الله إن طردتهم أفلا تذكرون .

وتعليل هذه الظاهرة الاجتماعية أو هذا الموقف من كل من الأغنياء

والفقراء ليس بالشاق ولا بالعسير . فالقرآن نفسه يشير إليه في أكثر من موطن ويرشد إليه كلما وجد إلى ذلك السبيل . ومن هنا تعددت العلل واختلفت باختلاف المواطن ولعل من أهمها ما يلي .

أن الغنى يجعل أمور الناس ميسرة وحاجاتهم مقضية ويجعل من السهل عليهم الاستمتاع بما في الحياة من لذائذ وطيبات ولذا يمنح الاغنياء إلى الراحة ويخلدون إلى السكينة ويطمثون إلى ما عليه من حال فلا يحاولون تغيير أوضاعهم ومن هنا لا تخفق قلوبهم بحب الإصلاح ولا تنجذب نفوسهم أو تطمئن قلوبهم إلى التجديد من الدعوات . « بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون .

وكما طال على الاغنياء الأمد وامتد بهم الزمن تولدت في نفوسهم حبة الحياة وقويت في نفوسهم الاثرة وخيل إليهم أن قد كتب لهم الخلود . « وقالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن تمتعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . « ومن هنا نرى القرآن يعتمد إلى تخويفهم وزعزعة هذه الأسس من قلوبهم وعقولهم فبلغت ذنهم إلى أنه يأتي الأرض ينقصها من أطرافها « بل تمتعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون . « وإلى أن عذابهم في الآخرة سيكون قويا عنيفا « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون ،

أما الفقراء فيسيرون على العكس من هؤلاء في هذه المواطن فهم قد سلط عليهم الزمن وألهبهم ضرورات الحياة ففكروا في أمورهم وتمنوا حالة أسعد

من حالتهم وراموا سهل العيش ولين الحياة فما أن دعاهم الداعي حتى لعب
خيال المستقبل بعقولهم وقلوبهم وقاربت الآمال أن تصح حقائق ومن هنا
يستجيبن لعل السعادة أن تقبل بعد إدار ولعلها أن تلازمهم بعد أن ملوا
الفراق وطول الانتظار .

(ب) والغنى يدفع إلى الكبر والاستكبار والعناد « ويل لكل أفاك أثيم
يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا
فبشره بعذاب أليم » ، « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » ، « كلا إنه كان
لآياتنا عنيدا » ، والمتكبرون عادة يضيئون بالدعاة وينالونهم بالاذى حتى ولو
رأوا أن ما جاءوا به هو الحق وما دعوا إليه هو الصدق والعدل . « وجحدوا
بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . »

والفقر يذل النفس ويخضع هام الرجال ولذا يكون الفقراء أيسر
اقناعا وأسهل انقيادا وأسرع إيمانا بالدعوات « وبرزوا الله جميعا فقال
الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب
الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا
من محيص » ، « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبرانا فأضلونا السبيلا . » ،
« ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول
يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لو لا أنتم لكاننا مؤمنين وقال الذين
استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل
كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ
تأمرؤنا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب
وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » .

(ج) والغنى يجعل الناس أشد حرصا على الحياة وعلى الإحتفاظ بما
خلف الآباء من أثر وينمى فيهم محبة المألوف والعداى « وكذلك ما أرسلنا

من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة
وإنا على آثارهم مقتدون .

قل أو لو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما
أرسلتم به كافرون . ثم إن الغنى يدفع إلى الاحتفاظ بالملك والرياسة ويحض
على اكتساب السلطان والنفوذ . قالوا أجنثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا
ونكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين .

ومن هنا يتطرون بالدعاة ويتشاءمون منهم . قالوا إنا تطيرنا بك وبمن
معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . ويعتقدون أن الرسل من
الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . وقال فرعون ذروني أقتل موسى
وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد .

والفقر لا يدفع إلى الحرص على شيء فلا مال ولا جاه ولا نفوذ ولا
سلطان والفقير لا يؤدي إلى الاستقرار وإذا فلا خضوع إلى رأى بعينه ولا
استقرار للتقاليد والعادات وبالجمل فالفقراء في حالة لا يحسدون عليها ولن
تطلب منهم أكثر من حمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

الحالة الثقافية والفكرية . - وهيئة الأذهان لموضوع الدعوة أو المبادئ
الجديدة له قيمته الفعالة في قبول هذه الأشياء كما أن ترك النفوس غفلا
والأذهان خلاء هو الذي يدفع إلى إنكار هذه المبادئ والآراء وهذا الأمر
هو الذي أشار إليه القرآن حين قال . تنزيل العزيز الرحيم لتندر قوما
ما أنذر آبائهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون إنا
جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين
أيدهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أن نذرتهم

أم لم تنذرهم لايؤمنون إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب
فبشره بمغفرة وأجر كريم . . . إذ الواضح من هذا النص أن الذين سيستبعونه
إنما هم الذين استعدت نفوسهم وتهيأت عقولهم أما أولئك الذين لم تأتهم النذر
أولم تنزل عليهم الكتب فهم أبعد الناس عن الإيمان والتصديق .

وليس الأمر في هذه المسألة خاصا بن خشى الرحمن بالغيب بل هو
خاص بالاستعداد أيا كان هذا الاستعداد ولذا نرى المشركين تصفى افقتهم
لما تهيأت له عقولهم وذلك واضح من قوله ، وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا
شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو
شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون
بالآخرة وليرضوه وليقتفوا ما هم مقترفون . .

والذين يهيشون الأذهان لهذه المبادئ إنما هم الرسل وما ينزل عليهم من
كتب أو هم العطاء وما ينشرون من أفكار ولذا نرى القرآن يتعجب من
موقف المشركين من محمد عليه السلام ويرى أنه قائم على غير أساس لأن
الأساس السليم في مثل هذا الموقف إنما هو ذلك الذى يعتمد على الرسل
والكتب ولذا نراه يقول ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل
يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين
كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتينا هم من كتب يدرسونها
وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . .

كما يدل في غير هذه الآيات على أن مهمة الرسل إنما هى الهداية والإنذار
وقال تعالى ، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من
نذير من قبلك لعلهم يهتدون . .

والأمر في المسألة يرجع من الوجهة النفسية إلى أن الإنسان يفسر ظواهر الوجود بما يعرف من أفكار وآراء إذ هو يربط ما يحس بما يعرف أو يربط غير المفهوم بالمفهوم ومن هنا تتقارب التفسيرات وتشابه عند الذين يدينون بآراء واحدة أو متشابهة وتختلف اختلافا كبيرا حين يتباين ما في أدمغة الناس من أفكار وآراء .

والأمر لا يقف عند هذا الحد بل تتبعه حالة نفسية أخرى هي أن المؤمن برأى ما يعتقد بحيازته للحقيقة المطلقة فيرى نفسه المصيب وغيره المخطئ . وذلك واضح في القرآن ، وقالت اليهود ليست النصرارى على شيء وقالت النصرارى لبست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

ومن هذين نرى أمرا ثالثا هو لتكون الثقافة نافعة ومفيدة للدعوات الجديدة يجب أن تكون بينها صلة فينبى الجديد على القديم . وكلما ازدادت هذه الصلة خلقت جوا عاطفيا يقوى الآراء ويمكن لها . وكلما ضعفت هذه الصلات أو تلاشت قابلت النفس الجديد بفتور أو باعراض ونفور . والواقع العملى والآيات القرآنية يؤيدان هذه الحقيقة النفسية فقد آمن المدينون أو كانوا أسرع استجابة لأن الدعوة الاسلامية كانت متقاربة أو متشابهة لما يألّفون وعلى العكس من ذلك كان المسكيون الذين باعدت الوثنية بينهم وبين ما يراودهم من توحيد . والآيات القرآنية تقول بوجود الصلة بين الكتب المنزلة كما تصور ذلك الجو العاطفى الذى يظهر حين تتفق الآراء وتشابه أو تختلف وتتباين فيكون الاستبشار مثلا من القوم حين يسمعون ما يتفق واهواءهم وتسكون النفرة والاشمئزاز حتى يسمعون ما ينكرون . وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذ ذكر

الذين من دونه إذا هم يستبشرون ، ، « وإذ ما أنزلت سورة فمنهم من يقول
أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما
الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ،
ولعل هذا هو السر الذي من أجله عتب القرآن على أهل الكتاب وعاب
منهم موقفهم من محمد مع وجود الصلة وقوة المشابهة ، قل يا أهل الكتاب
لم تكفروا بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم
تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل
 عما تعملون . »

كما اعتذر عن موقف المشركين من أنه لم ينزل عليهم كتابا ولم يرسل
إليهم رسولا . وأنهم تركوا لاهوائهم فأعمتهم وأضلّتهم فهم كالأنعام
أو أضل سبيلا وليس من شك في أن الثقافة تجعل العقلية مرنة وتهيئ الإنسان
لفهم الكثير مما يعرض عليه وقبوله في إسماع ويسر وأن وجود الأفكار
المعارضة أو الجهل بموضوع الدعوات يجعل قبول الإنسان لها شاقا عسيرا .

(٣) سلطان الآباء والأجداد . — وسلطان التقاليد له قيمته في كل أمة
من الوجهة الاجتماعية ذلك لأنه المساك الذي يثقل الأمة عن أن تكون
ريشة في مهب الرياح وهو من هذه الناحية ذو فائدة كبيرة للأمة مهما يكن
حظها من التقدم والرقى . إلا أنه قد يكون حجر عثره في سبيل الأمة فيثقلها
عن أن تنهض ويجرها إلى الوراء ويجعلها تلتفت دائما الى ما ورثته من تراث
عن الآباء والأجداد لتقف عنده راضية مطمئنة وهو من هذه الناحية
يكون آية من آيات الرجعية ودليلا مر أدلة الجمود . ولذا كانت خير الأمم
تلك التي تقف بين هذين فيكون لها من التقاليد ما يحفظها من الذبذبة وعندها

من القدرة على التخلص من سلطان هذه التقاليد ما يجعلها مرنة طيبة تسير حين يكتب لها النهوض أو تستحث عليه بخطا ثابتة .

والعوامل التي تهب للأمة هذه المقدرة كثيرة لعل أهمها وجود الأبطال وقد سبق لنا أن تحدثنا عن آثارهم في هذه الناحية ويعيننا الآن أن نذكر الجانب المقابل الذي يقعد بالأمة عن النهوض ويكتب عليها اجود ويجعلها غير قادرة على الحركة والسير في مضمار الحياة وهو سلطان التقاليد أو سلطان الآباء والأجداد .

يتفاوت هذا السلطان في الأمم بتفاوت الأطوار التي مرت بها من حيث السلم الحضارى فهو في الأمم الصناعية والتجارية مثلاً أخف وطأة منه في الأمم الزراعية والراعية وهو في هذين وبخاصة الأخيرة ذو سلطان قوى ممكن ذلك لأن النظام الذى يقوم فى مثل هذه البيئة إنما هو النظام الرعوى والنظام الرعوى بحكم طبيعته يمكن لسلطان التقاليد وهذا هو الواضح من تصوير القرآن وهذا هو الذى أقعد الكافرين من أبناء الأمة العربية عن الاستجابة فإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها وإذا قال لهم تعالوا إلى أهدي مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ويكرر القرآن الآيات التي تدل على سلطان هذه التقاليد ويذكرها على ألسنة أقوام الرسل المختلفين فيذكرها على لسان قوم إبراهيم حين يقولون « بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » وعلى لسان قوم هود « إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعزيين » وعلى لسان قوم موسى حين عجبوا من دعوته لهم وطلبه منهم نبذ عبادة الأوثان « قالوا أجتنا تلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا . » وهكذا قوم محمد « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما

وجدنا عليه آباءنا ، ، « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، وهكذا نستطيع أن نقول إن التفاوت في كل من الثروة والثقافة والطور الحضارى يساعد على الاختلاف والانقسام فى رأى حين تنبت دعوة أو يظهر بطل جديد وأن هذا الاختلاف أو ذلك الانقسام يؤدى الى نتيجة أخرى هى الصراع ذلك لأن النفس الإنسانية لا تطيق المخالف .

(٣) نفس المؤمن لا تطيق المخالف

وهذا ناموس نفسى يصوره القرآن حين يقول « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما أقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ، ويدل على قوته وتأثيره حين يهدد المستجيبين لوحيه والخاضعين لسلطانه بقوله « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . »

ويظهر لنا أن السر في هذا إنما يرجع إلى أن الإيمان يخلق في النفوس جوا عاطفيا نحو الآراء والأشياء ومن هنا عبر القرآن عن الصلة بين الآلهة والاتباع بالحب حين قال « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله . »

هذا الجوله أثره في كل من الأفراد والجماعات فهو الذى يدعوها إلى هذا الموقف من المخالف وهو الذى يضطرها إلى الفتك والاضطهاد .

فأولا — يدفع هذا الجو المؤمن أيا كان دينه إلى كراهية من ينال معتقداته بأذى أو يمسها بسوء فالمشركون مثلا يكادون يزلقون النبي ببصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، والكفرة يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آيات ربهم « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين

كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا . ، وأهل الكتاب
جامتهم الرسل بغير ما تهوى أنفسهم ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، أفكلما
جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . ،

وثانيا - يدفع هذا الجو المؤمن إلى الاحساس بأنه على الحق وغيره
في ضلال ولذا لا يحس بما في رأيه من خطأ حتى ولو كان واضحا للعيان
ومن هنا رأت اليهود أن ليست النصراني على شيء ورأت النصراني أن
ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ، وقالت اليهود ليست النصراني
على شيء وقالت النصراني ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك
قال الذين من قبلهم مثل قولهم قاله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه
يختلفون . ، ومن هنا أيضا رأى قوم نوح أنه في ضلال ، قال الملائكة من
قومه إنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلال ولكني رسول من
رب العالمين . ، ورأى قوم شعيب أن من اتبعه هم الخاسرون ، وقال الملائكة
الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون ، وبرى الذين
أجرموا ان اتباع محمد ضالون ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون .

والمؤمن وإن توجع لعمى قلب من يخالفه قال يا قوم ارايتم ان كنت
على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأتم لها
كارهون ، لا يتأخر عن حمل الناس بالقوة على الايمان بمعرفته ، ان وجد
الى ذلك السبيل .

وثالثا - يخلق الايمان في الجماعة نوعا من المشاعر تجمع شملها وتلم شعها
وتربط بين عناصرها وتجعلها سلسلة متشابكة من الحلقات . كما يثبت الايمان
في الجماعة روحا تصدر عنها في أفكارها وآراءها وتبنى عليه مختلف التقاليد

والعادات ولذا تحرص الجماعة على هذه الروح وعلى تلك المشاعر لأنها سر قوتها وآية عزها ومنعتها ، ومن هنا لا ترضى الجماعة عن الشخص حتى يكون على دينها أو وفق هواها ، ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . ومن هنا أيضا تذكره الجماعة من يشذ عنها أو يخرج عليها حتى ولو كان نابغة أو عبقريا وترى فيه نذير الشؤم وآية الضعف والانحلال ولذا تطير قوم صالح به وبمن معه ، ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيدة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائرکم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . ، ورأى قوم هود هودا في سفاهة ، قال الملائكة الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . ، وأحس فرعون أن موسى يريد أن يبدل دينه أو أن يظهر في الأرض الفساد ، وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه لاني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ، وليس من شك في أن جزاء المفسدين والشواذ إنما هو الأذى ينالهم والعقاب يحل بهم ، إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . ، وليس ما هو أهون من ذلك عند الجماعات .

هذه هي العلل التي نفسرها هذا التاموس وتبقى بعد ذلك ظواهره المختلفة تلك التي صورها القرآن في كثير من القصص والآيات .

وقبل أن نسجل هذه الظواهر نلفت الذهن إلى أن موقف المخالف يتبدل في الجديد من الدعوات . ذلك لأن المخالف يكون في أول الأمر الرسول ومن اتبعه من المؤيدين والأنصار . ويكون في آخر الأمر من تخلف من الجماعات عن اللحاق بها واتباع دينها الجديد . ونبدأ هنا بتصوير

مظاهر الشق الأول وما يؤيده أو يعارضه من أسس ونواميس .

ويكون الرسول هو المخالف أولاً ومن هنا يناله الأذى وينزل به العقاب وتبدأ هذه الأشياء هيئة فتسكون أولاً بالسخرية والاستهزاء ويسمع الرسول ومن اتبعه أمثال هذه الكلمات . « أهذا الذي بعث الله رسولا . » « أهذا الذي يذكر آلهتكم . » « أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا » ويخرج القرآن بهذه المسألة من أن تكون خاصة بالنبي العربي فيصورها على أنها من الأذى الذي ينال الرسل في كل زمان ومكان « ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون . »

ويمضي الرسول في دعوته فيمضي القوم في أيذائهم فترى التهديد بالكثير من ألوان العقاب فترى التهديد بالرجم « قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . » « قالوا لئن لم تنته يأنوح لتكونن من المرجومين » « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ولنمننكم منا عذاب ألیم . » ونرى التهديد بالسجن فيقول فرعون لموسى « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين »

ونرى التهديد بالاعراج من الأرض فيقول قوم شعيب « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا » ويقول قوم لوط « لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين . » ويقول الكافرون لرسولهم « لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا » ويفعل مثل ذلك المشركون في مكة « وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها . »

ونرى التهديد بالقتل وحده أو مع التمثيل بالجثث والأجسام أو بالاحراق فيقول قوم إبراهيم بعضهم لبعض حين دعاهم « اقتلوه أو حرقوه » ويقول فرعون لقومه « ذروني أقتل موسى وليدع ربه . »

كما نرى المؤامرات ومحاولة الاغتيال في قصة صالح . ولقد أرسلنا الى
ثمود أخاهم صالحا أن أعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم
تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا
اطيرنا بك وبين معك قال طائركم عند الله بل أتم قوم تفتنون وكان في
المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله
لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا
مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فأنظر كيف كان عاقبة مكرهم أنادمرناهم
وقومهم اجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون .

وتأخذ هذه الأشياء في النهاية مكانها من الواقع فيكون الإخراج كما
حدث مع النبي العربي « واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث
أخرجوكم . » وكما حدث لابراهيم فقد ترك قومه وهاجر حين استعصى عليه
هدايتهم « فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم . »
وأتباع محمد حدث لهم أيضا مثل هذا كما صور القرآن الكريم « الذين
أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . » للفقراء المهاجرين
الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون
الله ورسوله . » وكما حدث لموسى وقومه فقد خرج من مصر مهاجرا بدينه
وأتباعه ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد
الله إني لكم رسول أمين وإن لا تعلقوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين وإني
عدت بربي وربكم أن ترجعون وإن لم تؤمنوا فاعتزلون فدعا ربه إن هؤلاء
قوم مجرمون فأمر بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا إنهم جند
مغرقون . »

ويكون الإحراق كما حدث لإبراهيم « قالوا ابنوا له بنايا فالقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » . « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم أن كنتم فاعلين قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم » . وكما حدث بالمؤمنين في قصة الأخدود « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الآن يؤمنون بالله العزيز الحميد » .

ويكون القتل كما حدث لذكرياء ويحيى فيما يروى المفسرون عند تفسيرهم لقوله تعالى « افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » .
ويكون في النهاية الاقتتال بين المؤيدين والمعارضين حين يكثُر المؤيدون والاتباع .

ويلقى هذا الناموس في روع الانسان أن الدعوات مقضى عليها بالفشل وأن التجديد ضرب من المحال ذلك لأن الجماعة قوية بنفسها ثم هي لاتصبر على المجديدين والدعاة وهو أمر يكاد أن يكون صادقا لولا وجود عوامل أخرى تحد من قدرته وتعطل من سيره وهي بهذا تفسح المجال أمام الدعاة والاتباع وكأن إرادة الله هي التي اقتضت هذا ليسكون التقدم والتجديد ولئلا يتعطل الرقي في هذه الحياة

هذه العوامل كثيرة وواضحة فيما صور القرآن ونستطيع أن نسجل منها

أولا - ذلك الجو العاطفي الذي يسيطر على الجماعة خيال الآراء والمعتقدات إذ على قدر قوة وضعفه يتوقف حرص الجماعة على المحافظة على ذلك التراث . كما يتوقف عليه غضبها على الخارج ونقمها عليه ومن

هنا لا يقدر النجاح للدعوات إلا إذا كان ما ستحل محله قد وهن وضعف . بفعل الزمان وغيره من المؤثرات إذ عند ذلك يضعف غضبها وتقل نقيمتها فلا يكون قتل أو اغتيال . ولعل ذلك هو الذى قصد إليه القرآن حين جعل إرسال النبي العربى على فترة من الرسل « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير » . وحين جعل إرسال عيسى ليدين لهم الذى يختلفون فيه « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه » . حيث لا يكون اختلاف إلا إذ ضعف سلطان العقائد ووهن أثر الأديان .

وهذا هو الواقع العملى فى الدعوة الإسلامية فقد ضعف سلطان العقائد على بعض النفوس بفعل اليهودية وغيرها فتهودوا وتنصروا وتحنفوا وتركوا عبادة الآباء والأجداد . بل هفت نفوسهم إلى الرسالة والكتاب فقالوا « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا . . » وقالوا « لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكننا عباد الله المخلصين . » وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليسكونن أهدي من احدى الأمم . . وهكذا سبيل كل دعوة ودعاه .

ثانيا - تلك الصلة التى تكون دائما بين الجديد والقديم من الأديان إذ تجعل الجديد غير غريب على البيئة وأهلها وهذا هو المعنى الذى أكدته القرآن حين شرع لمحمد ما وصى به نوحا « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . » . وحين جعل الكتب مصدقة بعضها لبعض من انجيل وتوراة وقرآن « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراه وهدى وموعظة للبتقين وليحكم أهل

الأنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمه واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات .

والواقع العملي من الدعوة الإسلامية يؤيد هذا فقد كان موقف القوم من الجديد والغريب عليهم قويا عنيفا وحسبنا أن نذكر موقفهم من البعث ووحداية الله على حين لم يكن في موقفهم من الحج أى مكابرة أو عناد .

ثالثا — ونختم حديثنا عن هذه العوامل بالحديث عن تلك الصلة التى تكون بين الرسول وقومه أو البطل وأمة تلك الصلة التى سبق لنا أن تحدثنا عنها حين قلنا بأن الرسول أخو القوم المتحدث بلسانهم . . . الخ إذ أن هذه الصلة تجعل البطل يستعذب الألم فى سبيل هداية قومه واصلاحهم فلا يفر من الميدان حين تلاقيه الصعاب أو تصادفه العقاب ذلك لأنه يحس فى قرارة نفسه أن إسعادهم هو الغاية التى ليست وراءها غاية والمطمع الذى ليس بعده مطمع ومن هنا نراه يحرص على هذه الهداية فى الوقت الذى يتفقون منه موقف العداوة لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . . . ومن هنا أيضا يعتب عليهم فى كثير من الألم والمرارة فىرى أنهم لم يفهموا أغراضه ولم يتبينوا مقاصده مع أنه لم يأتهم الا ليخرجهم من الظلمات الى النور وإلا ليهديهم الى الطريق المستقيم وهو فى سبيل كل ذلك يضحى بمنفعته وراحته ويكفيه أنه يسعد نفسه بهداية قومه إلى طريق ربه العلى العظيم . فشعيب لا يريد إلا الاصلاح . ان أريد إلا الاصلاح ما استعطت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه

أنيب ، ومحمد يهدي الى الصراط المستقيم ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم .
 «الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بأذن ربهم الى
 صراط العزيز الحميد .» وصالح لا يسأل قومه أجرا على الهداية ، وما أسألكم
 عليه من أجر أن أجرى الا على رب العالمين . ، وموسى وهارون يقفان
 موقفنا يتصورانه القتل في سبيل لإخراج قومهم من مصر وتخلصهم من
 فرعون وما يلحقه بهم من ذل وهوان . « اذهب أنت واخوك بآياتي ولا
 ولا تنيا في ذكرى اذهبا الى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر
 أو يخشى قال ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنا
 معكما اسمع وأرى فأتياه فقولا لانا رسولا ربك فارسل معنا بنى لمسرائيل
 ولا تعذبهم قد جئتكم بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى .» وهكذا
 سبيل المرسلين .

وهذه الصلة نفسها تؤثر في نفس الجماعة فلا تعجل العقوبة لواحد منها
 ولابن من أبنائها وهي لا تصدق أولا شذوذة عنها أو خروجه عليها بل ترى
 به جنونا أو تعتقد أن الآلهة قد اعترته بسوء ، أن نقول الا اعتراك بعض
 آلهتنا بسوء ، ولذا قد تلتمس له الطب والعلاج فاذا خاب ظنها أو قال رأيها
 رمته بالسفه أو رآته في ضلال ولذا قد تلتمس العلاج عند أقاربه وتبقى
 عليه لمكانة رهطة وعشيرته « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك
 فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ، وهكذا تتدرج من لين الى شدة حتى
 يسكون الاقتتال .

وهكذا تكون هذه الصلة بين البطل والبيئة وسيلة فعالة في سبيل لإنجاح
 الدعوات وأن كنا نلاحظ أنها تكون في النهاية عقبة في سبيل انتشار الاديان
 ولعل هذا هو السبب الذي من أجله حاربها القرآن فنحن نلاحظ أنه في

النهاية جعل العاطفة الدينية فوق عاطفة القرايات فنهاهم عن مودة اقر بائهم
 إذا كان ذلك على حساب دين الله وطلب اليهم أن يتخذوا من ابراهيم الاسوة
 الحسنة في هذا الميدان « يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء
 تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن
 تؤمنوا بالله ربكم أن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم
 بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وأعلنتم ومن يفعلهم منكم فقد ضل سواء السبيل
 أن يثقوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا
 لو تكفروا لن تنفعكم أرجامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله
 بما تعملون بصير قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه أذ قالوا
 لقومهم انا برءؤ منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبذا بيننا وبينكم
 العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إنا قول ابراهيم لأبيه
 لا استغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا
 وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا لعلنا نكون منكبين
 الحكيم لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن
 يتول فإن الله هو الغني الحميد عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم
 مودة والله قدير والله غفور رحيم لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين
 ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين
 إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على
 إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون . »

وهكذا تكون القرابة عاملاً مفيداً في انجاح الدعوات في أول الأمر كما
 قد تكون عاملاً معطلاً حين يكون الاقتتال بعد كثرة الأعوان والأخصار .

والآن وقد وضعنا العوامل المؤثرة في سير هذا الناموس النفسي .

« النفس لا تطيق المخالف ولا تصبر عليه ، نحب أن نصور موقف البطل أولا وحين يتعدل الميزان .

قلنا ان البطل أولا يكون هو المخالف فينا له الأذى وذكرنا بعض ألوان العقوبات ونقول الآن ان موقف البطل في هذا الدور هو موقف الضعيف الذى لا يملك من الحول والطول إلا الالتجاء الى ربه والدعاء على الاعداء هكذا نرى موقف نوح » وقال نوح رب لا تنذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . وهكذا نرى موقف موسى » وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . » وهكذا نرى موقف غيرهم من الأنبياء .

ثم يلجأ الرسول إلى التهديد والوعيد ويكونان بالمصائب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ويستجيب الله للرسول فتكون الصواعق وغيرها من ألوان العقوبات . هكذا نرى فرعون وقومه « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات . » ونرى شعيبا وقومه « ويا قوم لا يجرمكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هودا أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . » وإلى هذا أيضا أشار النبي العربى والقرآن الكريم « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . » وهكذا غيرهم من المرسلين .

و حين تقوى الدعوة ويكثر الأعوان والأنصار وحين يحس النبي فى نفسه قدره على الفتك والاضطهاد يستجيب لهذا الناموس ويبدأ فىحاول

القضاء على المتخلفين من الجماعة ويجبرهم بالقوة على اتباع تعاليمه والايمان بما يدعو إليه من آراء ومعتقدات وهذا هو الذي نلاحظه من موقف النبي العربي من المشركين واضرابهم والمنافقين ومن لف لفهم يقول الله تعالى « قل للذين كفروا إن يذتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . » ويقول « لئن لم يذته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تحويلا . »

وعند ذلك يكون النصر قد كتب للهاديء فتسيطر على نفوس الافراد والجماعات وفي الفقرة التالية نتحدث إن شاء الله على ناموس آخر هو : —

(٤) الرسول لا يشك في مستقبل دينه

ونتيجة الناموس السابق واحدة من اثنتين :

(١) فإذا أن يذهب الرسول ضخمة المبدأ والعقيدة ، فيقتل أو يخرج مهاجراً . وتلك أحوال لم يقصها القرآن إلا نادراً ، وهو حين يقصها يعتمد على الإجمال والإبهام ، فنراه مثلاً يقول في حق الإسرائيليين وهو متعجب من صنيعهم : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتهم وفريقاً تقتلون » .

ويتفق المفسرون جميعاً على أن من الذين قتلوا يحيى عليه السلام .

كما نلاحظ خروج إبراهيم مهاجراً بعد إذ عاداه قومه ، ووقفوا منه ذلك الموقف الذي تصوّره هذه القصة القرآنية : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكا . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من

أو ثانياً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إني مهاجر الى ربى إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وأتيناها أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين .

والذى يلاحظ في مثل هذه المواقف أن الهجرة تعتبر نصراً للدين الجديد وللرسول الداعى وذلك هو الواضح كل الوضوح من قصص موسى ومحمد عليهما السلام . وتكون عاقبة المتخلفين في بعض الأحوال الهلاك والدمار وذلك هو الوضع الذى يقرره قصص كثير من قصص القرآن من مثل أحوال قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط . وذلك الوضع هو الذى قصه شعيب وصورة القرآن « ويا قوم لا يجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم يبعيد . »

(٢) وإما أن ينتصر الرسول فيسود الدين الجديد وتنشر المبادئ وتلك هى الأحوال التى صورت كثيراً في القصص القرآنى وتلك هى الأحوال التى تشير اليها آيات القرآنية الكريمة الخاصة بالنصر والتى نستطيع أن نختار منها قوله تعالى « ولقد سبقت كتبنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون . » وقوله « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » وقوله « ثم ننجى رسلنا وانذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين . »

على أن هذا النصر لا يتم في سهولة ويسر إذ ذنونه عقبات لا بد من تخطيها وأزمات نفسية لا بد من القضاء عليها .

والعقبات كثيره متنوعه منها نوع نستطيع أن نسميه بالعقبات الداخليه
وصوره في القرآن ليست بالعديده . والأسباب التي تدفع إلى هذا
اللون قد تكون

١ - طبيعة الشخص وتكوينه إذ يكون ضعيف الاراده لا يملك من أمر
نفسه وقيادها الشيء الكثير وذلك هو الأمر الواضح في قصة آدم إذ نهاه ربه
عن الأكل من الشجرة فلم يمتثل ونسى فلم يجد له عزما . ولقد عهدنا إلى
آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ، ، وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباها
ربه فتاب عليه وهدى .

(ب) وقد ترجع إلى لون من العقد النفسية التي تسيطر على أعمال المرم
والتي تلعب دورها في قوة ومهارة . وذلك هو الأمر الواضح من قصة
موسى فقد اصطفاه ربه فاختره رسولا إلى فرعون ولكنه طلب من العلي
القدير أن يرسل معه أخاه هارون وزيرا . واستجاب ربه وأرسل معه أخاه
وهنا يظهر المنجوب وينكشف الغطاء إذا تسيطر حادثة قتل المصرى على عقل
موسى ويتذكر خروجه من أرض الفراعين هاربا وكيف أخبره الصديق
الذى جاءه يسعى من أقصى المدينة بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه . لذا نراه
يتوجه إلى ربه مفصحا عن دخلية نفسه « قال رب إنى قتلت منهم نفسا
فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردما
يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما
سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتمما ومن اتبعكما الغالبون . » . اذهب
أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا في ذكرى إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له
قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا أننا نخاف أن يفرط علينا
أو أن يطغى .

ولم يذهبها حتى تلاشى الخوف واستقر الهدوء والاطمئنان واستجابت أنفسهما لقول العلي العظيم « لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ».

(ج) كما قد ترجع إلى بعض الرغبات المكبوتة التي لاتزال في حالة قوية من الفاعلية وذلك هو الأمر الواضح من حال محمد عليه السلام حين كان يحرص على تحسين مآبئته وبين قومه من علاقات حرصا شديدا وهذا ما يوضحه النص الآتي « قال قتاده ذكر لنا أن قريشا خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويقتحمونه ويسودونه ويقاربونه فقالوا إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس وأنت سيدنا ياسيدنا وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ثم عصمه الله تعالى فأنزله الله تعالى « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا . » (١)

ومنها نوع نستطيع أن نسميه بالعقبات الخارجية وصور هذا النوع في القصص القرآني كثيره متنوعة يجمعها كلها ما يقوم به المعارضون للأنبياء من أعمال وأقوال وذلك من مثل تكذيبهم للرسل ورميهم لهم بأنهم في سفاهة أو ضلال وأن ما يقولونه شعرا وأن الشياطين تنزل عليهم وأن الآلهة قد اعترتهم بسوء ثم من صدم الناس عن اتباع الانبياء ومحاولتهم صرف النبي أو الرسول عن الدعوة بالأذى تارة وبالتهديد والوعيد تارة أخرى ثم تحديهم لهم وطلبهم إنزال العذاب أو الاتيان بمعجزة إلى غير ذلك من الأمور التي تتضح في القصص والتي يكفي في الدلالة عليها أن نورد هذه

القصه ، والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون قال الملأ للذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأنتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوني فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين فأنجيناها والذين معه وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين .

ويترتب على هذه العقبات أنواع من الآلم تختلف قوه وضعفا فقد يخرج الآلم الرسول عن حد الاعتدال والقصد فتثور انفعالاته وتضطرب نفسه وتجمع العواطف حتى ليعجز عن كبجها وذلك هو الواضح من موقف ذى النون عليه السلام حين ذهب مغاضبا « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناها من الغم وكذلك تنجى المؤمنين .

وقد يؤثر هذا الآلم على الاتجاه العام فى حياة الرسول والدعوه حتى ليهم بتركها وذلك هو الواضح من قوله تعالى « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل .

و قد يكون هذا الألم من القوة والعنف بحيث يبعث الشك في النفوس ويبذر اليأس في القلوب والحالة الأولى هي التي يصورها قوله تعالى «فأن كنت في شك مما أنزلنا إليك فأسأل الدين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» .

كما يصورها قوله «حتى إذا استئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين» .

إلا أنه على الرغم من كل هذه العقبات فإن الرسل يظفرون بالانتصار فنراهم وقد تخطوا العقبات وانتصروا على الاعداء حتى لكأن الألم الذي عانوه لم يكن إلا المطهر الذي نفت فيهم الصلابة والقوة وأحاطهم خلقا آخرين أقدر من غيرهم على تحمل العقبات وعلى استعذاب الألم في سبيل الدعوات . وكأن تلك الوقفات القصيرة لم تكن إلا الاستعداد للوثبة تتبعها وثبات .

يعمل على هذه الانتصار فيما نعتقد أمران .

الأول - تلك العقيدة الدينية التي يحس بأثرها النفس جميع المؤمنين بالعقائد والاديان من أن الله رعاهم ويحفظهم ويثبت خطاهم ويهيئ لهم من أمورهم رشدا والأثر النفسي لهذه العقيدة هو أنها تشحن الهمم وتقوى العزائم وتزيل الضعف عن النفوس وتبعد اليأس عن القلوب وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» .

الثاني - ذلك الأثر النفسي الذي يقوم به الفن من عمليات الإيحاء والإفاضة حين يقص على المعاصرين أخبار من سبقوهم وكيف كانوا أبطالا وكيف كان النصر في النهاية حليفهم . والقصص القرآني يعمل من غير شك على تخفيف

الضغط العاطفى وعلى انقشاع الازمات النفسية من عند النبى والمؤمنين وهذا هو الامر الذى سنتحدث عنه بتفصيل عند حديثنا عن أغراض القصص القرآنى أن شاء الله ولذلك نكتفى هنا فى الدلالة على تلك الحقيقة بذلك النص القصير المنقول عن صاحب الكشف بصدد حديثه عن الصلة بين قوله تعالى « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » وبين قصة موسى عليهما السلام قال رحمه الله « قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به فى تحمل اعباء النبوه وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود » (١)

وصدق الله العظيم حين يقول « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق . »

وحين يقول « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض . »

الفصل الثالث

« القيم الدينية والخلقية »

وأعترف منذ اللحظة الأولى بأن لا فضل لى فى هذا الفصل إلا فضل التنظيم والعرض ذلك لأنه قد سبق أن عاجلت موضوعات هذا الفصل فى بحثى الأول الذى قدمته لنيل درجة الماجستير فأن زدت شيئاً فهو الخرج من الأمور الخاصة بمحمد عليه السلام إلى الأمور العامة والخاصة به وبغيره من الرسل والأنبياء والشىء الذى اعتبره جديداً نوعاً ما فى هذا الفصل هو الحديث عن المعانى الخلقية وما يستتبعها من تلك اللغات الخاطئة التى صور بها القرآن بعض العادات .

ولعل أوضح الأمور فيما يتعلق بالمعانى الدينية التى وردت صور عنها فى القصص القرآنى هى الأمور المتعلقة بالآلهة ثم بالرسل والمعجزات وهذا هو الأمر الذى يمشى مع طبيعة الدعوة الإسلامية فى ذلك الوقت ويجرى مع طبائع الأشياء .

ذلك لأن أكثر القصص القرآنى مكى . وفى مكة لم تتجه الدعوة إلى غير المسائل الكبرى من قضايا الأديان ومن هنا كانت الوحدة التى عبر عنها القرآن حين قال « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، ومن هنا أيضاً كان التشابه بين اليهودية والمسيحية والإسلام .

على أن للسألة وجها آخر هو أن القصص القرآني كان يعنى العناية كلها بأمر المخالفين في أمر الدعوة والمعارضين للنبي عليه السلام ولذا كان القصص يوجه الحديث التوجيهات التي تشرح هذه الأمور وتقرها في الأذهان. وإذا كانت هذه الأمور المتنازع عليها خاصة بالوحدانية والبعث والرسالة كانت هي الواضحة كل الوضوح في قصص القرآن .

ثم إن أمور الدين الإسلامي نفسه كانت أشبه بالتنظيمات الداخلية التي يقوم بها الفرد بعد أن يعتنق الدين الجديد ويدخل في حظيرة الاسلام وأمثال هؤلاء لا يثيرون جدلا ولا يقيمون الصعاب .

على أني استغفر الله وأستثني شيئا هو تلك العادات الخلقية التي كانت قد استقرت وعظم شأنها بحيث لم يقدر الفرد عن التخلي عنها بمجرد دخوله في حظيرة الدين والإيمان . وتلك كبخس الناس أشياءهم وتطقيف الكيل والميزان . ومن هنا تعرض لها القرآن أيضا وإن نالها على أنها من الاخلاق العامة إذ تعرض لها في قصة شعيب عليه السلام .

ونبدأ من قضايا الدين هذه بالحديث عن التدين .

والتدين في حس القرآن غريزة انسانية فهي فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعملون . وهي من هنا عامة وخالدة يستوى فيها الناس جميعا وسواء في ذلك المتحضر منهم والباد .

وتتصف هذه الغريزة أو تلك الفطرة بإسنادها قدرة عظيمة وقوى قاهرة إلى موجودات وكائنات والغريب أن هذه القدرة قد تسند لغير الله

فتسند للأصنام وتسند لغيرها من الآلهة التي يعبدوها الوثني في مختلف الأديان ومن هنا قدروها فعبدوها وأخافوا الأنبياء من غضبها وانتقامها .

عبد قوم عاد اسماء سموها وعبد قوم إبراهيم آلهة صنعوها بأيديهم . وقال الله في حق الأولين من سورة الأعراف « قالوا أجبنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . » وقال في حق الآخرين من سورة العنكبوت « إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا . » كما قال متعجباً في الصافات « أفتعبدون ما تنحتون . . »

وإذا كانت الآلهة تعبد أتقاء غضبها أو رجاء خيرها فذلك هو الذي كان بين الآلهة وهؤلاء فقد أخافوا الأنبياء من شرها وقد أحبوها جهنم لله .

أخاف قوم إبراهيم وإبراهيم فيما ذكر القرآن : « وحاجته قومه قال أتحتجونني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . »

واعتقد قوم عاد أن آلهتهم قد مسّت هوداً بسوء . قال تعالى : « قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن لك بمؤمنين إن تقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون . »

وقامت مودة بين قوم إبراهيم والأوثان ، واتخذ غيرهم أوثاناً يحبونها كحب الله وإن يكن الذين آمنوا أشد حبا لله . قال تعالى : « وقال إنما

اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً . وقال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله » .

ومن هنا اتجه القرآن الى ما في عقلية هؤلاء من تناقض ظاهر بين الصورة النفسية للآلهة والواقع العملي الذي يحس ويشاهد . اتجه الى أن الأسباب التي تعبد من أجلها الآلهة وتحب غير متوفرة في هؤلاء . اتجه الى كل هذه الأشياء وصورها ، ووضع صورها بين أيدي هؤلاء الأقوام ليلبسوا بأيديهم ويحسّسوا بأبصارهم وبصائرهم أنهم في غفلة وضلال ، وأنه كيف يصح في شرعة العقل أن يعبد إنسان ما خلقه الوهم وصنعه الخيال ، فيعبد أسماء أو أن يعبد ما يصنع بيديه فيعبد ما ينتجت .

ولعل أوضح المثل في كل هذا ، هو ما ورد في قصص إبراهيم عليه السلام . قال تعالى في سورة الشعراء : « واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحييني والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » . وقال في سورة الأنبياء : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين وتا الله

لَا كِيدَنَ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ فُجِعْلَهُمْ جَزَاءً إِلَّا كَبِيرَ آلِهِمْ لَعْلَهُمْ
إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مِنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعْلَهُمْ يَشْهَدُونَ .
قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ
إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ
نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءُ يَنْطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

كما قال في حق المعاصرين للنبي عليه السلام قال تعالى : « هو الذي
خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت
حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن
من الشاكرين فلما آتاهاما صالحاً جعلنا له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما
يشركون أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم . نصر
أولاً أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم
أدعوتهم أم أنتم صامتون إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم
فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد
يبيطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذن يسمعون بها قل ادعوا
شركاءكم ثم كيّدون فلا تنظرون أن وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى
الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون
وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون . »

وكل الذي أراده القرآن من وضع هذه الصور هو أن يفهموا حقيقة هذه

الآلهه وأنها لا تنفع ولا تضر إذ عند ذلآ ينصرف الانسان عن عبادتها
ويبحث له عن معبود سواها .

هذه الصورة النفسية للآلهة أو تلك الظواهر التى يسند لها خلق التدين
للقوى القويه القاهره يردها القرآن إلى إله واحد هو الله بذلك تحدث
الرسل إلى أقوامهم وبهذا جاءت الأديان فيقول كل واحد من الرسل لقومه في
قصص سورة الأعراف « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ويقول كثير
من الأقوام لرسولهم « أجبنا لنعبد الله وحده » .

ساو بنزه القصص القرآنى الآله الواحد عن كل نقص كما ينزهه عن أن
يتخذ الشريك والولد سبحانه الله عما يصفون رب العرش العظيم « ما كان
الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » ، وقل
أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهذى إلى
الرشد فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة
ولا ولدا وأنه كان يقول سفيها على الله شططا . »

وتلك الصورة التى يريد القرآن أن يقرها من هذا الجانب هى الصورة
الواردة فى قوله تعالى « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفوا أحد »

✓ وإذا كان الانسان يعبد الآلهة للضرر والنفع كان لابد له من تنظيم
الصلات بينه وبينها كما كان لابد له من نوع من فروض الطاعة والمحبة
يتجلى فى الفرائض الدينية وما يقدمه أحيانا من ضحايا وقرابين .

على أن القصص القرآنى قد أهمل هذا الجزء الأخير إلا فى النادر
القليل كما هو الحال فى قصة ابراهيم وإسماعيل حين رأى فى المنام أمر به بذبح
ابنه وحين هم بفعلته استجابة لنداء ربه لولا تلك الفدية التى أرسلها ربه وهى

الذبح العظيم . وهذه القصة واردة في سورة الصافات قال تعالى « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم » ومن هنا سنقصر حديثنا عن تلك الصلوات التي يستطيع الانسان بمقتضاها أن يعرف أوامر ربه ونواهيه يقوم بها ابتغاء مرضاته يرجو جلب النفع ودفع الضر وتيسير كل شاق عسير .

والقرآن يصور لنا من هذا الجانب اتجاهات بعضها يقوم على الأمور الحسية كإجالة الاقداح والاستقام بالازلام وتلك لم ترد في القصص القرآني وإن وردت في بعض المواطن الخاصة بالمعاصرين للنبي عليه السلام .

وبعض آخر يقوم على صلة بين بين . إذ يتصل فيها السكهان والعرافون بالأرواح الخفية وهذه بدورها تطلعهم على أخبار السماء . وذلك اتجاه حاربه القرآن في مواطن كثيرة وورد منه في القصص القرآني آيات في سورة الجن قال تعالى « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نعدم منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهبا رصدا » .

ويظهر أن هذه العقيدة وردت في هذه القصة ليكون حديث الجن عن نفسها أبعد نفاذا وأقوى أثرا .

ويبقى بعد ذلك اتجاه واحد هو اختيار واحد من البشر ليكون الرسول س ويظهر أن العقيدة الأولى وهي عقيدة الأرواح الخفية كانت أقوى من ذلك وأشد إذ الذي يلاحظ في القصص القرآني أن أكثر الأقوام كانوا

يقولون كرسلم لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين .
وإذا كان قد سبق لنا الحديث عن بشرية الرسل من الوجهة الاجتماعية
فأنا نقصر الحديث عنهم هنا من حيث تلقى الأديان لتوصيلها إلى الخلق
ودعوتهم إلى الإيمان بها .

والإله الواحد هو الذى يستأثر بعلم الغيب ولا يطلع على هذا الغيب
أحد إلا من ارتضى من رسول . وهو يصطفى هذا الرسول ليطلع البشرية
على الغيب ويرسم لها طريق الوصول إلى المستقبل السعيد . قال تعالى « ولكن
الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .
وإلقاء هذه المعرفة فى نفس الرسول أو إطلاعها على ما فى الغيب
يختلف باختلاف الظروف والمناسبات فترى منه نوعاً يأخذ صورة الرؤيا
الصادقة وذلك يمثله ما حدث لإبراهيم ويوسف عليهم السلام يقول الله تعالى
فى حق الأول « فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إني أرى فى المنام أنى
اذبحك » وهى القصة التى سبقت فى هذا الفصل .

ويقول فى حق الثانى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد
عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص
رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين .
وكذلك يجتدك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى
أبوك من قبل إبراهيم وإسماعيل إن ربك عليم حكيم » .

ونرى منه نوعاً آخر يعتمد على التكليم . يقول الله تعالى بصدد الحديث
عن الرسل فى حق موسى : « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً
لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً » . وقال : « قال يا موسى إني اصفيتك
على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » .

ثم هنالك غير هذين ، هناك ذلك اللون الذى يرسل فيه الإله ملكاً فيتمثل للمرسل إليه بشراً ويلقى إليه ما أمره به الله . يقول الله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » . كما قال فى قصه إبراهيم عليه السلام : « وهل أتاك حديث ضيف إبراهيم المسكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقرب به إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام حليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم » .

وهنا شيء لا بدّ من التنبيه عليه ، هو أن هذه الأرواح الخفية كانت تختلط فى ذهن العربى فلا يعرفها إلا بآثارها ، وكان يعتقد أن الملائكة تأتى بالخير وأن الشياطين تأتى بما يسوء ، ومن هنا كانوا يعتقدون أن الشياطين هى التى تنزل على محمد ، وإلا لما كان منه خروج على الجماعة ولما كان منه سب للآلهة .

والواضح من القرآن أن الشياطين كانت تسمع أخبار السماء ، وأنها منعت من أجل النبى عليه الصلاة والسلام . وسبق أن شرحنا هذه العقيدة فى فصل (المعانى التاريخية) ، وهو الفصل الأول من هذا الباب .

ويبقى بعد ذلك لون آخر ، هو إلقاء المعانى المرادة فى ذهن الرسول ، وذلك هو الأمر الذى حدث مع كل الرسل والأنبياء ، حدث لنوح وإبراهيم

وحدث لهود وصالح وشعيب ، وحدث لغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ويحمل القرآن معظم هذه الحالات في قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم » .

وهنا نعود مرة ثانية الى الحديث عن الأرواح الخفية ، التي تنقل الى الناس أخبار السماء . إذ ما العمل ما دام هؤلاء القوم يسلمون بوقوف الشياطين على تلك الأخبار .

هنا أمران : الأول أن الشياطين منعت بعد النبي ، ومن الجائز أن تكون قد منعت في حياة كل واحد من الرسل والأنبياء ، وهذا ما يقول به بعض المفسرين ، وعلى رأسهم الرازي .

الثاني : أن الرسول الذي يأتيه الوحي وتنزل عليه الملائكة لا بد له من معجزة تدل على صدق رسالته وصحة نبوته ، وذلك هو الأمر الذي سنتحدث عنه في الفقرة التالية عند حديثنا عن المعجزات ، غير أني قبل أن أبدأ الحديث عنها أريد أن أذكر شيئاً هو الحديث عن تلك العقيدة التي كانت شائعة معروفة في الجزيرة العربية قبل مبعث الرسول عليه السلام .

قلنا إن التدين يرمي الى جلب النفع ودفع الضرر من الآلهة ، حتى ولو كانت أوثاناً ، ونقول إن الأمر الذي يبنى على هذا هو أن الشعب الذي يمين الله عليه بالفضل ، فيختار واحداً من أبنائه ليكون الرسول ، هو الشعب الذي يعتقد بنفسه الفضل ، وأنه محل الرعاية والعناية .

ولقد كان الشعب الإسرائيلي يؤمن بهذا ، ويذيع ذلك في الجزيرة العربية ، ولقد كان لكل ذلك أثره في حياة اليهود في الجزيرة في حياة النبي والإسلام ، وصوّر القرآن عقيدتهم تلك حين ذهبوا الى أنهم أبناء الله وأحياءه ، وحين قال موسى لهم : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤتى أحدا من العالمين » .

ولكن القرآن حارب هذه العقيدة ، ومضى الى العكس منها ، وذهب الى أن الرسالة لا تخص شعباً دون شعب ، ولا أمة دون أمة ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . قال تعالى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال تعالى « ولعل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

فالقرآن كما ترى يجعل الرسالة ظاهرة دينية واجتماعية لا تخص بأمة بدون أمة ولا يستأثر بها شعب دون آخر وهذا هو الأمر الذي شرحناه بتفصيل عند حديثنا عن المعاني الاجتماعية .

وتبدأ الآن بالحديث عن المعجزات فنقول .

جاء القرآن والقوم يذهبون في الغالب مذهبين . الأول أن الرسول لابد وأن يكون من الملائكة وذلك هو الرأي الذي صورنا أن القرآن يجري على خلافه عند حديثنا عن المعاني الاجتماعية من أن الرسول يكون من الجماعه ويكون من الذين عرفوا آمالها وأحسوا آلامها فهو أخو القوم المتحدث بلسانهم .

الثاني أن الرسول من البشر لكنه يؤيد دائماً بمعجزة ومن هنا كانوا يقفون دائماً في وجه الأنبياء يطالبونهم بالآيات أو البينة .

وموقف القرآن هنا موقف من لا ينكر أمر المعجزة لكنه ينكر أن
يتوقف الإيمان عليها أو يتعلق بها ولذا نراه يذكر المعجزات التي عرفت لمن
سبق النبي عليه السلام من الرسل فيذكر معجزات موسى وعيسى كما يذكر
ناقة صالح وإلقاء إبراهيم في النار .

لكنه في الوقت نفسه يرى ألا تعاق لهذه بتلك فالآيات لم تأت دائما لتكون
✓ الدليل وإنما جاءت تخويفا وانذارا ومن هنا أصبحت قليلة النفع عديمة
الفائدة . يقول الله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها
الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا
تخويفا . »

والآيات قد تأتي الواحدة بعد الأخرى ومع ذلك لا يكون إيمان ولا
ينفع مع المعارضة أى دليل . قال تعالى « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم
الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن
أكثرهم يجهلون »

وقد فطن الطبري الى ذلك فقال عند تفسيره لهذه الآية « يقول تعالى
ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يا محمد آيس من فلاح هؤلاء العادلين بربهم
الأوثان والأصنام القائلين لك لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك فإننا لو نزلنا إليهم
الملائكة حتى يروها عيانا وكلمهم الموتى بأحيائنا إياهم حجة لك ودلالة على
نبوتك وأخبروهم أنك محق فيما تقول وأن ما جئتهم به حق من عند الله
وحشرنا عليهم كل شيء قبلا فجعلناهم لك قبلا ما آمنوا ولا صدقوك
ولا اتبعوك إلا أن يشاء الله لمن شاء منهم ولكن أكثرهم يجهلون يقول
ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك يحسبون أن الإيمان

أليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا ومتى شاءوا كفروا وليس ذلك كذلك ذلك بيدى لا يؤمن منهم الا من هديته له فوفقته ولا يكفر الا من خذلته عن الرشد فأضلته (١) .

ونستطيع أن نكتفى بهذا القدر عن المعانى الدينية وقد كانت هذه الأمور الوجدانية والرسالة والمعجزات أهم المشا كل إلى غنى بها القصص وأكثر من الحديث عنها : كما أن التوجيهات الدينية عن كثير من هذه المسائل قد تقدمت فى فصل الحديث عن الأسس النفسية والاجتماعية وسيأتى عنها حديث آخر فى الفصول المقبلة خاصة عند حديثنا عن عنصر الحوار فى القصص .

ثم هناك سبب آخر اعتقده وجبها هو أن أكثر هذه الموضوعات قد قتلت بحثا فى الثقافة الاسلامية كما أنى قد عرضت لها فى رساله الماجستير ومن هنا اعتقد أن الابتكار فى هذه الاشياء ليس بالأمر المنتظر ويكفى فى التوجيهات ما ذكرت .

وننتقل الآن الى الحديث عن المعانى الاخلاقية .

وللقصص القرآنى طرق خاصة فى تصوير الأشياء الخلقية . فهو مرة يعتمد إلى النهى الصريح وذلك فى حالات منها أن يكون المنهى عنه من الأمور العادية التى تركزت فى البيئة فأصبحت من العادات الاجتماعية المرذولة وذلك كتطيف الكمل فقد نهى القرآن عن هذه العادة القبيحة المرذولة فى قصة من قصص شعيب .

ومنها تلك الأمور التي يقوم بها الناس ترضيه لعاطفه أو استجابة لرغبه
وذلك كقعودهم بكل صراط يصدون عن سبيل الله من آمن وتلك تكررت
في كثير من القصص ووردت أيضاً في قصة شعيب .

ويمثل النوعين من النهى قصة شعيب في الأعراف . قال تعالى « وإلى
مدين أخاهم شعبياً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم
بينه من ربكم فأوفوا السكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم
ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين
ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها
عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وأنظروا كيف كان عاقبة
المفسدين » .

وهو مرة يعتمد الى التعجب أو إلى الاستفهام الإنكارى وذلك أيضاً
قد يكون في العادات القبيحة المرذولة التي استقرت في البيئة وأصبحت
خلقاً عاماً وذلك كإتيان الذكران من العالمين في كل قصة ورد فيها اسم لوط .
قال الله تعالى « ولوطاً إذ قال لقومه أإنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد
من العالمين أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » .

ثم هناك الطريقة العرضية التي يعرض فيها القرآن أخلاق بعض
الجماعات أو أخلاق بيئة من البيئات وذلك يكثر في الفصص الذي
سنقول عنه في المستقبل أنه لا يقصد شيئاً معيناً وأكثر ما يكون هذا

اللون في قصص موسى عليه السلام إذ في ذلك القصص نجد تصويراً
لأخلاق اليهود كما نجد بعض لفتات لأخلاق المصريين .

ولا نستطيع أن نقول هنا بأن هذا كان تصويراً للواقع في جملة
وتفصيله فقد يكون التعبير الأدبي عن حالات بعينها هو الذي أدى إلى مثل
هذه المعاني الخلقية . ومن هنا نريد أن نلتزم في هذا اللون ما التزمناه سابقاً
في الحديث عن المعاني التاريخية حيث انتهينا إلى القول بتلك الحرية الفنية التي تدفع
بالأديب إلى أن يلاحظ الواقع النفسي أكثر من ملاحظته لصدق القضايا
وصحتها لأن المسألة قد تكون مسألة حرب أعصاب لا أكثر ولا أقل
ولعل هذا هو الذي يلاحظ فيما يخص اليهود . فقد كان القرآن ينزل على النبي
وفيه هجوم عنيف على اليهود خاصة في العهد المدني .

وأول الأشياء التي تؤخذ على اليهود عدم الوفاء بالعهد . فقد كانوا
ينقضون الأيمان بعد توكيدها . وقد كانوا ينسكثون في كثير من الأمور
التي اتفقوا عليها مع موسى عليه السلام . قال الله تعالى « ولقد أنزلنا إليك
آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق
منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم
نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم
لا يعلمون » . وقال تعالى بصدد الحديث عن خلقهم أيضاً « ومن أهل
الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده
إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل
ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بل من أو في بعهدته واتي فان الله
يحب المتقين إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق

لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم وإن منهم لفريقا يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

م وكذلك صنع القرآن مع المصريين فقد صورهم على أنهم قوم ينكثون ما عاهدوا الله عليه . قال الله تعالى « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون فانتقمنا منهم فاغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين »

كما رماهم بالخفة والطيش في اتباع فرعون وعبادته . قال تعالى في سورة الزخرف « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك أننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذى هوميهن ولا يكاد يبين فلو لا ألقى عليه اسوره من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فاطاعوه أنهم كانوا قوما فاسقين . »

وقبل أن تنتهى من الحديث عن المعانى الخلقية نلفت الذهن الى ما قلناه فى الفصل السابق عن أثر الاقتصاد فى المعارضة إذ نجد هناك بعض الأشياء

التي نستطيع أن نسميها أخلاقا دفعت إليها الحالة الاقتصادية وذلك كالكبر والعناد بالنسبة للأغنياء والخضوع بالنسبة للفقراء حتى لقد كان الأغنياء يزدرونهم .

وعلى الجملة فالجوانب الخلقية في القصص القرآني ليست بالكثيرة ولعل أهمها هو الذي صورناه هنا بحيث لا نستطيع القول بأننا قد تركنا منها أمرا له قيمة .

ولا يسعني في ختام هذا الفصل الا أن أعتذر عن التقصير الذي دفع اليه كتابتي لهذا الفصل سابقا في رسالة أخرى . ولأن مواد هذا الفصل بالذات قد اشبعها القدماء بحثا ودرسا .

الباب الثاني

الفن
في القصة القرآنية



الفصل الأول

لعمري القصة ؟ وهل في القرآن قصة فنية ؟

ونحاول أن نقف على تلك الصورة التي كان يتصور بها الأقدمون من علماء البلاغة والنقد الأدبي القصة الفنية فنعجز . ويرجع هذا العجز إلى أن هؤلاء العلماء لم يلتفتوا إلى هذه القصة على أنها لون من ألوان الفنون والآداب فضلا عن الوقوف عندها لبحثها ودرسها وتقعيد قواعدها ومن هنا جاءت كتبهم خالية من أي حديث عن القصة حتى ذلك الحديث الذي يحددها ويعرف بها .

نعم نحن لا نستطيع أن ننكر أن من مسائل البيان ما يمكن الإعتماد عليه في شرح وتفسير العناصر القصصية والظواهر الأدبية في القصة الفنية وذلك من أمثال مسائل التوسع والازم والتمثيل فإن المسألة الأولى يمكن الإعتماد عليها في شرح وتفسير عنصر الحوار الفني والثانية يمكن الإعتماد عليها في الحديث عن الأحداث القصصية وبيان مدى صلتها بالحق والواقع أو بالعرف والخيال والثالثة يمكن الإعتماد عليها في بيان كيفية استخراج القيم العقلية والتيارات الفكرية من القصة كما يمكن الإعتماد عليها في بيان أن الممثل به لا يلزم أن يكون من الحقائق فقد يكفي فيه بالمشهورات المتداولة وبالفرضيات المتخيلة كما سنرى بوضوح عند حديثنا عن القصة التمثيلية في هذا الفصل إن شاء الله . لا نستطيع أن ننكر شيئا من ذلك بل نستطيع القول بأننا قد اعتمدنا على شيء من ذلك في بحثنا هذا ولكن ذلك كله لا

يثبت أن هذا قد كان من الثقافة الأدبية للقصة الفنية وأنه إنما كان منا لىرضى هذه العقلية الأزهرية التى تجهل الثقافة القصصية ،والتي لا يرضيها من مسائل البيان العربى والنقد الأدبى إلا ما كان قديما أو ما كان متصلا من هذا القديم بسبب .

❧ وعدم وقوف البيانين وعلماء النقد من الأقدمين عند القصة الفنية هو الذى سبب ذلك الإهمال الشنيع لأمر القصة فى بيئتنا الرسمية يذثأت أساتذة اللغة العربية فى المعاهد المختلفة ولعله أن يكون من العجب أو من أعجب العجب أن تمضى جامعاتنا المصرية على هذه السنه فتهمل شأن القصة وشأن الثقافة الفنية القصصية حتى وقتنا هذا مع اعتراف جميع الدارسين للآداب والفنون بأن القصة الفنية أقوى ألوان الفنون تأثيرا وأكثرها ذيوعا وانتشارا .ومن يدرى فلعل هذا الإهمال هو الذى سبب هذه الثورة الأزهرية وتلك المعارضة الجامعية لرسالة الفن القصصى لأن الإهمال يدفع إلى الجهل والجهل يدفع إلى العدا . « ومن جهل شيئا عاداه . »

وعدم وقوف البيانين عند القصة لايبنى أن غيرهم لم يقف عندها فنحن نعلم أن هناك وقفات من المفسرين وعلماء اللغة .

س أما علماء اللغة فقد اكتفوا من الحديث عن القصة بتحديدات مبهمه وتعريفات ناقصه بل هم اكتفوا بما يستثيره لفظ قصة فى الذهن من معنى وذلك ليس بالغريب عليهم فيما نرى فشأن علماء اللغة وبخاصة من هم من أبناء العربية أن يذكروا لنا معانى الألفاظ أو ما تستثيره الألفاظ فى الأذهان من صور وليس من شأنهم أن يذكروا الحدود الفنية والتعريفات العلية وما يتبع ذلك من حديث تام شامل عندما تكون الألفاظ من المصطلحات العلية أو الفنية .

والمعاني التي وقف عندها علماء اللغة عند حديثهم عن مادة «ق ص ص»
كثيره ولعل أقربها إلى ما نحن بصدد من حديث أدبي مارواه اللغويون
عن الأزهرى وعن الميث . يقول الأول . القص فعل القاص إذ قص
القصص والقصة معروفه .

ويقول الثانى . القص اتباع الأثر ويقال خرج فلان قصصاً فى أثر فلان
وقصا وذلك إذا اقتص أثره وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرا
بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً (١) .

أما فى كتب التفسير فتخطو المسألة خطوة إلى الأمام ذلك لأنهم ينظرون
إلى المسألة باعتبارين . اعتبار لغوى يعتمدون فيه على ذلك الحصيل اللغوى
الذى صورنا لك طرفاً منه . واعتبار دينى ينظرون فيه من وجهة نظر خاصه
هى قصد القرآن الكريم من قصصه أو أهدافه التى يرى إليها . وإذا
حاولنا اختيار واحد من المفسرين يمثل الاعتبارين ويقترّب إلى حد ما من
الميدان الأدبى فسنختار الرازى .

يقول رحمه الله عند تفسيره للآية « نحن نقص عليك أحسن القصص
بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ما يأتى « المسألة
الثانية . القصص إتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله فى اللغة المتابعة قال تعالى
وقالت لاخته قصيه أى أتبعى أثره . وقال تعالى فارتدا على آثارهما قصصا
أى إتباعا وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك
القصة شيئاً فشيئاً » (٢)

(١) مادة قصص فى كل من اللسان والقاموس ومفردات الراغب والنهاية

(٢) التفسير الكبير ج ٢ ص ١٨١

وهو قول يدل على أن الرازى يحاول التقريب بين المعنى اللغوى والأصطلاح الأدبى وذلك حين يربط بين الاثنين باستعماله لفظ الحكاية وإطلاقه لفظ القصة عليها .

ويقول أيضا عند تفسيره لقوله تعالى : « إن هذا لهو القصص الحق ... الخ ما يلى والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهتدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة » (١)

وهو قول يشرح معنى القصص شرحا دينيا والرازى بهذا القول يدخل الميدان الأدبى أو يقترب منه وذلك لأن القصة الدينية ليست إلانونا من ألوان القصص الأدبى .

ونحن مع احترامنا لكل من اللغويين والمفسرين لا نستطيع ونحن ندرس القصص الفنى أن نقف عند هذه الحدود ذلك لأننا حين نذكر لفظ قصه إنما نقصد شيئا آخر أهم من متابعة الخبر أو الحديث . نقصد ذلك العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود ولكن الأحداث التى دارت حوله فى القصه لم تقع أو وقعت للبطل ولكنها نظمت فى القصه على أساس فنى بلاغى فقدم بعضها وأخر آخر وذكر بعضها وحذف آخر أو أضيف إلى الواقع بعض لم يقع أو بولغ فى التصوير إلى الحد الذى يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ويجعلها من الأشخاص الخياليين .

ذلك هو الذى نقصده عندما نذكر لفظة قصه فى الميدان الأدبى وهو

الذى نقصد إليه من درسنا للقصص الفنى فى القرآن الكريم ومن هنا يجب علينا أن نقف لتبحث عن ذلك القصد الأدبى أو الفنى من قصص القرآن الكريم فهل وجد ذلك القصد أو لم يوجد؟ وبعبارة أخرى هل قصد القرآن من قصصه إلى ما يقصد إليه الأدباء من التأثير الوجدانى واستثارة العاطفة والخيال أو قصد إلى التأثير العقلى وإقامة الدليل والبرهان؟

لا أريد فى هذا الموقف أن أملى عليك رأيا بعينه وإنما أريد أن نستعرض سويا بعض الأفاقيص القرآنية لنرى رأينا فيها من حيث ذلك القصد الفنى وسأحرص فى هذا العرض أن تكون هذه الأفاقيص فى مجموعات كل واحدة منها تمثل لونا من ألوان القصص الفنى وسنكتفى فى هذا العرض بالألوان التالية .

(١) اللون التاريخى ونقصد منه فى هذا الموقف ذلك اللون الذى يدور حول الشخصيات التاريخية من أمثال الأنبياء والمرسلين والذى يعتقد الأقدمون أن الأحداث القصصية فيه هى الأحداث التاريخية .

(٢) اللون التمثيلى ونقصد منه فى هذا الموقف ذلك اللون الذى يرى بعض الأقدمين أن الأحداث فيه ليست إلا الأحداث التى يقصد منها إلى البيان والإيضاح أو إلى الشرح والتفسير والذى لا يلزم فيه أن تكون أحداثه من الحقائق فقد يكتفى فيه بالفرضيات والتمثيلات على حد تعبير الأقدمين .

(٣) اللون الأسطورى وهو الذى تبنى فيه القصة على أسطوره من الأساطير والذى يقصد منه فى الغالب إلى تحقيق غاية عليية أو تفسير ظاهرة وجودية أو شرح مسألة قد أستعصت على العقل . والعنصر الأسطورى فى

هذه الأفاقيص لا يقصد لذاته وإنما يتخذ كما سنرى بعد لحظات على أنه الوسيلة والأداة .

ونستطيع أن نبدأ الآن بذلك اللون الذى يسلم الجميع بوجوده فى القرآن الكريم وهو اللون التاريخي .

(١) القصة التاريخية

ولن نقف هنا عند طبيعة الأحداث الواردة فى هذا اللون من القصص من حيث وقوعها أو عدم الوقوع فلذلك محله من فصل خاص بالمواد القصصية وطبيعتها وموقف القرآن الكريم منها . وإنما سنمضى فى هذا الموقف وقد فرضنا أو سلمنا بأن هذه الأحداث قد وقعت حقاً لنرى رأينا فى كيفية صياغة القرآن الكريم لهذه الأحداث وتصويره للأشخاص وهل قصد من وراء كل ذلك إلى العظة والعبرة أو إلى الحقيقة والتاريخ ؟

(١) لنقرأ سوياً هذه القصة . - قال تعالى كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر . . (١)

ولنفكر فسنرى أن القرآن قد تخلّى عن كثير من التفاصيل فلم يذكر عن عاد شيئاً قبل التكذيب وحتى عملية الإرسال نفسها قد تجاوز عنها فلم يذكر عن هود شيئاً وهو الرسول الذى كذبه القوم . كما لم يذكر هنا صفة عاد ولم يتحدث عن بيوتها ومساكنها ولم يذكر لنا شيئاً مما دار بين هود

وقومه من جدل أو حوار . ترك كل هذا وأسرع إلى وصف العذاب .
وهنا صورته صورة أدبية رائعة بالفاظ جزله تهز العاطفة وتستثير الانفعال
وتأخذ مكانها من الأفئدة والألباب فهناك الريح الصرصر وهناك النحس
المستمر وهناك قوة الريح التي تنزع الناس وكأنهم أعجاب نخل منقعر .

فعل القرآن كل هذا لسبب بسيط هو أنه يريد في ذلك العهد أن يثبت
في نفوس المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم الخوف من العذاب ويريد أن
يريه من الصور ما يجعل الخوف قويا عنيفا ومن هنا اختار هذه الصورة
واكتفى بها حتى لا يشغل الذهن عنها بغيرها . وحرص القرآن على أن
يكون العذاب والخوف منه هو النتيجة التي يجب أن تقر في النفس وفي
الغؤاد ومن هنا بدأ القصة بذلك الاستفهام الذي يصوب إلى القلب السهام
فكيف كان عذابي ونذر ؟ وختمها أيضا بنفس الاستفهام وكأنه يريد أن
يصيب من الناس المقاتل .

وحرص القرآن في هذه السورة وبعد عرضه لسكل قصة من قصصها
أن يلفت أهل مكة إلى موقفهم من النبي والقرآن وإلى أن هذا الموقف فيه
ما فيه « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

فعل القرآن كل هذا لأن قصص هذه السورة لم تنزل إلا للإنذار
وللتخويف من العذاب .

وعلى هذا فأنت ترى أن القرآن يختار من المواد الأدبية القصصية ما
يحقق الغرض ويوفى بالقصد وأنه يعرض عما عداه من أحداث وأشخاص
ونفصليات . ومن هنا لا نستطيع أن نقول بأن هذه القصة تقصد إلى تعليم
الوقائع والتعريف بالتاريخ وإن كنا نستطيع أن نقول إنها قصة أدبية
نزلت لقصد عاطفي هو التخويف والإنذار .

ولقد فطن ابن الأثير إلى هذا الصنيع القصصى من القرآن وعلمه تعليلا
أديبا أو بلاغيا أو فنيا حين قال . « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه
أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم
تدميرا . ألا ترى كيف حذف جواب الأمر فى هذه الآية فإن تقديره
فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم
تدميرا فذكر حاشيتى القصه أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصه بطولها
أعنى إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم . » (١)

فإن الأثير كما ترى يعلل الذكر والحذف فى القصه بعلل أدبيه بيانية
ويدلنا على أن القرآن اكتفى فى الذكر بحاشيتى القصه لأنها المقصود
وأعرض عما عداه مما لا يستطيع المؤرخ أن يهمله ولا مجال له فى العدول
عنه لأن التاريخ لا يكون تاريخا إلا به وذلك من مثل ذكر صفة موسى
ونسبه ووقت الإرسال والقصد من إرساله ولمن أرسل وأين وكيف جعل
هارون وزيرا وسببه وما كان بينهما وبين القوم من جدل وحوار... الخ .
✓ عدل القرآن عن كل هذا لسبب بسيط هو أنه يقص للموعظة والعبرة
ولا يؤرخ للأفراد والجماعات أو للأمم والشعوب .

جاء فى المنار بصدد حديثه عن قصة الطوفان من سورة هود ما يلى
« وبيننا أن قصة نوح عليه السلام جاءت فى عدة سور فى كل سورة منها ما
ليس فى سائرهما من ذلك ولهذا لم يذكر فيها من حادثة الطوفان إلا ما فيه العبرة
والموعظة المقصودة بالذات منها فذكرت فى بعضها بآية وفى بعضها بآيتين
فما فوقها من جمع القلة وما فى هذه السورة هو أطولها وأجمعها » (٢) .

(١) المثل السائر ص ٢٠٥

(٢) المنار ج ١٢ ص ١٠١

ونستطيع الآن أن ننتهي من هذه الفقرة إلى القول بأن المقاصد
سوالا غراض هي التي تدفع إلى ذكر بعض الأحداث وحذف بعضها الآخر .
وإلى القول بأن ما يقال أساساً للذكر والحذف عند الأقدمين من مفسرين
وأدباء . هو ما نقول به اليوم أساساً لاختيار الأحداث في القصص
القرآني وإن هذا الاختيار إنما يقوم على الاعتبارات البلاغية الأدبية التي
نردها إلى منطق العاطفة لا إلى منطق النظر العقلي لأن قصايا الأول
وجدانية شعرية وهي التي تليق بهذا الميدان .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذا اللون من قصص القرآن قصص
سأدبي تاريخي يأخذ القرآن مواد القصص فيه من أحداث التاريخ ووقائعه
إسكنه يعرضها عرضاً أدبياً ويسوقها سوقاً عاطفياً يبين المعاني ويؤيد
الأغراض ويؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعا استهوائيا
خطائياً يستثير منها العاطفة والوجدان .

(٢) وأنظر معي في هذه القصص .

قال تعالى : فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل
جئناك بما كانوا فيه يمترون وآتيناك بالحق وإنا لصادقون فاسر بأهلك بقطع
من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون
وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وجاء أهل المدينة
يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تحزون قالوا
أولم نهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين لعمر ك إنهم لفي
سكرتهم يعمهون فاخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم
حجارة من سجيل إن في ذلك لآية للبتوسمين ^(١) .

وقال تعالى : ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيقي أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد قالوا يا لوط إنا نرسل ربك لن بصولنا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبتها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببيعد (١).

ثم أنظر فستجد القصة في سورة هود وهى القصة الثانية جرت على هذا الأساس أو على هذه الطريقة بحجى الملائكة ثم حال لوط واضطرابه النفسى ثم بحجى القوم ثم موقفه منهم وعرضه لبناته حتى لا يخزى فى ضيفه ثم ردهم عليه وعزمهم على المضى فيما جاءوا من أجله ثم موقف الملائكة وإخبارهم لوطا بانهم رسل ربه ونصحهم له بالسرى وإخبارهم له بأن العذاب نازل وأن موعدهم الصبح .

وهكذا تجرى القصة وقد رتبت وقائعها على أساس يشعر بان الزمن هو المحور الذى يربط هذه الوقائع المختاره وتلك الأحداث المنتقاه من حياة لوط عليه السلام . كما تجرى المحاوره بينه وبين قومه على أساس من المنطق النظرى إذ تدور بينه وبين قومه قبل أن يعرف أن ضيفه هم رسل ربه .

وستجد القصه في سورة الحجر تجرى على نسق آخر إذ تعلمه الملائكة أنهم رسل ربه وتنصح له بالسرى وتنبئه بما سيحل بالقريه وأهلها من عذاب قبل أن يجيئه قومه ويكون بينهم وبينه ذلك الحوار .

إن المحاوره في قصة الحجر تدور بينه وبين قومه بعد أن عرف أن ضيفه هم رسل ربه وأنهم لن يصابوا بسوء . ويشعرنا هذا الصنيع بأن تسلسل هذه الأحداث لا يقوم على الترتيب الزمنى ولا على أساس من التسلسل المنطقي الذى كان من الممكن أن يكون ذلك لأن العقل يحيز أن لوطا وقد عرف أن ضيفه هم رسل ربه وأنهم من الملائكة لا يخشى شيئا ولا يخاف عليهم من قومه ومن هنا لا يعرض بناته لأذى أو مكروه . لكن القرآن خالف بين القصتين وجرى على نهجين مختلفين فى البناء والتركيب .

فكر فى الأمر فستجد أن القصد من القصتين مختلف وسنرى أن القرآن قد خالف بينها فى الترتيب ليشعرنا بأن هذه قصه مستقلة وتلك قصة مستقلة وأن ترتيبه للأحداث يختلف لاختلاف المقاصد حتى ولو أدى هذا الاختلاف إلى إهمال أهم مقومات التاريخ وهو الزمان .

✓ إن القصد من قصة لوط فى سورة هود هو تثبيت قلب النبي محمد عليه السلام ومن أجل ذلك عنى القرآن بما ينال لوطا من أذى ومن هنا عنى القرآن بحالته النفسية وقصد إلى أن يبرز عواطفه ويصور أفكاره وهذا هو صنيع القرآن فى كل القصص الذى ورد فى هذه السورة وهو الذى يتلام مع بدنها والختام . فقد قال تعالى فى مفتتح هذه السوره مصورا نفسية محمد عليه السلام « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك الخ » وقال فى الختام « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... الخ » .

وحرص القرآن أيضاً على أن يشعرنا بأن الضيق يجيء للنبي من حرصه على هداية قومه وموقفهم منه . كما صرح بأن السبب في قصص سورة هود إنما هو تثبيت فؤاده ومن هنا كان يعنى بما ينال الرسل من أذى وما يشعرون به من ضيق .

أما القصد من قصة لوط في الحجر فقد كان بيان ما ينزل بالمسكذيين من أذى ومن هنا حرص القرآن على أن يجعل الملائكة تعلن عن نفسها وتخبر لوطاً بما سيحل بالقوم من مصائب وما سينزل عليهم من عذاب . وهذا هو الذى يتلأم وحالة النبي محمد عليه السلام وهو ما صرح به القرآن في ختام سورة الحجر حين قال « فور بك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزين الذين يجعلون مع الله لئها آخر الخ » .

فالحرص على العذاب الذى ينزل بأقوام الرسل هو المقصود من القصة وهو الذى يتلأم مع ذلك القسم الأخير ومع إعلان حماية الله للنبي وطلبه منه أن يعرض عن المشركين وأنه سيكفيه هؤلاء وأنهم سيعملون عاقبة هذا الموقف ومغبة هذا الأمر .

وهكذا تجد أن ترتيب هذه الأحداث يقوم على أساس غايته تحريك العاطفة ويؤدى نتيجة بغيتها من العقول والأفهام . وكل هذا هو ما نطلق عليه اليوم منطق العاطفة والوجدان .

ولقد كان هذا الاختلاف في أسلوب القرآن وطريقه بناء القصص من حيث ترتيب الأحداث محيراً للقدماء حين أشكل الأمر عليهم فذهبوا إلى أن هذه الحادثة في هذا الموطن ليست هى التى ذكرت في ذلك .

جاء في النيسابورى ما يلى « وللمفسرين خلاف فى أن هذا الميقات عين ميقات السلام والرؤية أم غيره . الذاهبون إلى الأول قالوا إن موسى كان أمره ربه أن يأتية فى سبعين من بنى إسرائيل فلما سمعوا السلام طلبوا الرؤية وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهره فأخذتهم الصاعقة وهى المراد من الرجفة فى هذه الآية . والذاهبون إلى الثانى حملوا القصة على ما مر فى البقرة فى تفسير قوله وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك . وقد ذكرنا هنالك أن منهم من قال هذه الواقعة كانت قبل قتل الأنفس توبة من عبادة العجل ومنهم من قال إنها كانت بعد القتل واحتج أصحاب هذا المذهب على المغايرة بأنه تعالى ذكر قصة ميقات السلام وطلب الرؤية ثم اتبعها ذكر قصة العجل ثم ختم الكلام بهذه القصة . فظاهر الحال يقتضى أن تكون هذه القصة مغايرة لتلك وإلا انخرم التناسب . (١) »

فالنيسابورى هنا يصور لنا الخلاف فى الترتيب بين قصتين ويرى أن ظاهر الحال يقتضى أن تكون هذه غير تلك وهو يقول بهذا القول خشية انخرام التناسب ولو فطن النيسابورى إلى أن القرآن هو الذى قصد إلى هذا لما قام عنده ولا عند غيره من المفسرين أمثال هذه المشكلات القصصية فى القرآن .

إن ترتيب الأحداث فى قصة البقرة قام على أساس تذكير اليهود أنفسهم بالنعم التى أنعم الله بها عليهم ليحببهم فى النبي عليه السلام ويدفعهم إلى الدخول فى الاسلام ومن هنا لم يعن القرآن بتفصيل الأحداث ولا بما وقع من المصائب كالقمل والضفادع والدم وغيرها أما ترتيبها فى قصة

الأعراف فيقوم على أساس آخر لم يعن القرآن فيه باليهود ليعظمهم ويذكرهم وإنما عني بالأحداث نفسها ليلقى الرعب في قلوب المشركين من أهل مكة ويدفعهم إلى البعد عن التكذيب والاستكبار ومر هنا سرد الأحداث سردا تفصيليا ودل على ما كان ينزل بهم من العذاب والمصائب دلالة قوية وأظهر عطفه على موسى واختياره له كما أظهر عطف موسى عليه السلام على قومه .

إن المقاصد التي يرمى إليها القرآن هي التي تملئ الأسلوب والطريقة وهي التي من أجلها يسلسل القرآن الأحداث ويربط بينها برباط من العاطفة والوجدان .

محمد بن عبد الله

ولقد كان الأستاذ الإمام رحمه الله سابقا إلى تقرير هذه القاعده القصصيه في ترتيب الأحداث . وهذه بعض النصوص التي توضح ذلك .

جاء في المنار ما يلي : قال الأستاذ الإمام . إن كثيرين من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكرها هنا بعد تلك الوقائع . والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارا في قصص الانبياء والامم الواردة في القرآن وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها وإنما المراد بها الاعتبار والعظه ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها وبيان النقم بعللها لتتق من وجهتها . ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير ، (١)

وجاء فيه أيضا قال الاستاذ الإمام . جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذى لم يسبق إليه ولم يلحق فيه فهو فى هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى فى القصة الواحدة . وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا ويهز النفس للاعتبار هزا وقد راعى فى قصص بنى إسرائيل أنواع المنة التى منحهم الله تعالى إياها وضروب الكفران والفسوق التى قابلوها بها وما كان فى أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات وابتلائهم بالحسنات والسيئات وكيف كانوا يحدثون فى أثر كل عقوبة توبه ويحدث لهم فى أثر كل توبة نعمه ثم يعودون إلى بطرهم وينقلبون إلى كفرهم . (١)

وواضح من تصوص المنار أن الاستاذ الإمام يرى أن ترتيب الأحداث فى القصص القرآنى يرجع إلى اعتبار بلاغى خاص من أجله يقوم العرض على أساس عاطفى وإنه فى ذلك يخالف الأساس الذى يقوم عليه ترتيب الأحداث عند المؤرخين قطعا وهذا هو جوهر ما نقصد إليه حين نقول بأن عرض القرآن لأحداثه القصصية ليس إلا العرض الأدبى العاطفى . ليس إلا العرض الفنى وأن القصص القرآنى فنى .

وهكذا نستطيع أن ننتهى من هذه الفقره إلى القول بأن أحداث التاريخ التى وردت فى القصص القرآنى قد رتبت ترتيبا عاطفيا وبنيت بناء يقصد به تحريك الهمم والنفوس ومعنى ذلك أنها لون من ألوان القصص التاريخى الفنى . وأن العمل فيها فنى يقدر به وازين الفن القولى لابعوازين المؤرخين .

(٣) واقرأ معي أيضا هذه الأقايصص .

قال تعالى « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون وأتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعتدين فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ^(١) .

وقال تعالى « كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتاتون الذكر إن من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته بالوط لتكونن من المخرجين قال إني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ^(٢) . »

ثم انظر فسترى وحدة في التصميم واتفاقاً في البناء والتركيب وإن اختلفت مواد البناء في بعض الأحيان.

(١) الشعراء ١٦٠ - ١٧٥

(٢) الشعراء ١٢٣ - ١٤٠

هذا المطلع في الثانية وذاك المطلع في الأولى متفقان حتى في الألفاظ والتراكيب وحتى في الخروج من الأفراد في الرسل الى الجمع فنحن نعلم ان عادا لم يكن لهما من الرسل غير هود وكذلك الحال مع قوم لوط .

وهذه الخواتيم في القصتين متفقة في الألفاظ والتراكيب .

وهذا الجو العاطفي الذي يسود القصتين من حرص على الهداية من الرسل ذلك الحرص الذي يدفعهم الى الاستعانة ببعض الصفات التي ترقق العاطفة وتذيب القلب من أنه أخوهم ومن أنه الرسول الأمين الذي يبذل النصيح لوجه الله ولا يسألهم أجرا والذي لا يطلب منهم الا أن يتقوا الله ويطيعوه . أما هم فحريصون على المخالفة لا يقبلون النصيح والإرشاد ويصرّون على موقفهم على ما فيه من فساد وضلال . فقوم هود لن يستجيبوا وسواء عليهم أوعظ أم لم يكن من الواعظين وقوم لوط يطلبون اليه أن يكف عن وعظه والا كان من المخرجين .

وهكذا ترى أن الأساس الذي قام عليه بناء القصتين واحد وأن الروح التي تسود القصتين واحدة وان اختلفت العناصر من أحداث وأشخاص وحوار في بعض الأحيان .

إن السر في هذه الوحدة هو أن القصد الذي يرمى اليه القرآن من القصتين واحد وهو ذلك الذي أشار اليه في أول السورة من حرص محمد عليه السلام على هداية قومه ثم من موقفهم منه ذلك الموقف الذي لخصته السورة في الختام .

قال تعالى « طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ان نشاء نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

ولعل هذه الروح هي التي سادت ما ورد في السورة من قصص ومن هنا بنيت بناءً متشابهًا واتفقت في كثير من مواد هذا البناء .

X ونستطيع أن ننتهي من هذه الفقرة إلى القول بأن المنطق العاطفي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن الكريم من حيث الاختيار أو بتعبير الأقدمين من حيث الذكر والحذف وليس هذا فحسب بل هو الذي يسودها من حيث الترتيب أو باصطلاح القدماء من حيث التقديم والتأخير . وليس هذا فحسب بل من حيث التصميم والبناء ومعنى ذلك أن القصص التاريخية في القرآن قصص أدبي أولاً وأخيراً وهكذا يكون معجزة بلاغية قولية تفهم بأضواء الدرس الفني .

هذه الخ زكاه
X (٤) عرضنا عليك في الفقرات السابقة أموراً تدل على أن القصة التاريخية ليست عرضاً تاريخياً تطلب فيه المطابقة الواقعية المحققة للصدق العقلي وإنما هي عرض أدبي يطلب فيه التأثير وقوة الوقع ليتحقق به الصدق الفني أو الأدبي ويكون التوجيه نحو الغاية المستغاة وانهينا إلى أن القصة التاريخية في القرآن قصة أدبية يقصد منها غير ما يقصد من التاريخ وتعرض غير ما يعرض التاريخ وتثبت غير ما يثبت التاريخ وشرحنا كل ذلك شرحاً يعتمدنا فيه على العلاقات التي تقوم بين المواد القصصية المتعددة من حيث اختيار بعض المواد دون بعضها الآخر أو باصطلاح الأقدمين من حيث الذكر والحذف ومن حيث الإيجاز والأطناب . ثم من حيث ترتيب المواد المختارة أو المنتقاه أو بعبارة الأقدمين من حيث التقديم والتأخير وكان كل ذلك في القصة الواحدة . ثم شرحنا بعض ذلك شرحاً يعتمدنا فيه على العلاقات بين القصص المختلفة من حيث التصميم أو الصوغ والتركيب وذلك في القصص التي تختلف عناصرها أو مواد بنائها ولا حظنا

أن كل هذه الأمور توجه على ما يحقق القصد والغرض وأن الذى يسودها هو الجو العاطفى وأن الذى ينظمها هو منطق العاطفة والوجدان وأنها لكل هذا قصة أدبية وعمل فنى رائع معجز .

والآن زيد أن ننظر فى أمر آخر هو موقف القرآن من العنصر القصصى الواحد .

لننظر سويا فى هذه العناصر .

(١) قال الله تعالى « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (١) .

وهو قول يخاطب به القرآن المعاصرين للنبي عليه السلام من أهل الكتاب ويذكر نعمه عليهم وفضله الذى أسبغه فيما مضى لسكنا نلاحظ أنه لم يأت بالصيغ التى تدل على هذه الحقيقة من حيث الزمان فهو يعرض عن الماضى الذى يصور ما حدث لأجدادهم فى زمن موسى وقبله ويصور هذا الحدث بالصيغ التى تدل على الحضور والمشاهدة وكأن الأمر يقع بهم لا بأجدادهم وكأنه يقع بهم الآن .

إنما يفسر هذا الصنيع مانعرفه من العناية الأدبية التى يرمى إليها القرآن والتى هى سر إعجازه والتى تعنى بالتأثير على النفوس فيخرج الكلام وقد ساده ذلك المنطق الذى نسميه بمنطق العاطفة والوجدان .

إن الأسرار التى من أجلها ذكر القرآن هذه النعم التى تفضل الله بها فيما مضى على اليهود وأهل الكتاب هى أن يرقق قلوبهم ويصرفهم إلى الإيمان

بمحمد عليه السلام وأنه من أجل هذا أعرض عن الصيغة الدالة على الحدث والزمان إلى صيغة أخرى تضع المسألة بين أيديهم وتعرضها على أبصارهم بما فيها من حيوية فنيه هي تلك الحيوية التي يعبر عنها في الأدب بالتصوير بالحركات والإشارات .

إن هذه الصورة أقدر على تحريك القلوب وأكثر استثارة للعاطفة والوجدان إنها الصورة التي تبعث في أنفسهم الخشية والخضوع المحجب للواحد الديان .

(ب) قال تعالى « وبرزوا الله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديننا كم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتوني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم . » (١)

هذه آيات تصور موقفا من مواقف الآخرة وتصور نزاعا بين المستضعفين والمستكبرين وبين الشيطان ومتبعيه وهي من حيث الزمان لم تقع بعد ولو كان المنطق العقلي يوجب الأمر للواقع والمطابقة وجب أن تصور هذه الصورة بالصيغ التي تدل على المستقبل لكن القرآن عدل عن هذه الصورة إلى الصورة التي تدل على أنها وقعت فعلا ذلك لأنه عبر عن ذلك بالماضي . وبرزوا . وقال الشيطان . فقال الضعفاء ... الخ فما هو السر ؟ .

إن الوقوف على السر ليس بالعسير ولا الشاق فالقرآن لا يقصد من هذه الصورة أن يعلم الناس شيئا تتعلق به عقيدة ما أو عمل ما سيحدث بين المستضعفين والمستكبرين في الآخرة أو بين هؤلاء وبين الشيطان فيعرفوا منه حقائق ويتعلموا منه معارف يعتقدونها أو يستعملونها إنما يريد أن يصلح نفوسهم بهدايتها إلى ما ينتظرها في العالم الآخر من مؤاخذة ومسئولية ومحكمة وما إلى ذلك وهو يصل إلى هذا من الطريق الأدبي البليغ وما يتبعه من اهتزازات عاطفيه وانفعالات نفسيه .

إنما يقصد القرآن من هذه الصورة أن يبعث الخوف والقلق في نفوس المعاصرين للنبي عليه السلام وأن يصرف المستضعفين عن اتباع المستكبرين والاستماع إليهم وأن يصرف المستكبرين عن الجرى مع الهوى وخلف الشيطان وأنه من أجل ذلك صور هذه المحاوره بصورة الأمر الواقع وجاء لها بصيغة الماضي وأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه يعلم أن المعاصرين للنبي عليه السلام ينكرون البعث الذي هو حق لا بد من وقوعه وأنه يريد أن يسد عليهم المنافذ وأن يضع المسألة موضع الأمر الذي قد وقع ومضى فجاء بالصيغة الدالة على ذلك وهي صيغة الماضي الذي يؤكد وقوع الفعل أو بعبارة حديثه صور هذا المنظر بالصورة التي تدل على الإيهام بالواقع .

إن التعبير بالماضي هنا يدل عقليا على الوقوع قبل زمن الكلام ويدل عاطفيا أو بلاغيا أدبيا أو فنيا على حقيقة الحدث وأنه لا بد كائن ولا مفر فالدلالة الأولى حين تراد يكون ذلك منطق العقل ويحكم عليه بالصدق الخلق والعقل أو قسمه وهو ما ليس من مراد القرآن فلا محل للمؤاخذة به .

وأما المعاني الثانية والدلالة البلاغية حين تراد فيكون ذلك منطق العاطفه

الذى لا يحكم عليه أو معه بصدق أو كذب لأن المراد ليس إفادة الوقوع والتحقق بل إفادة شيء آخر هو التحقق والتأكد .

ولعل الذى يؤكد كل هذا هو ما ذكره سبحانه وتعالى فى الآيه السابقة لهذه آيات المتقدمه فقد قال « ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشاء يذهبكم ويأتى بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز . » (١)

إذ يوجه الخطاب إلى قوم النبى عليه السلام ويصور موقفهم منه ذلك الموقف الذى يدل على أنهم قد بلغوا من العنت إلى نهايه الشوط حتى ليذهبهم ويأتى بخلق جديد .

إن المنطق الذى يسود هذه الصورة هو المنطق الأدبى منطق العاطفه والوجدان ولقد لحظ القدماء من علماء البلاغة العلاقة بين الصور والصيغ وبين أثرهما النفسى والعاطفى جاء فى ابن الأثير بصدده حديثه عن اللوئين من التعبير . عن المستقبل بالماضى وعن الماضى بالمستقبل ما يلى « والفرق بينه وبين الاختبار بالفعل المستقبل عن الماضى أن الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ليسكون السامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذى لم يوجد بعد فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضى عن المستقبل قوله تعالى وكذلك جاء قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وإنا قائل وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى وهما مستقبلا للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الاحوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك

لأن الحشر هو المهم لأن من الناس من يشكره كالفلاسفة وغيرهم ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي . (١)

وواضح أن ابن الأثير يرى أن المنطق الذي يسير هذه الصيغ هو المنطق النفسى لا العقلى هو المنطق البلاغى أى المنطق الأدبى أو الفنى . ولقد كان هذا الصنيع من القرآن محيراً للقراء ذلك لأنهم مع وجود هذا الإيضاح البلاغى لم يفسروا هذه الظاهره على أساس من المنطق الأدبى وإنما فسروها على أساس المنطق العقلى أو المنطق التاريخى ومن هنا وقعوا فى المأزق وعانوا كثيراً من المشكلات . ومن ذلك موقفهم من قصه عيسى فى آخر سورة المائدة وهى قوله تعالى « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فىهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . (٢)

فقد وقفوا عند هذه المحاوره ليفسروها على أساس الدلالة اللغوية والمعانى الأولى فجعلوها من المنطق التاريخى ومن هنا أخذوا يسألون أنفسهم متى وقعت هذه المحاوره فذهب قوم إلى أنها كانت عند رفع عيسى عليه السلام الى السماء وذلك تمثيلاً مع التعبير بصيغة الماضى وذهب آخرون إلى أنها لم تقع بعد وإلى أنها ستكون يوم القيامة بدليل قوله

(١) المثل السائر ص ١٧٣

(٢) المائدة ١١٦ - ١١٨

تعالى بعدها هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم إذ هو وصف ليوم القيامة وذلك واضح في النيسابورى .

والسبب فى هذا أنهم فهموا من الآية المعانى الأولى كما يقول البلاغيون فجعلوها من المنطق العقلى ومن هنا حاولوا معرفة الوقت الذى حدثت أو ستحدث فيه هذه المحاورة بين عيسى عليه السلام والخالق سبحانه وتعالى ولو أنهم ذكروا وجه المسألة وقدروا أن المراد منها المعانى الثانية وهى المعانى الأدبية أو الفنية لوضعوها على أساس من المنطق الأدبى منطق العاطفة والوجدان وبحثوا عن القصد الذى يرمى اليه القرآن وأنه ليس الاخبار بما سيحدث يوم القيامة وإنما توبيخ النصارى الموجودين فى زمن النبى وحضهم على التخلّى عما يتمسكون به من عبادة عيسى عليه السلام .

إن المفسرين لو مضوا فى فهم المسألة على هذا الوجه لما وجدوا فيها شيئاً يسبب هذه المشكلة ويجعلهم يختلفون هذا الاختلاف . ولو فعلوا لما بقى عليهم إلا أن يعللوا لماذا جاءت هذه المحاورة بالصيغة الدالة على الوقوع وهو الأمر اليسير ذلك لأن القرآن يريد أن يأخذ على هؤلاء الطرق ويسد عليهم المسالك ومن هنا وضع المسألة موضع الأمر الواقع المفروغ منه حتى كأنه ليس محلاً للشك فضلاً عن الإنكار وذلك بما يزعم عقيدتهم ويخوفهم من عذاب المنتقم الجبار . ولأنى لا أرى مانعاً فى أن تكون هذه المحاورة مشبهة بالمحاورة السابقة التى دارت بين المستضعفين والمستكبرين وبين المستكبرين والشيطان .

ولأنى لأعتقد أيضاً أن مذهب القرآن فى تصوير مشاهد القيامة أو ما يستبعد وقوعه من المصائب والعذاب يعتمد فى الغالب على هذا الأسلوب أسلوب استعمال الصيغ الدالة على الوقوع ليقضى على ما فى النفس العربية

من شك أو إنكار وهذا هو الواضح من أمثال هذه الآيات . اقتربت الساعة وانشق القمر . أتى أمر الله فلا تستعجلوه .

والذى نريد أن ننتهى إليه هنا هو أن القرآن وهو يعاجز معاجزة أدبية بلاغية كان فى قصصه وما إليه من وسائل التعبير الأدبى إنما يريد المعانى الثانية وأنه من هنا كان الأمر للمنطق الأدبى فى صيغ الأفعال المحددة للزمان وأنه من هنا أيضاً كان يخرج بها عن تلك الدلالة الزمنية التى هى اللزوم للمعانى الأولى إلى الصور الأدبية التى تستثير العاطفة وتهز الوجدان ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها بصدق عادى ولا بكذب عقلى . ومعنى كل هذا أن أسلوب القرآن فى عرض المواد القصصية الجزئية كان أسلوباً أدبياً يخضع لمنطق العاطفة والوجدان .

على أن هذا هو الأسلوب البيانى فى التعبير فالأديب المتفنن يريد وصف رجل بالشجاعة فيتجاوز لذلك ويستعير ويكنى عن ذلك بما يشاء الله أن يكنى ولكل من هذه الألوان صيغته وعباراته وهى كلها صادقة فى تحقيق الغاية الأدبية فى وصف هذا الإنسان بالشجاعة وليست دالة على وقوع شئ من تلك الصور البيانية ولا توصف بصدق ولا كذب

وإذا كان هذا الأمر قد وقع قديماً حينما ذهب بعض الأقدمين إلى أن الاستعارة أو التخيل كذب والكذب لا يجوز وقوعه فى القرآن فقد مضى ذلك الزمن وأصبحنا نرى وقوع الاستعارة والمبالغة واعترف بذلك علماء البيان ومضوا على أن هذه الأشياء البيانية من استعارة وتشبيه وكناية أبلغ من غيرها ومن هنا نراهم يقولون المجاز أبلغ من الحقيقة .

إن المهم فى هذه المسألة كما سنشرح ذلك فى القصة التمثيلية أن يعرف الأسلوب الذى يبنى عليه الأديب عباراته ومتى عرف ذلك له فلا صدق ولا كذب ولا خلافة من وجهه النظر الأدبية والبلاغة :

لقد تقرر أن القرآن انساني العبارة بشرى الأسلوب جاء على سنن العرب في بلاغتها وبيانها فهل بعد ذلك كله يأتي من يقول إن القرآن لا يفهم على هذه القواعد أو تلك الأساليب ؟

إن المسألة في القصة القرآنية هي بعينها مسائل الصور البيانية من مجاز وتشبيه واستعارة وكتابة... الخ وأنها من هنا لا توصف لا بتصديق ولا بتكذيب وإنما هي العرض الأدبي الذي يهز العاطفة ويستثير الوجدان.

(٥) وهنا نعرض عليك صنيع القرآن في العنصر القصصي الواحد حين يختلف وصفه في الأقسام المختلفة التي تدور حول شخصية واحدة فيختلف منها البناء والتركيب وطريقة العرض باختلاف القصد والغرض وظروف البيئة وتقلبات الزمن . اقرأ معي هذه الآيات . —

قال تعالى : وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واطمئ يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى أنريك من آياتنا الكبرى . (١)

ويعلق الزخشرى على هذه الآيات عند تفسيره لها بقوله : فان قلت كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحيه والجان والشعبان . قلت أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأما الشعبان والجان فبينهما تناف لأن الشعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفي ذلك وجهان

أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حية حلا بها تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورم ويزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فأريد بالجان أول حالها . وبالثعبان مآلها . والثاني أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله فلما رآها تهتز كأنها جان وقيل كان لها عرف كعرف الفرس قيل كان بين لحيتها أربعون ذراعا ^(١) :

وقيل أن نفس هذه المسألة ونذلك على ما بيننا وبين صاحب الكشف من خلاف نحب أن نعرض عليك هذا العنصر القصصى الذى ورد بالفاظ مختلفة في سور مختلفة لنصل الى الوجه الحق في تفسير هذه الظاهرة . قال تعالى « قال لئن اتخذت ألها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جنتك بشئ مبين قالى فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناترين قال للبلأ حوله إن هذا لساحر عليم ^(٢) . »

وقال تعالى « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا فلما آتاها نودى من شاطيء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الريب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . . . الخ ^(٣) . »

(١) الكشف ج ٢ ص ٢٢

(٢) الشعراء ٢٩ - ٣٤

(٣) القصص ٢٩ - ٣٣

ونحب هنا أن نلفت الذهن إلى أن الزمخشري قد أبعد حين أدخل قوله تعالى « فإذا هي ثعبان مبين . » في الموضوع . ذلك لأن هذه عنصر آخر فهي تصور موقفا غير ذلك الذي يصور في الموفقين السابقين فمسألة انقلاب العصا ثعبانا كانت بمحضر من فرعون حين طلب البينة من موسى . ومسألة انقلابها حية أو اهتزازها كالجان كانت بين يدي الخالق سبحانه وتعالى وحدثت حين رأى موسى النار بعد إذ سار باهله وهذا يجعل المسألة قابلة للاختلاف في التصوير :

وقد أبعد صاحب الكشف أيضا فيما ذهب إليه من رأى ذلك لأن اختيار الألفاظ لا يقوم إلا على اعتبار بلاغى عاطفى ومن هنا لم يحل الرأى الذى ذهب إليه المشكلة اذ يبقى بعد ذلك . - على فرض الترادف - سؤال ما السر البلاغى في اختيار هذا اللفظ هنا وذلك اللفظ هناك ؟

إن الرأى فيما أعتقد هو أن الصورة التى يرسمها القرآن من سورة القصص صورة يشيع فيها الخوف من كل جانب وهو خوف قاتل وقد كان اللفظ الذى يلائم هذا الخوف ويجعل موسى يفر من الميدان هو أن يحضر اللفظ فى الذهن صورة لشيء مخيف مرعب ومن هنا جاء لفظ الجان وفرق كبير بين الحية وبين الجان . إن الأولى لا تدفع الإنسان إلى أن يولى مدبراً حتماً وإن الذى يدفع الى ذلك حتماً هو الجان .

أما قصة طه فقد نزلت تسليية للنبي عليه السلام وتسريه عنه وإزالة لما بنفسه من هم وقلق ومن هنا قال تعالى فى أول السورة « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ولذا كان عرض المسائل فى هذه القصة عرضاً هيناً لينا يدفع الى النفس الثقة والطمأنينة ويدفع عنها الهم والحزن ومن هنا كانت لفظة الحية أليق بالمقام .

ونستطيع هنا أن نعلل لماذا كانت العصا في سورة الشعراء هي الثعبان المبيت إن الأمر يسير فيما نعتقد فالموقف موقف تحير وطلب بينه ومن هنا كان لا بد للعصا من أن تكون ثعبانا ولا بد للثعبان من أن يكون مبيتا ليسهل الاقتناع .

وهكذا ترى أن العنصر القصصى الواحد يعرض في صور مختلفة مناسبة للسياق ويلحظ فيها القصد والغرض تحقيقاً للنطق العاطفي . ومعنى ذلك أن القرآن يصور التصوير الأدبي لا التصوير التعليمي التاريخي وليس بعد ذلك من دلالة على أن القصة التاريخية في القرآن قصة أدبية .



(٦) على أنا نستطيع أن نمنع في الدلالة على أن القصة التاريخية في القرآن قصة أدبية يعتمد فيها القرآن على تصوير الأحداث كما يعتقدونها المخاطبون وهو الأمر الذي أجاز به بعض القدماء بل رآه بعضهم أمراً لا بد من القول به ليسلم القرآن من المطاعن ويستقيم الأسلوب الأدبي في قصص القرآن الكريم .

اقرأ معي هذه الأجزاء القصصية من سورة الكهف :

(١) قال تعالى من قصة أصحاب الكهف ، وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا أئبوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً فيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب يقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ولا تقولن

لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل
عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين
وازدادوا تسعاً قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به
وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً^(١) .

(ب) وقال تعالى : ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه
ذكراً إنا مكننا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً حتى إذا
بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا
القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً قال أما من ظلم فسوف
نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء
الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس
وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً كذلك وقد أحطنا بما لديه
خبراً ثم أتبع سبباً... الخ^(٢) .

وفكر معى فى صنيع الأقدمين .

أما صنيعهم فى القصة الأولى قصة أصحاب الكهف فأمر هين يسير ذلك
لأن بعضهم قد رأى فيما يروى الطبرى أن القرآن الكريم يصور فى هذه
المسائل التى سئل عنها النبى عليه السلام آراء أهل الكتاب فيها ومن هناك
القرآن يذكر هذه العبارات التى تدل على ذلك من أمثال قوله تعالى قل ربى
أعلم بعدتهم وقل الله أعلم بما لبثوا . ومن هنا أيضاً طلب القرآن إلى النبى
عليه السلام ألا يمارى فيهم ولا يستفتى فيهم أحداً .

(١) الكهف ٢١ - ١٦

(٢) الكهف ٨٣ - ١٨

جاء في الطبري بصدد حديثه عن عدد الفتية ما يلي « قل ربني أعلم بعدتهم يقول عز ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لقائلي هذه الأقوال في عدد الفتية من أصحاب الكهف رجما منهم بالغيب ربني أعلم بعدتهم ما يعلمهم يقول ما يعلم عددهم إلا قليل من خلقه كما حدثنا . . . قوله ولا تستفت فيهم منهم أحدا يقول تعالى ذكره ولا تستفت في عدة الفتية من أصحاب الكهف منهم يعني من أهل الكتاب أحدا لأنهم لا يعلمون عدتهم وإنما يقولون فيهم رجما بالغيب لا يقينا من القول » (١)

وجاء في الطبري بصدد حديثه عن المدة « ولبثوا . . الخ اختلف أهل التأويل في معنى قوله ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا فقال بعضهم ذلك خبرا من الله تعالى ذكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله قل الله أعلم بما لبثوا وقالوا لو كان ذلك خبرا من الله عن قدر لبثهم في الكهف لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه مفهوم وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره . ذكر من قال ذلك ... »

وهكذا ترى أن من الأقدمين من أجاز أن تكون هذه الصور التاريخية صورا لما يعرفه أهل الكتاب عن قصة أصحاب الكهف ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يصور في بعض قصصه اعتقاد المعاصرين أو المخاطبين .

وهذا الرأي هو الذي اعتمد عليه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار في رده على المستشرقين الذين كتبوا مادة أصحاب الكهف من دائرة المعارف الإسلامية فقد قال رحمه الله « الذي ألاحظه أن عبارة دائرة

المعارف الإسلامية كعبارة أكثر المفسرين تعتبر أن قوله تعالى ولبشوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا خبر عن مدة مكث أهل الكهف في كهفهم منذ دخوله إلى أن استيقظوا . ولكني أفهم غير ذلك وأقول إن قوله ولبشوا الخ معمول لقوله سيقولون ثلاثمائة الخ فهو من مقول السائلين وليس خبراً من الله تعالى ولذا أتبع ذلك القول بقوله قل الله أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل .

وعلى ذلك فالقرآن لم ينص على عدد أهل الكهف ولا على المدة التي مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم بل أمر الله رسوله أن يقول عن عندهم ربي أعلم بعدتهم وأن يرد عليهم حين يقولون ولبشوا في كهفهم ... الخ بقوله الله أعلم بما لبشوا وقد ورد هذا القول عن ابن عباس .^(١)

وأعتقد أن السر في هذه المسألة واضح بـين فالقوم يسألون النبي عن العدد وعن المدة وقد جعلوا آراء اليهود مقياساً يقيسون به صدق النبي عليه السلام ولو نزل القرآن بغير هذه الآراء وبخلاف هذا المقياس لكذبوا النبي ولما آمنوا به أو بالقرآن .

إن إخبار القرآن بهذه الآراء هو الدليل على أن الوحي ينزل على النبي عليه السلام من السماء ومن هنا كانت أمثال العبارات السابقة . رجماً بالغيب قل ربي أعلم بعدتهم . قل الله أعلم بما لبشوا . أمراً واجباً إذ لولاها لآمن الناس بأن هذا هو رأى القرآن في المسألة وعندئذ تقوم هذه المشكلات التي أوردها المستشرقون إعتراضاً على القرآن ودافع عن القرآن الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار .

(١) مادة أصحاب الكهف دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية

ليس من شك في أن الله سبحانه وتعالى قد أراد بالعدول عن الاخبار الصحيحة أمرا وليس هذا الأمر فيما نرى إلا صدق النبي عليه السلام والدلالة على أن الوحي ينزل عليه من السماء وأنه هو الذي أخبر النبي عليه السلام عما قاله اليهود للمشركين من قريش .

على أن هذا الأمر الذي أجازته المفسرون فيما يخص قصة أصحاب الكهف يصبح ضرورة من الضرورات الواجبة التصديق في قصة ذي القرنين .

إن صنيع القرآن وموقف بعض المفسرين يكشف عن هذه الظاهرة كشفا واضحا ويدفعنا إلى تفسيرها تفسيراً معقولاً ويجعلنا نجزم بأن صنيع القرآن لم يكن إلا الصنيع الأدبي الذي يقوم على الدلالات التي يعتقدها المخاطب .

جاء في الرازي بصدد حديثه عن قصة ذي القرنين ما يلي : أعلم أن المعنى أنه أراد بلوغ المغرب فاتبع سبيبا يوصله اليه حتى بلغه . أما قوله وجدها تغرب في عين حمئة ففيه مباحث . الأول قرأ ابن عامر وحمزة والسكسائي وأبو بكر عن عاصم في عين حامية بالآلف من غير همزة أي حارة . وعن أبي ذر قال كنت رديف رسول الله صلى عليه وسلم على جبل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تغرب في عين حامية . وهي قراءة ابن مسعود وطلحه وابن عامر والباقون حمئة وهي قراءة ابن عباس .

واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقراً معاوية حامية بالآلف فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير

المؤمنين . ثم وجه الى كعب الاخبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء
وطين كذلك نجده في التوراه .

والحمئة ما فيه ماء وحماة سوداء . وأعلم أنه لا تنافي بين الحمئة والحامية
فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا .

البحث الثاني — أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها
ولا شك أن الشمس في الفلك وأيضاً قال ووجد عندها قوما ومعلوم أن
جلوس قوم في قرب الشمس غير موجودو أيضاً الشمس أكبر من الأرض
بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض .

إذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله تغرب في عين حمئة من وجوه .

الاول — أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده
شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهذه مظلمة وإن لم
تسكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر
إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر .

هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره .

الثاني — أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها فالناظر
إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار ولا شك أن البحار الغربية
قوية السخونة فهي حامية وهي أيضاً حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء
والماء فقوله تغرب في عين حمئة إشارة إلى أن الجانب الغربي من الأرض قد
أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة .

الثالث — قال أهل الاخبار إن الشمس تغيب في عين كثيرة المساء
والحمأة وهذا في غاية البعد وذلك لأننا إذا أرصدنا كسوفاً قريباً فإذا اعتبرناه

ورأينا أن المغريين قالوا حصل هذا السكسوف في أول الليل ورأينا
المشرقين قالوا حصل في أول النهار فعلينا أول الليل عند أهل المغرب هو
أول النهار الثاني عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل
عندنا فهو وقت العصر في بلد ووقت الظهر في بلد آخر ووقت الضحوة في
بلد ثالث ووقت طلوع الشمس في بلد رابع ونصف الليل في بلد خامس
وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقرار والاعتبار وعلمنا أن
الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات كان الذي يقال إنها تغيب في
الطين والحماة كلاماً على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة
فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل الذي ذكرناه (١) .

وواضح من هذا النص أن الرازي يرى أن التأويل في هذه المسألة من
الأمور الضرورية ليرأ كلام الله من أن يكون على خلاف اليقين . كما يرى
ذلك أيضاً كل من النيسابوري وأبي حيان في تفسيرهم لهذه القصة .

ونحن مع اتفاقنا معهم في أن هذا الحديث لا يصور حقائق تاريخية
ومع احترامنا لكل ما ذكروه من تأويل لهذه القصة نختلف وإياهم ونرى
أن المسألة لا تحتاج إلى هذا اللون أو ذلك من التأويل .

إن القرآن لم يصنع هنا إلا ما صنعه في القصة السابقة قصة أصحاب
الكهف من تصويره لما يعرفه أهل الكتاب عن الإسكندر أو ذي القرنين
ولما قاله لوفد قريش ولعل تاريخ المسألة في كتب التفسير يكشف
لنا عن الحل

(١) التفسير الكبير ج ٥ ص ٥٠٥ وما بعدها .

ينتهي الطبرى كما ينتهى صاحب الكشف من بعده إلى أن الشمس
تغرب فى عين ويوفى الطبرى كما يوفى الرنخشرى من بعدىن القراءتىن وىنتهى
المفسران من كل هذا إلى أنه لا مانع من أن تجمع العىن بىن الصفتىن فتكون
حمئة وحاميه ثم يقفان عند هذا الحد ولا يصىران إلى التأويل كما صار إلىه
الرازى . بل هما يرويان الحديث السابق حديث أبى ذر والخبر السابق خبر
كعب الأحبار .

وعلى الجلة فهما يقفان عند الحد الذى وقف عنده الرازى فى المبحث
الأول . ومعنى كل هذا أن هؤلاء لم يأخذوا المسألة على أنها التعبير الأدبى
البلاغى وإنما أخذوها على أنها الحقائق الكونية التاريخية .

إن الرأى الواضح فى هذه المسألة هو أن هؤلاء الأعلام لم يعرفوا ما
عرفه الرازى عن حقيقة الشمس والأرض وبقية الكواكب وأنهم ما كانوا
يعرفون إلا تلك الحقائق المروية عن غروب الشمس وأنهم من أجل ذلك
لم يجدوا ضرورة ملجئة تصرفهم عن هذا الفهم وتضطرم إلى التأويل ،

إن الذى دفع المتأخرىن من أمثال الرازى إلى هذا التأويل إنما هو
الكشف العلوى عن الكون وحقائقه والتارىخ ووقائعه . وإن تارىخ المسألة
فى حياة النبى عليه السلام وموقف المشركىن والىهود منه وتوجههم إلىه
الأسئلة على أن تكون الإجابة كما يعرفون هو الذى يضطرننا إلى أن نذهب
إلى ما ذهبنا إلىه من أن هذه القصة تصور المعارف التاريخية والكونية عند
أهل الكتاب وعند المشركىن من الذىن يعاصرون النبى . وإن تارىخ المسألة
فى كتب التفسىر القديمة كالطبرى والكشاف ووقوفهم عند أمثال هذه
الحقائق التى تروى عن النبى عليه السلام وعن كعب الأحبار تدل على أن
هذا الرأى هو الرأى السائد فى هذا المجال :

ثم إن موقف بعض أعلام التفسير من القصة السابقة قصة أصحاب الكهف ودلائهم على أنها تصور معلومات أهل السكتاب عنهم تؤيد هذا الذى ذهبنا إليه فى قصة ذى القرنين .

إن التأويل كان أمرا ضروريا وواجبا دينيا عند الرازى ومن جاء بعده لأن الكشف العلى هو الذى اضطرهم إلى هذا .

وإن تاريخ المسألة يدل على أننا لا نحتاج إلى مثل هذا التأويل إذا فهمنا القصة على حقيقتها وعرفنا القصد الذى يرمى إليه القرآن وهو أن محمدا عليه السلام نبى وينزل عليه الوحى وأنه الذى أخبره بالاجابة عن تلك الاسئلة التى وجهت إليه من مشركى مكة وأن هذه الاجابة قد وردت كما أخبر اليهود أهل مكة .

وإذا كان القرآن يعرض الامور التاريخية فى بعض الاحيان على هذا الوجه الذى وصفنا من مجيئها مطابقة لاعتقاد المخاطب وأنه الامر الذى يخرجننا من الميدان التاريخى عندما لا يكون القصد البحث عن الحقيقة التاريخية ويدخلنا فى ميدان الادب والبلاغة لأن القصد ليس إلا الإيحاء والتأثير واستثارة العاطفة والوجدان .

إن القصة التاريخية فى هذا اللون قصة أدبية فافى ذلك شك أو جدال .

(٧) وهناك أمور أخرى تدل على أن صنيع القرآن فى قصصه التاريخى ليس إلا الصنيع الأدبى وذلك من أمثال .

(١) اجمع بين العناصر التى باعد بينها الزمن لافى حياة الرسول الواحد كما سبق أن بينا فى أول هذا الفصل عند حديثنا عن الاخبار أو الذكر

والخذف بل في حياة الأمة الواحدة كما بني إسرائيل أو في حياة البشرية كما هو الحال في قصة ابني آدم .

جاء في النيسابورى مايلي « الصفه الرابعة الذى يحدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل . الضمير في يحدونه للذين يتبعونه من بني إسرائيل . ثم إن كان المراد أسلافهم فالوجه أن يراد بالاتباع إعتقاد نبوته من حيث وجدوا نعته في التوراة إذ لا يمكن أن يتبعوه في شرائعه قبل بعثه إلى الخلق ويكون المراد من قوله والإنجيل أنهم يحدون نعتهم مكتوبا عندهم في الإنجيل فمن المحال أن يحدوه في الإنجيل قبل أنزال الإنجيل . وإن كان المراد المعاصرين فالمعنى أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلى من أتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى وأتبع نبي آخر الزمان في شرائعه . »

إذ نلاحظ هنا أن القرآن قد جمع بين عناصر متباعدة من حياة أمة بني إسرائيل في قصة واحدة فهم يحدونه مكتوبا في التوراة ويحدونه مكتوبا في الإنجيل ومطلوب منهم الإيمان به وهو سيأتي بعد مسدة طويلة من الزمن . وكل هذا يقال على فرض أن هذا الخطاب لمن يعاصر موسى عليه السلام .

وعلى فرض أن الخطاب لمعاصري محمد عليه السلام فإن المسألة لا تزال قائمة لأن المعنى كما يقول النيسابورى أنه لا يفوز بهذه الرحمة من بني إسرائيل إلا من أتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى ثم أتبع نبي آخر الزمان في شرائعه وهو بهذا يجمع بين أمور خاطب بها المولى موسى عليه السلام وامتدت إلى زمن محمد عليه السلام .

وجاء في البحر المحيط بصدد حديثه عن قصة ابني آدم مايلي ، وقال الحسن لم يكونا ولدیه وإنما هما أخوان من بني إسرائيل قال لأن القربان إنما كان مشروعا في بني إسرائيل ولم يكن قبل ووهم الحسن في ذلك وقيل عليه كيف يحفل الدفن في بني إسرائيل حتى يقتدى فيه بالغراب .^(١)

وأحب أن نلتفت سويا إلى التعليل وإلى الاعتراض ذلك لأن التعليل يقوم على أساس من تاريخ التشريع وهو أن القربان إنما شرع في بني إسرائيل . أما الاعتراض فيقوم على أساس آخر من تاريخ العادات أو العقل البشرى وهو كيف يظل دفن الميت مجهولا حتى يصل الزمن من آدم إلى بني إسرائيل وحتى يقتدى أبناء إسرائيل في ذلك بالغراب .

لقد تعارضت النظريات وحاول المفسر أن يرجح واحدة ولو فكر تفكيراً بلاغياً أدبياً لوضع المسألة وضعا آخر وفكر فيها على أساس من القريب أن يكون سليما وهو أن القرآن قد جمع بين مواد قصصية متباعدة في الزمن لأنه يقصد التصوير والتمثيل وأنه من أجل ذلك جمع بين تقديم القربان وبين ما ترتب عليه من حسد وما أدى إليه هذا الحسد من قتل ثم من بعث الغراب ليريه كيف يدفن أخاه .

إن المسألة ترجع فيما اعتقد إلى طريقة القرآن في اختيار مواد القصصية وفي عملية الربط بينها تلك العملية التي تقوم على أساس أدبي عاطفي حتى ولو باعد الزمن فيما بينها .

✓ (ب) إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به مراعاة لامور اعتباريه وذلك هو الأمر الذي أجازته كثير من أئمة التفسير .

جاء في الكشف عند تفسيره لقوله تعالى « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله » فإن قلت كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحر والفاعل ابن الفاعل فكيف قالوا إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله . قلت قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . ويجوز أن يضع الله الذكر الحس مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الأرض مهذا (١) .

فصاحب الكشف يحبز هنا أن يضع الله الذكر الحسن على السنة القوم بدلا من الذكر القبيح ويضرب لنا الزمخشري المثل بما قاله القرآن على السنة اليهود خاصا بعيسى عليه السلام وبما قاله القرآن على السنة المشركين خاصا بالخالق سبحانه وتعالى .

وهذا الذى يحيزه الزمخشري فى هذه الآية يحيزه أيضا كل من الرازى والنيسابورى وأبى حيان . بل وقف عنده ابن عطية فيما روى أبو حيان . جاء فى البحر المحیط لأبى حيان ما يلى « ذكر الوجهين الزمخشري ولم يذكر ابن عطية سوى الثانى (٢) . »

وليس من شك فى أن هذه العملية عملية إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به لاعتبارات يراها الخالق جل وعلا تدل على أن القصص القرآنى عرض أدبى للأحداث والأقوال وليس عرضا تاريخيا لها . ومعنى ذلك أن القصة فى القرآن عمل أدبى فى .

(١) الكشف ج ١ ص ٢٨١

(٢) البحر المحیط ج ٣ ص ٣٨٩

١ (ج) إسناده الأحداث لأشخاص بأعيانهم في موطن ثم إسناده نفس الأحداث لغير الأشخاص في موطن آخر وذلك هو الأمر الذي فطن إلى بعض صوره القدماء .

جاء في كتاب درة التنزيل ما يلي « للسائل أن يسأل في هذه القصة عن مسائل أولها قوله في سورة الأعراف قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم ثم قال في سورة الشعراء قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم فأخبر في الأول أن قائل ذلك الملأ من قومه وفي الثانية أن فرعون هو القائل ذلك لملائته وهذا اختلاف ظاهر في الخبرين . » (١)

وهذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في قصة إبراهيم عليه السلام إذ نلاحظ فيها أن البشرى بالغلام والحوار مع الملائكة والعجب من الولادة وإبراهيم شيخ وامرأته عجوز كانت في سورة هود مع امرأة إبراهيم وفي سورة الحجر مع إبراهيم نفسه .

بل نلاحظ في سورة الزاريات أمرا آخر هو أن البشرى بالغلام كانت لإبراهيم وأن الحوار مع الملائكة كان مع زوجته .

وكل هذه الظواهر تدل دلالة قاطعة على أن القرآن يعرض عن الأساليب التاريخية وأنه يعتمد كل الإعتماد على الأساليب الأدبية والوسائل الفنية أو البلاغية .

واعتقد أن ما عرضناه عليك من ظواهر أدبية في القصص القرآني وما فسرناها به من تفسيرات بيانية عاطفية قد جعلك تطمئن إلى ما وصلنا

والآن نستطيع أن نترك ذلك اللون القصصى « القصة التاريخية » من ألوان القصص القرآنى على أنها الصنيع الأدبى الذى يحقق صورة من صور تعريف القصة عند الأدباء .

هذه الصورة هى « القصة » هى ذلك العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تصوير القاص لأحداث وقعت من بطل له وجود لكنها نظمت على أساس أدبى أو عاطفى فقدم بعضها وأخر آخر وحذف بعضها وذكر بعض آخر أو بولغ فى تصويرها إلى الحد الذى يستأثر بعواطف القارئ أو السامع .

وهكذا نستطيع أن نتفق جميعا وألا يشذ واحد فينكر وجود القصة التاريخية الأدبية فى القرآن أو ينكر أن المنطق الأدبى هو الذى يسود القصة التاريخية فى القرآن وإلا عز عليه أن يجد بيانا مقبولا لصنيع القرآن . إن القرآن يجعل القصد من قصصه العظة والعبرة ويصل إليها بالأسلوب الذى يختاره وهو الأسلوب الأدبى الذى صورنا لك بعض ظواهره فيما مضى والذى سنصور لك ما بقى من ظواهره فى الفصول أو الفقرات المقبلة من هذا البحث إن شاء الله .

وننتقل الآن إلى لون آخر من ألوان القصص الأدبى فى القرآن الكريم وهو : -

٢ - القصة التمثيلية

والقصة التمثيلية وهى القصة التى تضرب مثلا أو تجيء تمثيلا موجودة فى القوآن الكريم وهى قصة فنية . بل هى عند المفسرين أدخل فى باب الفن والأدب من القصة التاريخيه ذلك لأن المفسرين لم يعرفوا عن القصة التاريخيه إلا أنها القصة التى تصور الحق والواقع من مسائل التاريخ وقضاياها فالأحداث التى تصورها القصة قد وقعت حقا والحوار قد صدر والأشخاص الذين ترسمهم القصة قد وجدوا حقا وصدر عنهم كل ما ينسب إليهم من أقوال وأفعال . كل ذلك قد كان لازيادة فيه ولا نقصان ومن هنا كانت القصة التاريخيه مصدرا من مصادر التاريخ عند هؤلاء . ومن هنا أيضا كانت هذه المشكلات الكثيره التى وقفوا عندها طويلا والتى لم يستطيعوا لها حلا إلا على ضروب من التأويل وإلا بالرجوع إلى المذهب الأدبى فى فهم قصص القرآن الكريم .

هذا ما يعرفه المفسرون عن القصة التاريخيه أما ما يعرفونه عن القصة التمثيلية فأكثر وأدخل فى باب الفن الأدبى .

يعرفون عن القصة التمثيلية أنها من التمثيل والتمثيل ضرب من ضروب البلاغة وفن من فنون البيان . والبيان العربى يقوم على الحق والواقع كما يقوم على العرف والخيال فليس يلزم فى الأحداث أن تكون قد وقعت وليس يلزم فى الأشخاص أن يكونوا قد وجدوا وليس يلزم فى الحوار أن يكون

قد صدر وإنما قد يكتفى في كل ذلك أو في بعض ذلك بالفرض والخيال
ومن هنا كانت القصة التمثيلية عند المفسرين قصة بيانية أى قصة فنية .

وتفسير المفسرين للقصة التمثيلية في القرآن يشعرنا أيضا بأنهم يعرفون عنها
أنها من القصص الفنية ذلك لأنهم ربطوا بينها وبين الفن القصصى بأكثر
من رباط بالمعاني والتيارات الفكرية والخلقية لا تستقر في التمثيل إلا على
ذلك النحو الذي تستقر فيه في القصة الفنية ولا تاتمس منه إلا كما تلتمس
منها . والتماس هذه المعاني وهذه التيارات من التمثيل يحتاج فيما يرى
الزحخشري إلى نوع من الدربة والمران وإلا زلت الأقدام وضلت الأفهام .
ويرى الزحخشري أيضاً أن كثيرين ممن ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه بسبب عجزهم عن
فهم التمثيل وكيفية استخراج المعاني منه . ولعل أقوال الزحخشري تفسر لنا
بعض الشيء لماذا ذهب المفسرون إلى عد القصص القرآني من المنشابه :

✓ القصة التمثيلية قصة فنية هذا ما يقرره الأقدمون ويشهد به الواقع
وهذا هو الذي نريد أن نستعرضه سوياً من النصوص التالية .

لنقرأ سوياً هذه القصة .

قال تعالى : وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على
داود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا
بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع وتسعون
نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب قال نقد ظلك
بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبنغي بعضهم على بعض
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما افتناه

«فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب» (١) .

ثم اقرأ معى هذه النصوص .

جاء فى الكشف ما يلى ، فإن قلت ما معنى ذكر النعاج قلت كان تحاكمهم فى نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا لأن التمثيل أبلغ فى التوبيخ لما ذكرنا وللتنبية على أمر يستحيا من كشفه فيكتمى عنه كما يكتمى عما يستسمح الاقصاد به . . . فإن قلت الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم قلت هو تصوير للمسألة وفرض لها فصوروها فى أنفسهم وكانوا فى صورة الاناسى كما تقول فى تصوير المسألة زيد له أربعون شاه وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما غلظاها وحال عليها الحول كم يجب فيها وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد . وتقول أيضا فى تصويرها لى أربعون شاه ولك أربعون غلظلناها وما لى من الأربعين أربعة ولا ربعا (٢) .

وجاء فى الرازى ما يلى ، المسألة الثانية ها هنا قولان . الاول أنهما كانا «ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داوود عليه السلام على قبح العمل الذى أقدم عليه . والثانى . أنهما كانا انسانين ودخلا عليه للشر والقتل فظنا أنهما يحذانه خاليا فلما رأيا عنده جماعه من الخدم اختلقا ذلك الكذب للدفع الشر .

(١) ص ٢١ — ٢٥

(٢) الكشف ج ٢ ص ٢٨١

أما المنكرون لكونهم مملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا مملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى « لا يسبقونه بالقول » ولقوله « ويفعلون ما يؤمرون » .

أجاب الداهيون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن المملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب (١) .

وقال أبو السعود « بغى بعضنا على بعض هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه (٢) » .

وجاء في معالم التنزيل للبعوى ما يلي « فإن قيل كيف قال بغى بعضنا على بعض وهما مملكان لا يبغيان قيل معناه أرأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر . وهذا من معارضة الكلام لا على تحقيق البغى من أحدهما قال الحسين بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهم لأنه لم يكن هناك نجاج ولا بغى فهو كقولهم ضرب زيد عمرا واشترى بكر دارا ولا ضرب هناك ولا شراء (٣) » .

وجاء في البحر المحیط لأبي حيان « والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن ولا يكتفى بها عن المرأة ولا ضرورة تدعو إلى ذلك لأن ذلك الإخبار كان صادرا من الملائكة على سبيل التصوير

(١) التفسير الكبير ج ٢٨٧

(٢) أبو السعود ج ٧ ص ٤٨٦

(٣) معالم التنزيل ج ٧ ص ١٩٠

للسألة والفرض لها مرة غير تلبس بشيء منها فمثلوا بقصة رجل له نعيمة وخليطه تسع وتسعون فأراد صاحبه تنمة المائة فطمع في نعيمة خليطه وأراد انتزاعها منه وحاجه في ذلك حاجة حريص على بلوغ مراده ويدل على ذلك قوله وإن كثيرا من الخلطاء وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدل على المراد (١).

أعتقد أنك بعد هذا العرض الطويل للنصوص قد لاحظت الفرق بين المذهبين اللذين يشير إليهما الرازي وعرفت على أي أساس يقومان . إن سر الاختلاف لا يقوم على التمثيل من حيث هو تمثيل ولا على أثره القوى في النفس فكلهم يعترف بذلك حتى من يخشى منهم أن يسكون التمثيل في قصة الملسكين كذبا .

جاء في النيسابوري مايلي : ونحن نرى أن الإنسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغي فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال ولا شك أن الثاني يكون أكمل . وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره في الكتاب الذي أنزل تبياننا لكل شيء . (٢)

لا يرجع سر الاختلاف إذا إلى التمثيل من حيث هو تمثيل ولا إلى قوته وأثره النفس في العاطفة والوجدان وإنما يرجع إلى نظرية الأقدمين في الصدق والكذب وإلى إيمانهم بمنطق العقل وحده وإهمالهم لما عداه حتى المنطق الأدبي منطق العاطفة والوجدان .

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٣٩٢

(٢) غرائب القرآن ج ١ ص ١٩٥

إن سر الاختلاف يرجع إلى أن بعضهم لا يعرف إلا الصدق العقلي وهو مطابقة القول للواقع وينكر أو ينسى ما عداه . ومن هنا رأى في المعاني التي تجيء في صورة التمثيل نوعاً من الكذب لا يليق بالملائكة .

أما البعض الآخر فقد وفق إلى الحقيقة الأدبية واقترب من رأى المحدثين في الصدق الفني ومن هنا لم ينظروا إلى المسألة بهذه النظرة القاصرة ولم يذهبوا إلى أن التمثيل كذب ومضوا على أنه تصوير للمسائل وفرض لها والتصوير للمسائل والفرض لها لا يعتبر من الكذب ومن هنا لم ير هؤلاء في صنيع الملائكة شيئاً من الكذب في قليل أو كثير ومن هنا أصابوا التوفيق .

إن الأقدمين قد لمسوا الحقيقة الفنية أو الأدبية حين عرفوا الصدق في كتب البلاغة وحين اختلفوا في هذا التعريف ولقد أضروا بالدراسة الأدبية حين وقفوا عند الصدق المنطقي ورجحوا التعريف القائل بأن الصدق مطابقة القول للواقع ذلك لأنهم بهذا التعريف قد دفعوا غيرهم من المفسرين ورجال الدين إلى إنكار وجود القياس الشعري والحقيقة الفنية في كل من القرآن الكريم وفي كلام الأنبياء .

إننا نؤمن بالحقيقة الأدبية كما نؤمن بالحقيقة العقلية ونعرف الصدق الفني كما نعرف الصدق العقلي وإذا كان الثاني هو مطابقة القول للواقع فأن الأول هو الصدق في تصوير ما يخلقه الوجدان أو يخترعه الخيال هو الصدق في الترجمة عما بالنفس من رأى أو فكرة أو عاطفة أو إحساس . وإذا كان لا بد من قول قديم نستند إليه فهو مطابقة القول للاعتقاد .

إن هذه المسألة مسألة الصدق الفني لا تمس التمثيل وحده وإنما تمس غيره من أمور بلاغية أو بيانية كالمبالغة والغلو والأغراق ويعجبني في هذا الموقف رأى لابن قتيبة ذكره في كتاب الأشربة وأعتقد أنه يحل إلى حد ما هذا الإشكال .

قال رحمه الله ، وقال لنا إسحاق عيب وكيع بقوله هو أحل من الماء لأنه إن كان حلالا وهو بمنزلة الماء فكيف جعله أحل منه ونحن نقول إنه ليس يلحق وكيعا في هذا الموضع عيب ولا يرجع عليه منه عتب لأن كلبته خرجت مخرج كلام العرب في مبالغتهم في الوصف واستقصائهم بالمسح والذم يقولون هو أشهر من الصبح وأسرع من البرق وأبعد من النجم وليس ذلك بكذب لأن السامع له يعرف مذهب القائل فيه وكلهم متواطئون عليه كذلك قوله هو أحل من الماء يريد المبالغة في وصفه بالتحليل (١) .

وواضح أنه يريد أن يقول إذا كان هناك مذهب أدبي أو بلاغي تجرى عليه اللغة في التعبير عن العواطف والأفكار وكان هذا المذهب لا يعنى بمطابقة الحق فإن للأديب الحق في أن يجرى على هذا المذهب وليس للقارىء أو السامع عليه اعتراض مادام قد عرف مذهبه في هذا ولا يستطيع أن يجعل صنيعه هذا من باب الكذب بحال من الأحوال .

ونعتقد أن هذا يوضح أمورا كثيرة ويجعلنا نقول بوجود القياس الشعري والتعبير عن الصور التي يخلقها الذهن أو الخيال في القرآن وفي كلام الأنبياء .

لنعد الآن إلى التمثيل وإلى القصة التمثيلية في القرآن .

وهنا أحب أن أصرح بأنى لأقصد إلى القول بأن كل المواد القصصية (في القصص التمثيلية القرآني ولادة الخيال ذلك لأن بعضها قد يكون وليد للاحداث الواقعية وذلك هو الواضح من قصة الملوك السابقين وما فيها من أحداث من تاريخ داوود عليه السلام .

وهنا أمر آخر لابد من توضيحه هو أن الحاجة إلى الخيال في القصص القرآنى أو فى التمثيل القرآنى لم تأت حاجة المولى سبحانه وتعالى إلى الخيال فى التعبير عن المراد — وحاشا لله أن يحتاج إلى الخيال — وإنما جاءت حاجة البشرية لهذا الخيال ولأن ذلك هو الأسلوب الذى تجرى عليه فى التعبير عن الأحاسيس والأفكار .

يقول صاحب الكشف عند تفسيره لقوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (١) » .

ما يلى « وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج وكم لهم من أمثال على السنة البهائم والجمادات وتصور مقالة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه كما أن العجف مما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع فى نفس السامع وهى به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل تحملها والوفاء بها . فإن قلت قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله فى تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجله للمضى فى وجهه وكل واحد من الممثل به شئ مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما فى هذه الآية فإن عرض الأمانة على الجاد وإبائه وإشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبهه شيئا والمشبه به غير معقول .

قلت الممثل به في الآيه وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفي
تظايره مفروض والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات . مثلث
حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت علي
السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها (١) .

اذ يلفت الزمخشري ذهننا إلى أن التمثيل هنا قد جاء لأنه الاسلوب
العربي ولأن القرآن ما جاء إلا على طرقهم وأساليبهم . كما يلفت ذهننا إلى
أن التمثيل يكون بالصور المفروضة التي تتخيل في الذهن أى بالصور التي
يخترعها الخيال وأن لهذه الصور قوتها التي قد تكون أوقع في الذهن
وآكد في نفس من الصور التي تمثل الحقيقة .

وجاء في الكشف أيضا عند تفسيره لقوله تعالى « وما قدروا الله حق
قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه
سبحابه وتعالى عما يشركون » . (٢)

ما يلي « والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بحملته وبمجموعه
تصوير عظمتة والتوقيف على كنهه جلاله لاغير من غير ذهاب بالقبضه ولا
باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات
يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر
على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول أنا

(١) الكشف ج ٢ ص

(٢) الزمر ٦٧

الملك فضحك رسول الله صلعم تعجبا بما قال ثم قرأ تصديقا له وما قدروا الله حق قدره الآية . وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور لمسك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبد والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنفها الأوهام هيئة عليه هو أن لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ولا ترى بابا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء فإن أكثره وغلبته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديما وما أتى الزلوان إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة عما لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه إذ لا يحل عقدتها الموربه ولا يفك قيودها المكربه إلا هو وكم آيه من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثه والوجوه الرثه لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا نفير ولا يعرف قبلا من دبير . (١)

فصاحب الكشف يدلنا على أن المعاني قد تجيء في صورة التمثيل مباشرة وهنا لا يأخذ القارئ أو السامع المعاني من الألفاظ المفردة ومن جزئيات التراكيب وإنما يأخذ المعاني من الكلام بحملته ويفهم أن معاني الألفاظ غير مقصودة في أمثال هذه التراكيب . ثم هو يدلنا على أن هذه الصور تكون عادة من صنيع الخيال وأن الوقوف على ما فيها من عواطف وآراء عسر شاق وأنه الأمر الذي تزل فيه الأقدام .

وتنتهى من كل حديث الزمخشري على أن التمثيل من صنع الخيال وأنه موجود في كتاب الله . وأن من المعاني ما يحى مباشرة في صورة التمثيل وأن استخراج هذه المعاني يحتاج إلى دربه ومقدرة في علوم البيان .

وهكذا نرى أن الاعتماد على عنصر الخيال أسلوب من أساليب القرآن وأنه الأسلوب الذى دفع إليه حاجة العقل البشرى إلى هذا اللون من الكلام .

ويحسن بنا الآن أن نعرض عليك ألوانا من القصص التمثيلية الذى قال القدماء والمحدثون من أئمة التفسير بوجوده في القرآن .

وقبل أن نعرض هذه الأشياء نلفت انذهن إلى أن للتمثيل مظهرين . الأول أن يحى في أعقاب المعاني ليزيدها قوة وجلاء . والثانى أن يحى المعنى ابتداء في صورة التمثيل . هذا ما يشير إليه الجرجاني حين يقول « وأعلم أن ما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصى الأفتدة صباية وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا ^(١) » .

ولعل من أحسن المثل في الدلالة على أن المعاني تبرز أحيانا في معرض التمثيل الآية السابقة كما شرحها الزمخشري وهي آية وما قدروا الله . الخ .

(١) أسرار البلاغة ٨٦ وما بعدها

هذا التمثيل بمظهره كما يكون بالصور الأدبية والتشبيهات يكون أيضا بالقصص فقد تجيء القصة في أعقاب المعاني لتزيدها وضوحا وبياناً وذلك هو الواضح من سورة يس فقد ذكر المولى سبحانه وتعالى كثيراً من المعاني التي تصور حال النبی علیه السلام مع قومه ثم أتبعها بقوله تعالى « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين قالوا إنا تطيرنا بكم لننلهن لنرجهنكم ولیمسنكم منا عذاب ألیم قالوا طائركم معكم أن ذکرتم بل أنتم قوم مسرفون وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألکم أجراً وهم مهتدون ومالی لا أعبد الذی فطرني وإليه ترجعون أتأخذون من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إني إذا لفي ضلال مبين إني آمنت بربكم فاسمعون قیل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (١) ».

وقد يجيء المعنى ابتداء في صورة القصة كما هو الحال في قصه المملكين مع داود .

وسنقصر الحديث هنا عن القصص التي تصور المظهر الثاني من مظهر التمثيل وهي التي تبرز المعاني فيها في صورة القصة ابتداء .

وإليك شيئاً من هذه القصص .

(١) قال تعالى « إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين (١) » .

وجاء في الطبري « وقال آخرون لم ينزل الله على بني إسرائيل مائدة . ثم اختلف قائلوا هذه المقالة فقال بعضهم إنما هذا مثل ضربه الله تعالى لخلقهم نهاهم به عن مساواة نبي الله الآيات .

ذكر من قال ذلك - حدثنا ابن وكيع قال حدثنا يحيى بن آدم عن شريك عن ليث عن مجاهد . أنزل علينا مائدة من السماء قال مثل ضرب لم ينزل عليهم شيء (٢) » .

(ب) وقال تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٣) » .

وذهب بعض القدماء من المفسرين فيأروى عنهم ابن كثير إلى أن هذه ليست قصة واقعية وإنما هي مثل « عن ابن جريح عن عطاء أن هذا مثل (٤) » .

(١) المائدة ١١٢ - ١١٥

(٢) الطبري ج ٧ ص ٨١

(٣) البقرة ٢٤٣

(٤) ابن كثير ج ١ ص ٩٠

ويلاحظ أن الناشر قد كتب على الهامش هذه العبارة « يعني أنها ضرب مثل لا قصة واقعية ».

(ج) قال تعالى « أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمراك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير (١) ».

وجاء في المنار بعد تفسيره للقصة ما يلي « ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم (٢) ».

(د) قال تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليظمن قلبي قال نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم (٣) ».

وجاء في الرازي ما يلي « المسألة الثانية ، أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن وأن إبراهيم قطع أعضائها ولحومها وريشها ودماها وخلط بعضها على بعض غير أبي مسلم فإنه أنكر ذلك وقال إن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالا قرب به الأمر عليه والمراد بصرهن إليك الإمالة والتمرين على الأجابة أى فعود الطير

(١) البقرة ٢٥٩

(٢) المنار ج ٣ ص ٥٢

(٣) البقرة ٢٦٠

الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأنتك فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحدا حال حياته ثم ادعهن يأتينك سعيا والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة^(١).

وأورد صاحب المنار هذا الرأي وعلق عليه بقوله «وجملة القول أن تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذي يدل عليه النظم وهو الذي يحل الحقيقة في المسألة... وما صرف جمهور المتقدمين عن هذا المعنى على وضوحه إلا الرواية بأنه جاء بأربعة طيور من جنس كذا وكذا وقطعها وفرقها على جبال الدنيا ثم دعاها فطار كل جزء إلى مناسبه حتى كانت طيورا تسرع إليه فأرادوا تطبيق الكلام على هذا ولو بالتكلف.

وأما المتأخرون فهمهم أن يكون في الكلام خصائص للأنبياء من الخوارق الكونية وإن كان المقام مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور وهو أكبر الآيات. ولكل أهل زمان غرام في شيء من الأشياء يتحكم في عقولهم وأفهامهم والواجب على من يريد فهم كتاب الله أن يتجرد من التأثير بكل ما هو خارج عنه فإنه الحاكم على كل شيء ولا يحكم عليه شيء والله در أبي مسلم ما أدق فهمه وأشد استقلاله فيه.»^(١)

(هـ) وقال تعالى «وانزل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوأ بأثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك

(١) التفسير الكبير ج ٢ ص ٣٣٢

(٢) المنار ج ٣ ص ٥٨

جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى فأصبح من النادمين ... (١)

✸ وجاء في المنار بصدد حديثه عن حب الأخوة ما يلي « والحق فيما قصّه علينا الوحي من قتل قابيل أنه بيان لما في استعداد البشر من التنازع بين غرائز الفطرة بالتعارض بين عاطفة وشيجه الرحم وحب العلو والرجحان والامتياز على الأقران في رغائب النفس ومنافعها وما قد يلد من الحسد وما قد يتبع الحسد من البغى والعدوان فضرب الله مثلا لبيان هاتين الحقيقتين ليرتب عليه بيان كون غريزة الدين بل إهدايته هي المهيمنة للفطرة البشرية بترجيح الحق على الباطل والخير على الشر فكان قابيل مثلا لمن غلبت عليه النزعة الثانية وهابيل مثلا لمن غلبت عليه الأولى بترجيح هداية الدين وذلك قوله حكاية عنه « لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » . والدليل على محبة الأخوة ووشيجة الرحم في نفس قابيل وتنازعها مع حب العلو والرجحان على أخيه أو مساواته وحسده لتقبل قربانه دونة قوله تعالى « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » ، فإن التعبير عن ترجيح داعية الشر المتولدة من الحسد العارض على عاطفة حب الأخوة ورحمة الرحم بالتطويع من أبلغ تحديد القرآن لدقائق الحقائق باللفظ المفرد (٢).

(١) المائدة ٢٧ - ٣١

(٢) المنار ج ١٠ ص ٢٢٨

وهكذا نستطيع أن ننهي من الحديث عن هذا اللون القصصى إلى القول بأن القصة التمثيلية أو الخيالية موجودة في القرآن الكريم بأعتراف أئمة التفسير من القدماء والمحدثين . وبأن القصة التمثيلية قصة أدبية وانها تدخل تحت صورة من صور التعريف الأدبي للقصة وهى « القصة هى العمل الأدبي الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له او من بطل له وجود ولكن الاحداث التى ألمت به لم تقع له اصلا » .

كما نستطيع ان نقول بأننا بعد كل ما تقدم لن نجد من يعارض فى وجود القصة التمثيلية فى القرآن الكريم وانها وليدة الخيال وان الخيال إنما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليه وجريهم فى بلاغتهم عليه والله سبحانه وتعالى إنما يحدثهم من هذا بما يعتادون .

ولعل من القصص التمثيلية كل قصة أعرض القرآن فيها عن ذكر البطل فأهمله أو أخفاه .

والآن نستطيع أن ننتقل إلى لون آخر من ألوان القصص الأدبي فى القرآن وهو اللون الخاص بالأساطير .

(٣) - « القصة الأسطورية »

ويختلف الوضع هنا عنه في اللونين السابقين من حيث المواد الأدبية ومن حيب تناولها .

أما من حيث المواد فيرجع الاختلاف الى أن المواد الأدبية في القصة التاريخية كانت أحداثاً واقعية تناولها القرآن ورتبها ترتيباً يحقق الغرض المراد في القصة القرآنية والى أن المواد في القصة التمثيلية كانت أحداثاً لا نعرف لها هذه الصفة من التاريخية والواقعية ومن هنا استطعنا أن نسميها في عرفنا البشري أحداثاً مفروضة أو متخيلة وقد تناول القرآن هذا اللون من الأحداث وعرضه العرض الذي تتحقق به الأغراض المرادة من القصص .

أما في القصة الأسطورية فالمواد الأدبية قصة بأكملها ومن هنا يكون الصنيع البياني مخالفاً بعض الشيء له في اللونين الأولين من ألوان القصص القرآنية .

وأما من حيث معالجة القصة الأسطورية فلن نستطيع أن نسلك السبيل التي سلكناها هناك فنبداً بعرض بعض القصص لنلاحظ الظواهر الأدبية ثم نسجلها ونفسرها كما فعلنا هناك . والامر في ذلك واضح فالقدماء من المسلمين يجمعون على وجود القصة التاريخية في القرآن مهما يكن الرأي في طريقه تناولها ونحن متفقون معهم كل الاتفاق على هذا القدر وغاية الامر أنا نقول إن عرض القصة التاريخية للأحداث والأشخاص إنما هو

العرض الأدبي البلاغى أى الفنى . وبعض القدماء من المفسرين يقول بوجود القصة التمثيلية أو غير الواقعية وعلى حد قول بعضهم الفرضية . ومن كل ما تقدم صالح فى اللونين السابقين أن نبدأ بعرض قصص انتهىنا منه إلى المراد .

أما هنا فلم يقل واحد من المفسرين بوجود القصة الأسطورية فى القرآن بل على العكس نرى منهم كما نرى من بعض المحدثين نفورا من لفظ الأسطورة ومن القول بأنها فى القرآن ولو إلى حد ما .

نعم نحن لانكر أن بعض المفسرين من أصحاب اللبحات قد فتح الباب وأجاز القول بوجود القصة الأسطورية وأصل لذلك أصولا مهمة لهذه الفكرة مثل تقريره أن هناك جسما للقصة أو هيكلا للحكاية وأن هناك أمورا أخرى . والجسم أو الهيكل غير مقصود . أما المقصود حقا فهو ما فى القصة من توجيهات دينية أو خلقية وهو ما ذهب اليه الأقدمون كالإمام الرازى وهو ما قرره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى صراحة ووضوح حين تحدث عن التعبيرات البيانية وأنها قد تقوم على شئ من الخرافات الوثنية . وهذه هى أقوال هذين العالمين .

جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » من سورة يونس ما يلى : « الأول أنهم كلما سمعوا شيئا من القصص قالوا ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها ^(١) . » .

فنحن نلاحظ أن الرازى هنا يفرق بين شيئين . الأول هيكل القصة

أو جسم الحكاية . والثاني ما في القصة من توجيهات دينية نحو قواعد الدعوة الإسلامية ومبادئ الدين الخفيف .

والرازي يلحظ أن الأمر الأول وهو هيكل القصة أو جسم الحكاية هو الذي أدخل الشبهة على عقول المشركين حين ظنوا أنه المقصود من قصص ومن أجل هذا ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من أن القرآن أساطير الأولين .

والرازي يقرر أن المقصود أمور أخرى مغايرة لهذا الجسم من القصة . وجاء في المنار من حديث عند تفسيره لقصة هاروت وماروت من سورة البقرة ما يلي « قال الأستاذ الامام ما مثاله . بينا غير مرة ان القصص جاءت في القرآن لاجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الاخبار عند الغابرين ولانه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لاجل الموعظة والاعتبار لحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز مواطن الهداية ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح .

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله « كما يقوم الذى يتخطبه الشيطان من المس » . وكقوله « بلغ مطلع الشمس » . وهذا الأسلوب مألوف فأننا نرى كثيرا من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لاسيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئا من تلك الخرافات الوثنية . (١)

إذ الواضح أن الأستاذ الأمام يحيز أن يكون في التعبير القرآني قصصا وغير قصص أثر للأساطير اجراء للعبارات على تلك الظواهر الخرافية لأنه يحكي من عقائدهم الحق والباطل كما يحيز أن يكون القرآن قد أجرى أساليبه كما هو المعروف عند الأدباء فجعل الخرافات الوثنية أداة للتعبيرات البلاغية .

لأننكر أن المفسرين الكبارين قد قالوا هذا وقد فتحا الباب أمامنا لكهما وقفا عند هذا الحد ولم يضعنا بين أيدينا قصة واحدة ليشرحها الشرح الأدبي الذي يسمح لنا بأن نجعلها فاتحة الحديث عن القصة الأسطورية ونمضي على هدى منه .

إن كل ما صنعناه أنهما جعلنا جسم القصة أو هيكل الحكاية غير مقصود من القرآن وأنه لو كان أسطوره من الأساطير فإن ذلك لا يقدر في حق القرآن الكريم لأنه ليس من مقاصده وليس من الأمور التي عني بشرحها وتفصيلها .

لا بد إذن من الحديث المفصل عن هذا اللون من القصص ونظر القرآن إليه وتناوله له .

ونقدم بين يدي ذلك ما نشير به إلى أن السبيل إلى درس مثل هذه الموضوعات مرسومة من قبل . رسمها الأصوليون في بحث آيات التشريع وهي جمع الآيات المتعلقة بموضوع ما ثم فهمها وتسجيل ظواهرها ثم تفسير هذه الظواهر والانتهاى من كل ذلك إلى حكم القرآن في المسألة . ولن نكون سبيلنا هنا إلا هذه السبيل .

وتلك هي آيات القرآن الكريم التي عرضت لذكر الأساطير نجعلها مستقصين لننظر فيها النظرة العلمية التي تسلم إلى الحق المبين .

(١) قال تعالى « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين . » انعام ٢٥

(٢) وقال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . » الانفال ٣٢٣١
(٣) وقال تعالى « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين . » النحل ٢٤

(٤) وقال تعالى « بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . » ٨٣

(٥) وقال تعالى « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيمًا ، الفرقان ٦٥

(٦) وقال تعالى « وقال الذين كفروا أنذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ، النحل ٦٧ ، ٦٨

(٧) وقال تعالى « والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين . » الاحقاق ١٧

(٨) وقال تعالى « ولا تطع كل حلاف مهين هماغز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعدد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » . القلم ١٠ - ١٥

(٩) وقال تعالى « ويل يومئذ للكاذبين الذين يكذبون يوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » . المطففين ١٠ ١٣

هذه هي آيات التي عرض فيها القرآن لهذه المسألة فلننظر لنرى ما فيها من دلالات على نظرية هذه الأساطير .

وأول ذلك أن هذه الآيات جميعها من القرآن المكي حتى ما وضع منها في سورة مدنية كالأنفال مثلاً فقد نص القدماء - واعتمد ذلك المصحف الملكي - على أن الآيات من ٣٠ - ٣٦ من سورة الأنفال مكية . وأقرب ما يفهم من ذلك أن الحديث عن الأساطير إنما كان من أهل مكة وجمهورهم المطلقة من المشركين وأنه قول لم يقل في المدينة بعد انتقال النبي عليه السلام إليها . وهذه ظاهرة تحتاج إلى تفسير وتعليل .

وثاني ما يفهم من النظر في هذه الآيات أن القائلين لهذا القول هم في الغالب الذين ينسكرون البعث ولا يؤمنون بالحياة الآخرة . وذلك واضح كل الوضوح من آيات سور . المؤمنون . النمل . الأحقاف . المطففين . ذلك لأن الحديث معهم في هذه المسألة بالذات . وهو متصل بسبب قوى بالحديث عن الحياة الآخرة في آيات سور الأنعام والنحل .

وتلك ظاهره تستحق التفسير أيضا والتعليل .

وثالث ما يفهم من النظر في هذه الآيات أن المشركين كانوا يعتقدون بما يقولون اعتقاداً صادقاً وأن الشبهة عندهم كانت قوية جارفة وذلك هو الواضح تماماً من هذه الآيات التي يحسن بنا أن نستعرضها سوياً .

في سورة الأنعام يذهب المشركون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيستمعون القرآن لكنهم بعد الاستماع يجادلونه ويقولون له ما هذا إلا أساطير الأولين . ونعتقد أنهم لم يقولوا هذا القول في مواجهة النبي وأمام سمعه وبصره إلا وهم يعتقدون أن ما يقولونه الحق وما يرونه الصواب . ومعنى ذلك أن الشبهة عندهم في اجتواء القرآن على الأساطير شبهة قوية جارفة .

الاصح

وفي سورة الأنفال يذهبون ويستمعون وبعد هذا وذاك يقولون قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . ولا يكتفون في هذا الموطن بهذا القول وإنما يذهبون إلى أبعد من هذا في التحدى ويقولون : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

ونحن إذ نعتقد بصدق القرآن ودقته في تصوير إحساساتهم لا بد لنا من التسليم بأن هذه العقيدة كانت قوية عندهم وتقوم على أساس يطمثون إليه من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن ذلك لأنهم لا يستطيعون هذا القول إلا إذا كان هناك ما يبرر فعلاً هذا القول في تقديرهم ويجعلهم يؤكدونه هذا التأكيد .

وفي الأحقاف يقف ولد هو فيما يروى المفسرون ابن أبي بكر الصديق من والديه هذا الموقف القاسى العنيف والذي قال لو والديه أف لكما أتعذاني

أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن
إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين .

وما من شك في صدق القرآن ودقته في تصويره لخلجات الأنفس
ولذا نقدر بأن هذا الشخص الذى يضجر من والديه ويتأفف من قولهما
ويشك في عودته الى الحياة مرة ثانية ويقيم هذا الشك على ملاحظته لظاهرة
من الظواهر هي أن القرون قد خلت من قبله ولم يعد إلى الحياة أحد كان
قوى العقيدة شديدا اليقين في أن ما يوعد به من الإخراج إنما هو من
الأساطير .

وهكذا نلاحظ أن الشبهة عنده قوية عنيفة وأن القرآن يصورها تصويرا
دقيقا صادقا ونحس نحن من هذا التصوير القرآنى أن القوم كانوا إنما
يعبرون عما يحسون ويشعرون به نحو ما يتلى عليهم من آى الذكر الحكيم
فهم لم يقولوا هذا القول كذبوا ادعاء وإنما قالوه عن شبهة قوية وعقيدة ثابتة .

ونستطيع أن نسأل أنفسنا قائلين هل معنى ذلك الذى يقرره القرآن
أن فى القرآن شيئا دعاهم إلى هذا القول الذى يدل على التقرير القوى
والاعتقاد المتمكن وهل هذا الشئ من الأخطاء التى ملكت عليهم نفوسهم
أو هو شئ من حال القرآن جعلهم يقولون ذلك ؟ لنلتمس الجواب على
هذا من دلالة تعرض القرآن للأساطير من دلالة نفىها عن نفسه وشدة
حرصه على ذلك أو من دلالة على وقوفه منها موقفا يخالفه ذلك ؟
لنتنظر وسنرى .

ورابع ما يفهم من النظر فى هذه الآيات التى هى كل ما تحدث به القرآن عن
الأساطير أن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفى عن نفسه وجود الأساطير

فيه وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله .

واستعرض معي الآيات مرة أخرى لتبين موقف القرآن نحو هذا الحرص على نفي وجود الأساطير فيه وسترى .

(١) أن القرآن اكتفى بوصف هذا الصنيع من المشركين في آيات

سور الانفال . المؤمنون . النمل - الاحقاف . دون تعقيب عليه .

(٢) وأن القرآن لم يكتفِ بتهديد القوم في آيات سور الانعام . المطففين .

وهو تهديد يقوم على إنكارهم ليوم البعث أو على صدم الناس عن اتباع النبي وليس منه التهديد على قولهم بأن الأساطير قد وردت في القرآن الكريم .

(٣) ومرة واحدة يعرض القرآن للرد عليهم في قيلهم بأنه أساطير

وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان . وهذه هي الآيات « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما . »

فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن ؟ أو هو إنما ينفي أن

تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتتبها وتملى عليه ويثبت أنها من عند الله . قل أنزله الذي يعلم السر ... الخ .

لعل الثاني أوضح . ولعل هذا الوضوح هو الذي جعل الرازي في

مناقشته لرد القرآن عليهم يقول « البحث الأول في بيان أن هذا كيف

يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وتقريره ما قدمنا من أنه عليه السلام اتخذهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضا أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى من عند الله وكلامه فلهذا قال : قل أنزله الذى يعلم السر . . (١)

والذى يحسن بنا أن نلتفت إليه هنا هو أن الرازى يسأل عن كيفية أن يكون قوله تعالى : قل أنزله الذى يعلم السر ... الخ إجابة عن قولهم وقالوا أساطير الأولين ... الخ ذلك لأن المتبادر أن الرد الذى كان يتوقعه الرازى إنما يكون بنفى وجود الأساطير فى القرآن ومن هنا حاول أن يجعل إجابة القرآن ملاقية للشبهة حين وجد أن الرد ليس نفيًا لوجود الأساطير فى القرآن بل نفي موجود آخر هو أنه ليس منزلا من الذى يعلم السر فى السموات والأرض . ولعلنا لانوافق الرازى فيما وجه به الرد بل نرى أن إجابة القرآن هى الإجابة الطبيعية وهى الإجابة التى لا محيد عنها فى هذا الميدان . ذلك لأن مدار الحوار بين القرآن والمشركون لم يكن عن ورود الأساطير فى القرآن وإنما كان عن اتخاذهم ورود الأساطير دليلا على أن القرآن من عند محمد لم يجئه به الوحى ولم ينزل عليه من السماء . ومن هنا كانت الإجابة فى محلها . وكان إثبات أن القرآن من عند الله وقل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . ولم تكن الإجابة نفي ورود أساطير فى القرآن .

وهذا هو الذى يدل عليه أيضا ما ذكره القرآن من قيلهم : وإذا قيل

لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ، ذلك لأنهم كانوا يتخیلون
استبعاد أن يصدر مثل هذا القصص الأسطوري عن الله ولذا وقفوا موقفهم
هذا من النبي عليه السلام ومن القرآن واشتطوا في ذلك وغلوا وهم
مخطئون .

وإذا كان إحساس القوم بورود الأساطير في القرآن قويا عنيفا
وعيقدهم في ذلك قويه ثابتة .

وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه
الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله .

إذا كان كل هذا ثابتا فإننا لا ننحرج من القول بأن في القرآن أساطير
لأننا في ذلك لا نقول قولا يعارض نصا من نصوص القرآن .

ويبقى من ذلك الشرح للظواهر وتفسيرها أمران . الأول لماذا صدر
هذا القول عن منكرى البعث ؟ والثاني لماذا كان من المكين ؟

لنستعرض سويا بعض القصص القرآني الذي عالج القرآن فيه
مشكلة البعث .

(١) قال تعالى : أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها
قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال
لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك
وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمراك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام
كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير
وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن

ليطمئن قلبي قال نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل
منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا وأعلم أن الله عزيز حكيم . (١)

وواضح من القصتين أنهما تفسران وتحسمان عملية الإحياء بعد
الإماتة وهي العملية التي كان ينكرها المشركون إنكارا تاما ويزعمون أنها
أحاديث خرافة .

ويقف بعض المفسرين من هاتين القصتين موقفا يدل على أنهما عندهم
من الأقاصيص التي تقع ولم تحدث .

جاء في تفسير المنار عقب حديثه عن القصة الأولى هذه الجملة « ويحتمل
أن تكون القصة من قبيل التمثيل » . (٢)

وجاء في الرازي بعد تفسيره للقصة الثانية رأى لأبي مسلم ينكر فيه
وقوع القصة ويذهب إلى أنها من قبيل التمثيل ليس غير . هذا الرأي الذي
عرضناه عليك في الفقرة الخاصة بالقصة التمثيلية من هذا الفصل . (٣)

وإذا ما ضمنا إلى ذلك ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن قصة
أصحاب الكهف قصة أسطورية . (٤) تبين لنا السر في أن القائلين
بالأسطورية هم الذين ينكرون البعث إذ أنهم لم يستطيعوا تصديق أمثال
هذه القصص التي تجسم عملية الإحياء بعد الإماتة وجروا على أنها أساطير
الأولين .

(١) البقرة ٢٥٩ ، ٢٦٠

(٢) المنار ج ٣ ص ٥٢

(٣) الرازي ج ٢ ص ٣٣٣

(٤) مادة أصحاب الكهف في دائره المعارف الاسلاميه

ونستطيع أن نذكر هنا أيضا أن الشبهة التي دخلت على المشركين من أمثال هذه الأفاقيص قد دخلت أيضا على بعض المفسرين من نفس الباب .
وهنا لم يستطيعوا تصديق وقوع هذه الأحداث وفسروا هذا اللون من القصص على أنه قصص يراد به التمثيل .

والآن إلى هذه الظاهرة

لماذا انقطع القول بالأساطير حينما انتقل النبي إلى المدينة ؟

إن السبب فيما نعتقد واضح بين فاليته قد تثقفت ثقافة كتابيه بفضل اليهود . وفي الكتب السابقة وردت الأساطير لتشرح فكره أو تمثل وتجسم عقيدة من العقائد وهذه فكرة يعرفها أهل الكتاب ونعتقد أن قد كان يعرفها المدنيون من العرب من هؤلاء .

والبيئة المسكلم تكن مثقفة ثقافة كتابيه في هذا الجانب فيما نعتقد ومن هنا أنكرت على القرآن هذا الصنيع .

إن القصص الأسطوري يعتبر تجديدا في الحياة الأدبية المسكلم وتجديدا جاء به القرآن الكريم وتجديدا لم يألفه القوم ومن هنا أنكروه .

إن هذه النظره تفسر لنا جانبا من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم فقد وضع تقليدا جديدا في الحياة الأدبية العربية وهو بناء القصص الديني على بعض الأساطير . وهو بذلك قد جعل الأدب العربي يسبق غيره من الآداب العالمية في فتح هذا الباب وجعل القصة الأسطورية لونا من ألوان الأدب الدقيق الرفيع .

يجب أن نحصر على فتح هذا الباب ولا نوصده في وجه الذين يقولون بوجود
الأساطير في القرآن الكريم وإنما يجب أن نفسره التفسير الذي اهتدى
إليه الرازي ووقف عنده الأستاذ الإمام ولم ينكره على نفسه
القرآن الكريم .

✓ فإذا ما قال المشركون إن بالقرآن أساطير قلنا ليس عليه في ذلك بأس
وإنما البأس عليكم لأنكم قد عجزتم عن فهم مقاصده وقصدتم عن المضى معه
في هذا السبيل .

وإذا ما قال المستشرقون إن بعض القصص القرآني كقصة أصحاب
الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير . (١)

✓ قلنا ليس في ذلك على القرآن من بأس فإنما هذه السبيل سبيل الآداب
العالمية والأديان الكبرى ويكفيها فخراً أن كتابنا الكريم قد سن السنين
وقعدت القواعد وسبق غيره في هذه الميادين .

ونستطيع الآن أن ننهي من هذه الفقره إلى القول بأن القرآن الكريم
✓ لا ينكر أن فيه أساطير وإنما ينكر أن تكون الأساطير هي الدليل على أنه
من عند محمد عليه السلام لم يجئه به الوحي ولم ينزل عليه من السماء .

ومن هنا يجب ألا يزعمنا أن يثبت عالم من العلماء أو أديب من الأدباء
أن بالقرآن أساطير . ذلك لأن هذا الإثبات لن يعارض تضامناً نصوص
القرآن الكريم .

جاء في الرازي عند تفسيره الآية النحل ما يلي : لقائل أن يقول كيف

(١) راجع مادة أصحاب الكهف ومادة إلياس في دائرة المعارف الإسلامية

يكون تنزيل ربهم أساطير الأولين . وجوابه من وجوه . الأول أنه مذكور على سبيل السخرية ... الثاني أن يكون التقدير هذا الذي تذكرون أنه منزل من ربكم هو أساطير الأولين . الثالث يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزل الله لكنه أساطير الأولين ليس فيه شيء من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق . . .

وواضح أن الرازي يحيز في رأيه الآخرين القول بورود أساطير في القرآن الكريم وأنها من عند الله .

إن المسألة أوضح من أن تختلف عليها بعد الآن والله الهادي إلى سواء السبيل .

القصة الأسطورية إذا من القصص الأدبي الذي نجد من المفسرين من أجاز أن يكون موجودا في القرآن الكريم .

هذه هي الألوان الثلاثة من القصص الأدبي وضعتها بين يديك ودلت على وجودها أو على احتمال الوجود وإجازته وكلها يثبت أن القصة في القرآن الكريم عمل أدبي قصد إليه القرآن وجعله وسيلته إلى كل ما يريد من مقاصد وأغراض .

وننتقل الآن إلى الحديث عن أمر آخر هو الوحدة القصصية وسنرى منها أيضا ما يزيد الأمر بيانا وإيضاحا ويطلعنا على أن القصد الأدبي في القصص القرآني هو سر ما فيه من إعجاز .

الفصل الثاني

الوحدة القصصية

والنزعة التاريخية التي سيطرت على عقلية الدارسين للقصة القرآنية جعلتهم يضلون السبيل إلى الوحدة القصصية للقصة القرآنية . ذلك لأنها جعلتهم لا يستطيعون التفرقة في سهوله ويسر وفي دقة وإحكام بين صنيع المؤرخين وصنيع الأدباء في رسم صور الشخصيات فهم لم يستطيعوا مثلاً أن يتبينوا أنه إن كان من واجب المؤرخ أن يرسم الصورة كما كانت عليه الشخصية في الحياة فإن من حق الأديب أن يختار من الملامح وأن يبرز من القسبات وأن يعرض من جوانب الشخصية ما يمكنه من الوصول إلى تلك الأهداف التي قصد إليها من قص القصص . وإن من حقه أيضاً أن يلوّن الصورة بالألوان التي تجعل الشخصية قادرة كل قدره على القيام بذلك الدور الذي قدر لها أن تلعبه في القصة . ومن هنا لم يستطع هؤلاء الدارسون الإيمان بأن الشخصية الواحدة قد لا تتشابه صورها حين يصورها أدباء مختلفون أو حين يصورها أديب واحد في أقاصيص مختلفة ولعل هذا هو السبب الذي من أجله عجز هؤلاء عن تفسير تلك الظاهرة في الأقاصيص القرآنية فلقد عجز القوم عن تفسير هذه الصور التي رسمها القرآن لفرعون من بحبته مرة في مسوح العابد وأخرى في عزة المعبود .

وعدم القدرة على التفرقة بين الصنيعين صنيع الأدباء وصنيع المؤرخين هو الذي دفع هؤلاء الدارسين إلى اعتقاد أن الشخصية القصصية في القصص القرآني ليست إلا الشخصية التاريخية وأن هذه الأخيرة هي كل شيء في القصص القرآني فهي الأساس الذي تبنى عليه القصة وهي المحور الذي تدور

حوله أو تستند إليه ببقية العناصر ثم هي العنصر المبين للوحدة القصصية والمميز لقصة قرآنية عن أخرى قرآنية .

ونحن في هذا الموقف لا نريد الحديث عن العناصر القصصية وكيفية توزيعها في القصة القرآنية ولا عن الشخصية وكيف أن القرآن كان يجعلها العنصر الأول حين يقصد إلى الإنذار ولا عن الحوار وكيف أن القرآن كان يجعله العنصر الأول حين يقصد إلى الرد على المعارضة وإلى شرح مبادئ الدعوة الإسلامية . لا نريد الحديث عن شيء من هذا لأن هذه المسائل جميعها محلها من البحث في فصل خاص بها هو فصل العناصر القصصية .

إننا نريد في هذا الموقف الحديث عن الوحدة القصصية عن الأساس الذي نميز به في القرآن قصة عن قصة . عن الأساس الذي يفرد القصة ويجعلها محل بحث ودرس لملاحظة الظواهر ثم تفسيرها وتعليلها ثم الوقوف على ما فيها من قيم إفنية وأدبية .

كان الأساس عند الدارسين قبلنا الشخصية التاريخية ومن هنا كانت تسميتهم للأقاصيص القرآنية بأسماء الأنبياء والمرسلين وأسماء غيرهم من رجال التاريخ فنرى في كتبهم قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى وذى القرنين . كما نرى فيها أيضاً تمييزهم للأقاصيص بالصفات التي كان يطلقونها القرآن الكريم على الشخصيات ومن ذلك قصص الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، وأصحاب الكهف والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ، وأصحاب الجنة وهكذا .

كانت النتيجة المنطقية لهذا الصنيع من القدماء أن تكون قصة موسى وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء الذين تكررت أسماؤهم في القرآن ودارت

حولها أخبار وآراء هي مجموع هذه الأقايص التي دارت حول هذه الأسماء . وهنا نعتزف بأنهم لم يقفوا طويلا عند الأسرار التي من أجلها كرر القرآن هذه الأقايص وخالف فيما بينها بالذكر والحذف أو الزيادة والنقصان أو صورها بصور مختلفة من حيث التقديم والتأخير وغير ذلك من طرق وأساليب عمد إليها القرآن .

إنه من هنا قامت في وجههم الصعوبات وتكاثرت أمامهم المشكلات وأحسوا بعدم القدرة على الخروج مما وضعوا أنفسهم فيه من مأزق ولعلمهم من هنا ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عدّ القصص القرآني من المتشابهات .

✕ إن الأساس الذي يحسن بنا أن نسير عليه في فهم الوحدة للقصة القرآنية إنما هو الأساس الذي جعله القرآن نفسه أساسا لمجموعات القصصية التي جمع بينها في الصورة الواحدة ووحد فيها بين البناء والتركيب . هو المقاصد والأغراض والموضوعات الدينية لا الأسماء ولا الأشخاص .

✕ إن المشكلة التي تعالجها القصة هي الوحدة التي يقوم عليها فن التركيب والبناء .

إن ذلك الفهم للوحدة القصصية هو الذي يتفق وقواعد الأصوليين ويجري وصنيع القرآن ثم هو الذي لعله يفتح الطريق لإدراك معنى لهذا التشابه في قصص القرآن . ولعله يرد عن القرآن مطاعن الطاعنين من ملاحدة ومستشرقين .

(١) أما إنه يتفق وقواعد الأصوليين فلا أنهم يجعلون مدار البحث في الآية القرآنية ما تصوره من حكم شرعي أو عقيدة دينية ولا يجعلونه لاشخاص الذين تدور حولهم هـ

الأزواج في مواطن كثيرة فجاء بعضه في آيات النكاح وبعضه في آيات الطلاق وبعضه فيما يقوم بين الزوجين من خصومات . كما جاء بعضه في آيات النفقة وبعضه في آيات الميراث . وهكذا .

ولا يستطيع باحث أن يجمع بين آيات الطلاق وآيات الميراث إذ هذه توضع في باب الميراث وتلك في باب الطلاق وهكذا .

وهذا هو ما يحسن أن يجري عليه العمل في القصة القرآنية فيحسن أن تكون الوحدة هي الغرض القصصى فتكون هذه القصة للتخويف وتلك للإنذار وهذه للعظة وتلك لتثبيت قلب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام .

وواضح أننا لا نستطيع أن نجتمع بين قصة للبعث كقصة إبراهيم والطير في البقرة وقصة لتثبيت قلب النبي عليه السلام كقصة إبراهيم في هود وقصة لمحاربة الأوثان كقصة إبراهيم في الأنبياء لمجرد أن هذه القصص كلها تدور حول شخصية إبراهيم عليه السلام .

وكذلك لا نستطيع أن نصنع هذا الصنيع في القصص الدائرة حول غيره من الأنبياء .

(٢) وأما إنه يجري وصنيع القرآن فلأنه الأساس الذى قام عليه الجمع في الأقسام المختلفة من حيث الأسماء الواردة في صورة واحدة من صور القرآن . وذلك هو الأمر الواضح من مجموعات القصص الواردة في كل من سور القمر والأعراف وهود والشعراء وغيرها من السور التى وردت فيها أمثال هذه المجموعات .

ثم لأن هذا الأساس هو الذى قام عليه التشابه والاتفاق في فن بناء

قصصة وتركيبها في كل من السور مهما تتغير الأسماء .

ولعل القصص التالية توضح لك صنيع القرآن وتبين لك السر الذي من أجله جمع بين هذه الأفاصيص في سورة واحدة ووحد بينها في فن بناء القصة وتركيبها مع الاختلاف في الأسماء .

قال تعالى : كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تنتقون
إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن
أجرى إلا على رب العالمين أنتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون
وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله
وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا
يصلحون قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثنا فأت بآية إن
كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا
تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعمروها فأصبحوا نادمين فأخذهم
العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز
الرحيم . .

كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تنتقون إني لكم
رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى
إلا على رب العالمين ، أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين وزنوا
بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض
مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجليلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين
وما أنت إلا بشر مثنا وإن نظنك لمن الكاذبين فاسقط علينا كسفا من
السماء إن كنت من الصادقين قال ربني أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم
عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم
مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم . .

فهاتان القصتان جمع بينهما الغرض الذى ذكر فى أول هذه السورة سورة الشعراء وهو حرص النبي على هدايتهم مع موقفهم منه موقف اللدد والخصومة حتى ليخضع نفسه ومن أجل هذا مضت القصة فى عرض الحوادث التى تبث الثقة والطمأنينة فى قلب النبي عليه السلام والتى ترد نفسه إلى الهدوء حينما يعلم من غيره من الرسل مثل هذا الحرص وبقاء أقوامهم على ما هم عليه من العناد .

ومن أجل هذه المقاصد أيضاً وحّد القرآن بين هاتين القصتين فى فن البناء والتركيب حتى لقد جعل العبارات التى تجرى بها الألسنة سواء من الانبياء عليهم السلام أو من أقوامهم الثائرين الساخطين واحدة فى كثير من الأحيان .

الوحدة القصصية كما ترى من صنيع القرآن تقوم على المقاصد والأغراض والمشكلات التى تستثيرها القصص وتحاول أن تضع بين يدي القارئ أو النبي عليه السلام لها حلاً ولا تقوم على الاسماء أو الأشخاص بحال من الأحوال .

على أنا لو تتبعنا الآيات المختلفة التى يلفت القرآن بها الذهن إلى فوائد القصص القرآنى فى السور التى وردت فيها مجموعات من هذه القصص لوجدنا القرآن نفسه ينطق بهذه الاسس للوحدة القصصية القرآنية ، فقد قال تعالى فى سورة هود وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . وقال فى سورة الاعراف ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، وقال فى سورة يوسف ، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن الخ . ، وكلها تنطق كما ترى بأن القرآن يجعل القصد الحقيقى للقصص الأغراض الدينية . وإنه لتعطيل لمهمة القرآن الادبية الإعجازية والدينية الخلقية أن

نعرض عن هذه المقاصد التي يرمى إليها القرآن ونشغل عنها بما لم يقصد إليه من بحث في قضايا الأزمنة والامكنة والاسماء والاشخاص .

✱ ✱ ✱

(٣) ثم هو الذي يفسر التكرار في القصص وهو الامر الذي دعا القدماء إلى القول بفكرة التشابه وإليك البيان .

يروى الطبري نصوصا في التشابه يلخصها كما هي العادة بقوله (المتشابه هو ما اشتبهت الالفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة باتفاق الالفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الالفاظ واتفاق المعاني (١) .

ويقصد الطبري من هذا الحديث التشابه الذي يقع في صور التعبير عندما تختلف المعاني التي تجيء بها القصة أو الاختلاف في التعبيرات عندما يكون المعنى واحدا . وهو يسمى النوع الأول قصة باتفاق الالفاظ واختلاف المعاني وهو يدل على النوع الثاني بقوله وقصة باختلاف الالفاظ واتفاق المعاني .

وقد ورد هذا الرأي مجالا في كثير من كتب التفسير وأصول الفقه كتفسير أبي حبان وكباحكام الاحكام للامدى وجميع البيان للطبرسي وغيرهم .

ولا يسعنا أن نعرض عليك في هذا المقام جميع الصور التي يتحقق بها ما رواه الطبري فهي كثيرة في القرآن ولذا سنكتفي بعرض بعضها ملخصا في مسائل بعينها تدل على ألوان من التشابه كما جمعها صاحب كتاب « درة

التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ، ونرجو أن ننتهي منها إلى حل موفق .

(١) قال تعالى في سورة الأعراف « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقل يا قوم اعبدوا الله ما لکم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » وقال في سورة هود « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » وقال في سورة المؤمنين « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لکم من إله غيره أفلا تتقون . »

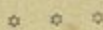
ويعلق الخطيب الإسكافي على هذه الآيات بعد إيرادها بقوله « للسان ان يسأل عن اختلاف المحكيات كقوله بعد ما لکم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وإني أخاف عليكم عذاب يوم أليم وفي المؤمنين ما لکم من إله غيره أفلا تتقون . والقصة قصة واحدة .

الجواب أن يقال للأنبياء مقامات مع أهمهم يكون فيها الإعذار والإنذار ويرجع فيها عودا على بدء الوعد والوعيد ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله ورفض عبادة ما سوى الله في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير عن حاله بل الواعظ يفتن في مقاله والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه فإذا جاءت المحكيات على اختلافها لم يطالب وقد اختلف في الأصل باتفاقها لأنه قال لهم مرة باللفظ الذي حكى ومرة بلفظ آخر في معناه كما ذكر وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدهم . ومصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه فلا وجه إذا للاعتراض بهذا ونحوه ^(١) .

هذا لون من التشابه يفكر فيه الخطيب الإسكافي ويحمله على أساس أدبي نستطيع أن نلخصه في أنه رأى أن هذا موقفٌ وذاك آخر ومن هنا اختلفت الصور المعبرة فكانت هذه صورة وتلك أخرى .

ونعتقد أن هذا الحل الذي يذهب إليه الخطيب الإسكافي يسلم إلى رأى أدبي آخر لا نحجم عن ذكره لأنه الحق الأدبي .
ليس من شك في أنه إذا تعددت المواقف واختلفت الأشخاص وقال النبي أو الرسول من أجل هذا التعدد في المواقف ومن أجل هذا الاختلاف في الأشخاص عبارات مختلفة تلائم المقام كانت النتيجة المنطقية لسكل هذا إختلاف الصور المعبرة أو إختلاف الأقايصيص لإختلاف الصور البيانية والمواد القصصية وإختلاف المقامات .

هذا حل يحسن بنا أن نحرص عليه لنستفيد به فيما يحىء من صور للتشابه من آى القرآن .



(ب) قال تعالى من سورة طه « هل أتاك حديث موسى ... وما تلك يمينك يا موسى قال هى عصاى » وقال فى سورة النمل « إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأتيكم ... وألق عصاك »

« للسائل أن يسأل فيقول قال الله تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وهل الاختلاف إلا هذا الذى جاء فى سورته فى الإخبار عن قصة واحدة مرة أنه قال لأهله لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . وفى الآية الأخرى سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . وقال فى سورة القصص لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوه من النار .

ثم قوله فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك لأنك بالوادي المقدس طوى إلى قوله وما تلك بيمينك يا موسى فأخبر عن أشياء قيلت لموسى عليه السلام ثم جاء إلى ذكر العصا فقال وما تلك بيمينك يا موسى . وفي السورة الثانية فلما جاءها نودى أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم وألق عصاك . وكذلك جاء في سورة القصص فلما أتاها نودى من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز .

الجواب أن يقال إن الله تعالى لم يخبر أنه خوطب موسى عليه السلام باللغة العربية بالفاظ إذا عدل عنها إلى غيرها مما يخالف معناها كان اختلافا في القرآن قادحا فيه بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة وأنه تعالى أخبر في بعض السور ببعض ما جرى وفي أخرى بأكثر مما أخبر به في التي قبلها وليس يدفع بعضها بعضا (١) .

ونشعر نحن بأن تلك الإجابة لا تحل المشكلة مادام الموقف واحدا وما دام القصد هو الإخبار عن هذا الموقف .

إن رأينا في حل هذه المشكلة نستمدده مما لمح الخطيب الإسكافي في بيانه السابق ونقول بأن هذا موقف وذاك آخر وليس من اللازم أن يقوم هذا الاختلاف على أساس الذي وقع فعلا وإنما يقوم على أساس القصد الذي يرمى إليه القرآن من الصور القصصية فدامت هذه القصة قد وردت لغرض ومقصد كالنسلية أو التسرية عن النبي عليه السلام وتلك لغرض آخر فهذه

قصة وتلك قصة إذ هذا العرض الأدبي لحادث واحد من جوانب مختلفة
إتاما يكشف عن موضع العبرة وموطن العظة دون قصد إلى تقرير خبر بعينه
ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة وعند ذلك لا تكون هناك مشكلة
لأننا لن نربط بين القصتين حتى يقوم التعارض أو الاختلاف .

وليس من شك في أنك ستذهب معي إلى أنه إذا اختلفت المقاصد
القصصية اختلفت الصور المعبرة وأنه إذا اختلفت الصور المعبرة كانت هذه
قصة وتلك قصة .

وليس من شك في أنك لا تستطيع أن تغلب الاتفاق في الشخصية على
بقية العناصر القصصية من اختلاف في المقاصد والأغراض واختلاف
في الصور والالفاظ واختلاف في النسق والترتيب واختلاف في فن
البناء والتركيب .

وهنا نحس أن الاختلاف القائم على أساس الأحداث أ يضايروا فكون
البشارة بالغلام مرة لساره وأخرى لإبراهيم عليه السلام لا يعتبر من
الاختلاف لأن هذه قصة وتلك قصة . وكذلك غير هذا المثال من آيات
القصص الذي يتغير فيه التعبير .

إن هذا الوجه من الرأي يبطل ذلك القول الخاطيء الذي يقول به
المستشرقون من تطور الشخصية القصصية في القرآن الكريم بتطور أغراض
النبي عليه السلام ودوافعه والظروف المحيطة به والمناسبات التي تدعوه إلى
بعض المواقف . ذلك التطور الذي يمثلون له بما حدث في شخصية إبراهيم
عليه السلام ^(١) لأن أساس هذا القول أن الوحدة القصصية تقوم على وحدة

(١) راجع مادة إبراهيم في دائرة المعارف الإسلامية .

الشخصية وهو قول باطل يريحنا منه تقرير أن هذه الوحدة إنما هي وحدة الغرض والعبرة لاوحدة الشخص ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة وتكون أفاصيل متعددة لشخص واحد عن موقف واحد لتعدد الأغراض واختلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض .

وقريب من هذا ذلك الاختلاف الذى يلاحظ فى شخصية فرعون من أنه ظهر بمظهر المعبود فى قوله تعالى « ماعلمت لكم من إله غيرى » وبمظهر العابد فى قوله تعالى « ويدرك وأهلك » إذ أن هذا القول إنما يقوم على أساس أن الوحدة القصصية تكون بوحدة الشخص لا بوحدة المقصد والغرض وهو ما لا نرتضيه بل نقول كما ترى باختلاف القصة لاختلاف المقصد والمغزى .



(ج) قوله تعالى فى قصة نوح من سورة هود : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم » وقال فى قصة صالح عليه السلام فى هذه السورة : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة » .

للسائل أن يسأل عن مخاطبة النبيين نوح وصالح عليهم السلام قوميهما باللفظين الذين تساويا إلا فيما اختلفا فيه من تقديم المفعول الثانى فى الآية الأولى على الجار والمجرور وتأخيرهما فى الآية الثانية (١) .



(د) قوله تعالى فى قصة صالح عليه السلام من سورة الشعراء : « قالوا

إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . » وقال في قصة شعيب عليه السلام : « واتقوا الذى خلقكم والجنة الأولى قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . »

للسائل أن يسأل عن الواو فى قصة شعيب فى قوله وما أنت إلا بشر مثلنا وحذف الواو من مثله فى قصة صالح عليه السلام (١) .

وهنا نصح بأنالم ننقل إجابة الخطيب الاسكافى عن اللونين الثالث والرابع وذلك لسبب بسيط هو أنه أقام الإجابة عن أسباب الاختلاف وهو الأمر الذى يسأل عنه فى هذا الموطن لأن القصتين فى كل لون مختلفتان فهذه قصة لنوح وتلك قصة لصالح . وهذه قصة لصالح وتلك قصة لشعيب .

إن الأمر الذى يجب أن يسأل عنه فى هذا الموطن إنما هو سر التشابه فيما نطق به كل من النبيين فى السورة الواحدة إذ هو الأمر الذى يدعو إلى التساؤل فى هذا المقام .

إن الإجابة عن هذا التساؤل سهلة يسيرة على أساس ماذهب إليه من فهم للقصص القرآنى ذلك لأن كلا من اللونين قد اتحد فيه القصد والغرض ومن هنا كان التشابه فى بناء القصة وكان الاتفاق فى العبارات .

نزلت قصص سورة هود لتثبيت قلب النبي عليه السلام واختار المولى سبحانه وتعالى من أحداث الأنبياء مع أقوامهم ما يحقق هذا الغرض ومن هنا كان التشابه فيما ينطق به الأنبياء عليهم السلام .

ونزلت قصص الشعراء لتصوير اللدد فى الخصومة وتهوين وقع الأمر

على نفس النبي عليه السلام ومن هنا كان التوافق في بناء القصة وتركيبها وكان الاتفاق في العبارات التي تنطق بها الأقوام أو التي ينطق بها الأنبياء عليهم السلام .

وأعتقد أنك ستؤمن بهذا الرأي إيماناً جازماً لو رجعت إلى قصة نبي واحد في سورتين مختلفتين وقصتين لنبيين مختلفين في سورة واحدة .

سبق أن وضعنا بين يديك قصتين من سورة الشعراء هما قصة صالح وقصة شعيب لتلاحظ ما بينهما من اتفاق في بناء القصة وتركيبها وما بينهما من تشابه فيما ينطق به القوم من عبارات في الجدل والحوار .

والآن نستطيع أن نفعل العكس فنضع بين يديك إحدى القصتين وقصة لنفس النبي الذي تدور حوله الأحداث من سورة أخرى لتدرك بنفسك لماذا نذهب إلى أن هذه قصة وتلك قصة ولتقف بنفسك على أسباب الاختلاف .

قال تعالى في سورة الشعراء : « كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتركون في ما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارحين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ففقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم . »

وقال تعالى في سورة القمر : « كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشراً منا

واحداً تتبعه إنا إذا لقي ضلال وسعر ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشرس يعلمون غداً من الكذاب الأشر إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبرون وبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ،

إن الاختلاف بين القصتين هنا أقوى منه هناك وليس لذلك من سبب إلا أن المقاصد بين قصتي ثمود في كل من القمر والشعراء قد اختلفت ومن أجل ذلك اختلف فن البناء والتركيب وأصبحت هذه قصة وتلك قصة على الرغم من تشابه المواد واتفاق الأشخاص .

على أنا لو نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر أخرى وهي أن هذه الأجزاء لا يمكن أن تعتبر أجزاء قصة واحدة إلا على أساس أن صاحب النص قد أراد هذا وأنه حين أنزله إنما أنزله على أنه جزء من قصة موسى أو إبراهيم أو غيرهما من الأنبياء وذلك ما لم يقل أحد به بل ذلك ما يخالف أسباب النزول التي يذكرها المفسرون أحياناً عند تفسيرهم هذه الأجزاء وذكرهم أسباباً ومناسبات لنزولها .

إن هذه الأجزاء نزلت عندما نزلت لأعلى أنها تكمل لقصة سابقة بل نزلت لأغراض مختلفة باختلاف الظروف والمناسبات ومن هنا بنيت بناية مستقلة لتحقيق القصد من إيرادها .

ثم إن هناك سبباً آخر هو هذا التكرار الكثير لأقاصيص بعض الأنبياء عليهم السلام ونستطيع أن نأخذ قصة لوط مثلاً أو قصة شعيب أو قصة صالح وأن تفكر فيها من حيث توزيع هذه الأجزاء فستجد أن الكلام لا يستقيم لأن الأحداث هي الأحداث والأشخاص هم الأشخاص في كل

قصة وفي كل مكان ولن يسلمك هذا إلى القول بتوزيع الأجزاء في هذه المواطن بحال من الأحوال .

إن المنهج السديد فيما نعتقد هو أن ننظر إلى هذه الأقسام على أنها أقاصيص مستقلة وليست من قبيل الأجزاء فهي عرض أدنى للحادث . تختلف ألوانه باختلاف أغراضه . كما يكون الشخص التاريخي الواحد وأحداث حياته مادة قصص متعددة تصاغ صوغا مختلفا لكشف جوانب مختلفة ومعاني متعددة للشخصية وأحداثها وتلك ظاهرة رقى فني كبرى قدم القرآن مثلا منها صح معها التحدى لهذا التكرار الذي لم يفهم على وجهه حتى لقد كان بما يعاب على القرآن ويلتمس له الوجه ويطلب عنه الرد فيختلف في ذلك القدماء والمحدثون ولا يكادون يقفون على الوجه الفني له بل يلتمسون لذلك أشياء وراء الصوغ البلاغي والنظم الأدبي والنسج الفني . ولو جعلوا هذا وجه الرأى في تلك القصص وتنوعها لكان وجهها من الصواب في فهم القرآن القرآن الكريم وإعجازه وإمناه لوجه نسأل الله له ذيوعا وبه مشوبة .

وفي ختام هذا الفصل نستطيع أن نقول إن هذا الموقف هو الذي يتفق والقاعدة الأصولية وهو الذي يجرى وصنيع القرآن المنسق في الجمع بين الأقسام المختلفة في السورة الواحدة وفي الجرى على طريقة واحدة في بنائها وتركيبها وفاء بما اتحد فيها من المقاصد والأغراض .

ونعتقد أن المسألة بعد كل هذا أبين من أن تسبب لبسا وأسمى من أن تكون مبعث اشتباه فلنتركها إلى الحديث عن شيء آخر هو الموضوعات والأغراض .

الفصل الثالث

« المقاصد والأغراض »

لأننا نكر أن في القصص القرآني توجيهات دينية لكل ما جاء به الإسلام من مبادئ وعقائد ولكل ما أنكره الإسلام من خلق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطلة . لكننا مع كل هذا لانستطيع أن نعد هذه الأمور أغراضا حين ندرس أغراض القصص القرآني ذلك لأن هذه الأمور كانت تأتي بين طبقات هذا القصص وفي ثناياه . وهي في هذا الوضع أو من هذا الجانب تشبهه تماما تلك الآراء المنشورة أو هذه الصور المبعثرة التي تجيء أثناء العرض القصصي في كل قصة تكتب أو تلقى فتسمع دينيه كانت أو غير دينيه . ومن هنا آثرنا جمع هذه الأشياء ودروسها دراسة مستقلة وسجلنا كل هذا على أنه القيم التي استطعنا الوقوف عليها فيما درسنا للقرآن من قصص وجعلناها في الباب الأول ولم نبقها إلى هنا لنعدها من الأغراض الفنية أو الأدبية .

ولعل الذي دفعنا إلى ما تقدم هو أننا استطعنا أن نميز بين أمرين الأول بمجموعات الآراء والأفكار والصور المعروضة في القصة . والثاني النتيجة التي تنتهي إليها القصة الواحد أو تنتهي إليها مجموعة من القصص . وردت في سورة واحدة وكان لها مقصد واحد له أثره في طريقة البناء والتركيب وفي أسلوب العرض وطريقة توزيع العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وحوار وذلك من أمثال مجموعات القصص في كل من السور الآتية . الأعراف . هود . الشعراء . الصافات .

وإذا كنا قد جعلنا من النوع الأول دراسة القيم فإننا قد جعلنا من النوع الثاني دراسة المقاصد والأغراض .

ونحدد الوضع فنقول إن الغرض هنا هو المقصد الذى من أجله نزلت القصة القرآنية وهو الذى من أجله بنيت على صورة خاصة وعرضت بأسلوب خاص

وإلى جانب هذه الأغراض على هذا الوضع توجد الوظيفة الاجتماعية التى تؤدىها القصة فى المجتمع وتخدم بها الحياة والأحياء وهى وظيفه تؤدىها جميع الفنون من موسيقى ونحت وتصوير ... الخ .

هذه الوظيفة نستطيع أن نعتها غرضا عاما للقصة أدته فى المجتمع العربى على اختلاف نحلته وألوانه وعلى ما فيه من مؤيدين ومعارضين .

هذه الوظيفة التى تؤدىها الفنون جميعها ومنها الأدب تنتهى عند عملى الإيحاء والإفاضة فتلك وظيفتها الاجتماعية وذلك هو دورها الذى تلعبه فى الحياة . ويستوى فى هذين — الإيحاء والإفاضة — الخالق المبدع والمُشاهد المستمع وإن وقف دور الأول فى الغالب عند عملية الإفاضة ذلك لأن الحياة نفسها هى التى تقوم بدور الإيحاء .

وقد يكون من فضل الرازى علينا أن نذكر له هنا صنيعة الحسن فى دلالة على وجود هذه الوظيفة الاجتماعية للفنون جميعها فى القصة القرآنية حتى لقد كرر الحديث عن هذه الوظيفة كما هى عادته فى كثير من المواقف ونستطيع أن ننقل هنا بعض حديثه الذى ذكره عند تفسيره لقصة نوح من سورة يونس فقد قال رحمه الله « وثانيها ليكون الرسول عليه الصلاة والسلام ولاصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء فإن الرسول إذا سمع أن

معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة إذا عمت خفت .

ونالها . أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص وعلوا أن الجهال وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الوجع في صدورهم وحينئذ يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة^(١) .

وتلك هي عمليات الإفاضة والإيحاء التي يقول بها المحدثون من النفسيين والتي تحدثوا عنها حين تحدثوا عن عمل العقل في الفن وعن الوحي العاطفي والوحي الفكري الذي يوحيه الفن . ونستطيع أن ننقل هنا تعريب عبارتين لواحد من هؤلاء لفهم المسألة الفهم الواضح ونستعين بها على فهم كل ما تصور في هذا الباب من قيم فنية .

يقول وردز وورث في كتابه «الحياة العقلية» بصدد حديثه عن الوحي الفني العاطفي ما يلي «إنك إذا مررت صدفة بالقطعة الفنية النفيسة أثناء اجتيازك متحف الفنون الجميلة قد تحرك عواطفك بل ربما أثارت دموعك . وكذلك يقال عن القطعة الموسيقية الجيدة التي ليس من الضروري أن تكون محزنة .

أما لماذا تثار هذه العاطفة الخاصة فأمر لم يتقرر بعد . وهو أمر لانستطيع تحليله غير أن وحي الفن للعاطفة في غير هذه الأحوال قابل للتحليل . فإن الشيء المحزن يوحى لباعث الحزن مباشرة والمضحك لباعث الضحك والمؤسف للخوف والهرب . كما أن الدافع الجنسي

يستثمر في الرسم والنحت في أحيان كثيرة كما يستثمر في الآداب . (١) ،

كما يقول بصدد الوحي الفني الفكرى ما يلى « إن الفن قد يرضينا لأنه يوحى إلينا وحيا فكريا كما يتضح عند ما نتذكر أن كثيرا من الأعمال الفنية العظيمة تحتاج إلى جهود فكرية لى نفهمها ونرتاح إليها فيجب أن تكون منتبها كل الانتباه لتتمكن من متابعة رواية من روايات شكسبير كما أنك تحتاج إلى إيجاد مغزى لصورة زيتية قبل أن تتمكن من التلذذ بها جيدا .

وقد لانفكر عادة عند ما نرى صورة فنية جميلة أو نسمع قطعة موسيقية بديعه أنها مسألة طرحت أمامنا للحل والحقيقة أنها كذلك . ويرجع تأثير القطعة الفنية الفكرى إلى أنها مسألة تحتاج إلى حل ولا يخفى أن إدراكنا مغزى قطعة فنية يحتاج إلى جهود وانتباه وإذا كانت المسألة المطروحة أمامنا صعبة جدا كان العمل الفنى جافا وإذا كانت سهلة كان تافها . (٢) ،

على أن القرآن الكريم نفسه قد لفت الذهن إلى هذه الوظيفة الإجتماعية حين تحدث عن أثر الأقوال فى النفوس وكيف تستثير العاطفة ومن هنا حرص القرآن على أن تكون الأقوال بليغة مؤثرة فى النفوس ليقوى الأيحاء ويشدد وذلك هو الواضح تماما من هذه الآيات .

قال تعالى « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذ هم يستبشرون » .

(١) الحياة العقلية ٦٢٢

(٢) المصدر السابق ص ٦٢٣

وقال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يستطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلك النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير . »

وقال تعالى « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين كفروا فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . »

وقال تعالى « أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظمهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا . »

ولعله من هنا فرض القرآن على المؤمنين نوعا من الرقابة ففرض عليهم ألا يسبوا آلهة المشركين حتى لا يسب هؤلاء آلهتهم . قال تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون . »

كما فرض على النبي عليه السلام ومن اتبعه أن يعرضوا عن الخائضين في آيات الله بل جعل الذين يستمعون إلى هؤلاء الخائضين من المنافقين قال تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . » وقال تعالى « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا . »

ولا يفهم كل هذا إلا على أساس واحد هو أساس الوظيفة الاجتماعية

للفنون جميعها ومنها الأدب وإلا فلساذا فرض القرآن على النبي والمؤمنين هذا النوع من الرقابة ؟

المسألة كما ترى في غاية الوضوح . ونعتقد أن من السهل أن ننتهي من كل ما تقدم إلى القول بأن المقصد العام أو الوظيفة الإجتماعية من القصة الأدبية يكون عادة الأفاضه أو التنفيس والأيحاء وهي الأمور التي توجد في القصة القرآنية أيضا .

وإذا كنا في حالة البحث وبخاصة الجامعي لا نكتفي بأمثال هذه العموميات كان من الواجب علينا أن نفصل ما أجملنا وأن نتناول هذه الأشياء بالعرض كما لحظناها في قصص القرآن .

(١) وأول هذه الأغراض وأهمها من وجهة نظر القرآن نفسه تخفيف الضغط العاطفي عن النبي عليه السلام وعن المؤمنين ولقد كان هذا الضغط قويا عنيفا وكانت أسبابه واضحة جلية فلقد كانت أقوال المشركين وكانت أعمالهم التي يكيدون بها للنبي عليه السلام والقرآن الكريم والدعوة الإسلامية هي السبب في كل هذا الذي دفع النبي عليه السلام إلى أن يضيق قال تعالى « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » وقال تعالى « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . »

كان أثر هذه الأقوال في نفس النبي قويا فعلا وكانت تلك الخواطر التي أخذت مكانها من قلب النبي عليه السلام أو من قلوب الاتباع . قال تعالى « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . »

على أن هذا الضغط العاطفي في لم يقف عند حد البلبلة النفسية بل تجاوزها إلى ما هو أبعد مدى وأنفذ أثرا حتى لنرى النبي عليه السلام يدعو ربه وهو محنق يكظم غيظه ويضغط عواطفه تلك التي أو شكت على الانفجار . قال تعالى « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبتذ بالعراء وهو مذموم » وقال تعالى « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » وقال « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل . »

كان تخفيف هذا الضغط أو كانت الإفاضة عما بنفس النبي عليه السلام ونفوس الأنصار والأتباع مقصداً من مقاصد القصص القرآني حتى لا تنزل النفوس وتترك الدعوة الإسلامية ولو حدث هذا لما قامت لها قائمة .

كانت عملية القص في مثل هذه الظروف من العمليات التي يقصد من وراءها القرآن تثبيت قلب النبي عليه السلام وقلوب المؤمنين ورد الثقة إلى أنفسهم وبث الطمأنينة في قلوبهم وإزالة الهم والقلق . وكانت النتيجة التالية لكل هذا هي ذلك الصبر الطويل والثبات الذي وصل بهم في النهاية إلى النصر على الأعداء والمعارضين .

على أن القرآن نفسه قد صرح بهذا الغرض حين قال « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » وحين قال « تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساؤهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمسح على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين

ونتمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

وهذا الأمر هو الذي فطن إليه الرازي فيما نقلنا عنه من حديث .

والقصص التي نزلت من أجل هذا كثيرة في القرآن الكريم ومنها مجموعة القصص التي وردت في سورة هود . ولقد لفت القرآن كما هي عادته الذهن إلى المقصود من هذه المجموعة في مواطن كثيرة من السورة . فقد قال في أولها « فلعلك تارك بعض ما يوحى ... الخ » وقال في آخرها « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ... الخ » .

ومن هذه القصص أيضا قصة موسى في سورة طه ولعله من أجل ذلك بدأ المولى سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا بمن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى وهل أتاك حديث موسى ... الخ » . إذ يمتضى القرآن فى سرد القصص مبينا العقبات التى لاقاها موسى عليه السلام والصعاب التى وضعها فرعون فى طريقه ثم الصعاب والعقوبات التى تعاون فى توجيهها إلى موسى كل من قومه وأخيه والسامري إلى أن ينتهى القصص بقوله تعالى « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا .

ومن هذه القصص أيضا قصة موسى فى سورة القصص ومجموعة من قصص سورة الأنبياء وأخرى من قصص سورة الصافات .

وإذ أردنا أن نختار قصة تمثل نفسية النبي عليه السلام في موقفه من قومه وفي فتره من فترات تاريخه أصدق تمثيل فلن نجد أقوى وأعنف من قصة نوح في سورة نوح تلك القصة التي تعرض لمشكلات النبي عليه السلام أول عهده بالدعوة الإسلامية مشكلة ومشكلة والتي تتمشى فيها حركة الأسلوب مع حركة العاطفة والتي تمثل الضيق الذي ألمَّ به كما تمثل اتجاهه إلى الخالق سبحانه وتعالى ليخفف عنه البلاء وينقذ المؤمنين من هذه الجماعه الضالة المضله وهي جماعة الكافرين .

قال تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدكم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبىكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم لإخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكرًا مكرا كبيرا وقالوا لا تذرن آلهم ولا تذرن ودا ولا سواعولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون

الله أنصارا وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا رب اغفر لي ولوالدي وللمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا .

فهنأ قصة لها قيمتها الأديبه ولو حاول النبي عليه السلام تصوير حاله في قصة لما صورها بقصة أحسن مما اختار له الخالق سبحانه .

والتشابه هنا تام بين حالة نوح في القصصه وحالة محمد صلى الله عليه وسلم نلحظه في عناصر الدعوة من عبادة الله وطاعته كما نلحظه في طريقة الدعوة من حيث الجهر والإسرار . وفي مقابلة القوم لنبي الله ودعوته بالنفور والفرار ثم بالاستكبار وجعل الأصابع في الآذان . ثم في الأشياء التي رغب بها في الإيمان من الإمداد بالمال والبنين والأنهار والجنات . ثم في الأشياء التي تلفتهم إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى من خلقهم أطوارا ومن خلق السموات السبع الطباق ومن جعل القمر نورا والشمس سراجا ومن إنبتهم من الأرض وجعلها بساطا ليسلكوا فيها سبلا فجاءا . ثم في مناجاته لربه تلك المناجاة التي يخبره فيها أنهم اتبعوا الأغنياء ومن لم يزدحم ما لهم وولد لهم إلا خسارا . ثم في تصويره لمسكر هؤلاء الأغنياء أو القاده حين طلبوا من قومهم البقاء على ما هم عليه من عبادة للأوثان .

وهنا لابد من لنت الذهن إلى أن الأوثان هنا هي بعينها تلك التي كانت تعبد في الجزيرة العربية أول عهد الجزيرة بالبعثة وبمحمد عليه السلام . ود . سواع . يعوث . يعوق . نسر .

وأخيرا يكون التشابه أيضا في اتجاهه نحو ربه ودعائه على الكفرة من قومه وطلبه من المولى سبحانه وتعالى أن يستأصل شأفتهم حتى ينجو العالم

قال تعالى « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أنقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون فلما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأه أن يقتلهم إن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ... الخ » .

ففى هذه القصة التى لم تتم تسجيلها هنا عرض لمواقف فرعون من موسى وقومه ومن السحرة انتهى بالنتيجة التى تنتهى بها القصة الشعبية فى كثير من الآداب العالمية من انتصار البطل والقضاء على الظالم الطاغية .

ونلص نفس الروح من موقف عاد من نبيها . قال تعالى « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .

وليس من شك فى أن نتيجة العرض القصصى لأمثال هذه المواقف يلقى فى النفس الخشية والرهبة ويبث فيها الخوف عند ما تحس أن النتيجة هى العقاب وليس من نتيجة للخوف سوى الهرب والابتعاد عن مصدر العقاب وعند ذلك تكون النفرة وتكون الكراهية .

(د) ومنها عبادة غير الله فقد كثر استثارة الانفعالات ضدها وتنفير الناس عنها وكان إبراهيم هو البطل الذى دار حوله أكثر ما نزل من قصص يهدف إلى هذه الغاية ويستعين بالوسائل الفنية للتفسير والاحتقار .

دار بعض هذا القصص حول عبادة النجوم ودار بعضه الآخر حول عبادة الأوثان وكانت وسيلة إبراهيم إلى غايته أن يشكك القوم فيما يعبدون ويضع بين أيديهم صورا لهذه الآلهة وهى عاجزة العجز التام عن أن تنفع أو تضر كما أطلعهم على أنهم يعبدون ما ينحتون فهم الذين يصنعون هذه الآلهة ثم يقومون نحوها بضروب التقديس والإجلال . وإذا أردنا أن نختار إحدى القصص التى تصور هذه الناحية فلن نجد خيرا من قصة إبراهيم فى الشعراء « وائل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيت ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقئنى وإذا مرضت فهو يشفينى والذى يميننى ثم يحينى والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعل لى من ورثة جنة النعيم واغفر لى فإنه كان من الضالين ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأزلت الجنة المتهقين وبرزت الحميم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوها فهاهم والغاؤون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة

فنكون من المؤمنين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك
لهو العزيز الرحيم .

إذ في هذه القصة نلاحظ موقف إبراهيم من أبيه وقومه وهو يسألهم
عما يعبدون وإلهم ليحييونه بأن معبوداتهم هي الأصنام . لكنه يعود
فيسأل عما تقدمه لهم من خير وما تيسر لهم من منافع . وإنه ليتجه بالسؤال
نحو حاستين ضروريتين للمخلوقات فضلا عن الخالق هما الوسيلة للاستجابة
وهما السمع والبصر . ويعجز القوم عن الإجابة ويعرفون أنه التقليد وأنهم
ما عبدوها إلا لأنهم وجدوا آباءهم الأقدمين على هذه الحال يعبدونها
ويقومون نحوها بضروب التقديس والإجلال . وهنا تثور نفس إبراهيم
ويعلن العداوة إلا لخالقه الذي يطعمه ويسقيه وإذا مرض فهو يشفيه
والذي يميتة ثم يحييه والذي يطمع أن يغفر له خطيئته يوم الدين . وشتان
بين الصورتين وبين النوعين من الآلهة . نوع يستجيب فينفع أو يضر ونوع
لا يستجيب بل لا يسمع ولا يبصر . وليس هناك من دافع يدفع إلى النفرة
والكراهية من الأوثان أفضل من هذا ؟

بعد ذلك نلاحظ تلك المناجاة التي يتوجه فيها إبراهيم نحو خالقه يدعوه
فيها بتلك الدعوات الصالحات رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل
لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي إنه
كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من
أتى الله بقلب سليم .

وتنتهى القصة بتصوير مشهد في الآخرة مشهد يذيب القلوب ويبعث

على النفرة من عبادة الأوثان . مشهد يصور ذلك الخصام العنيف الذى سيكون بين الأصنام وعابديها ويصور الحسرة والالام على ما أضاعوا من أعمار وما تركوا من خير كما يصور الندم على اتباع المجرمين والاستماع إلى القادة المضلين . قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم رب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كره فنكون من المؤمنين .

ثم تكون تلك الفقره التقليديه التى يختم بها القرآن قصصه فى هذه السوره وهى إن فى ذلك لآيه وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم .

وكنا نستطيع أن نمضى فى الحديث عن تلك الأشياء التى أثار القصص القرآنى النفوس ضدها كصد الناس عن سبيل الله وكالحسد . وكنا نستطيع أن نمثل لذلك ببعض القصص كقصه شعيب ويوسف وابنى آدم ولكننا أثرنا أن نكتفى بما تقدم لأن القصد كان التدليل على وجود هذا الغرض وضرب الأمثله التى تثبت وتوضح ونعتقد أن قد بلغنا من ذلك ما نريد .

ثالثا — والقصة كما تقوم بعملية الإفاضه وعملية الإيحاء أو تكوين عواطف قوية وصادقه مع أو ضد القيم الخلقية والدينيه والاجتماعيه الموجوده فى البيئه أو المراد فرضها عليها تقوم بعملية أخرى لا تقل عن هذه أثرا فى حياة الإسلام والمسلمين تلك هى بث الثقة والطمأنينه أو بذر بذور الخوف والقلق والاضطراب النفسى .

والقصة القرآنيه لها خطرهما من هذه الناحية فهى التى تولد هذه الأشياء بعرضها صورا من الحياة الدينيه انتصر فيها الدعاة ومن آمن بهم وحق

الدمار والهلاك بالقادة المعارضين ومن اتبعهم . وهذه الأمور ملحوظة في مجموعات قصص سور الأعراف والشعراء والقمر .

ونلاحظ أن عملية الخلق الفنى في هذه المجموعات تقوم على أساس اختيار بعض العناصر المعروفة والمتداولة من أخبار الأمم السابقة ومزجها وإخراجها في الثوب الذى يؤثر الأثر المطلوب من إشاعة القلق والاضطراب في قلوب الكفرة والمشركين أو رد الثقة والطمأنينة لنفوس المؤمنين ومن هنا قال شعيب لقومه : يا قوم لا يجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم يبعيد .

ونستطيع أن نأخذ بعضاً من قصص سورة القمر ولتكن كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر فدعاربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وجفرا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحداً نتبعه إنا إذا لنى ضلال وسعر ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غداً من الكذاب الأشر إنا مرسلوا الناقة فتنه لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب مختصر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر .

إنا نلاحظ التشابه التام في بناية القصة في هذه المجموعة كما نلاحظ أنها تبدى، وتنتهى بعبارات تقليديه كذبت ... بالنذر، فكيف كان عذابى ونذر وتوجيها تقليديا ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر. ثم نلاحظ قصر الفقرات وتعاقب الجمل بعبارات مسجوعة ذات رنين قوى وقد كان القصد فيما نعتقد أن تؤثر هذه الموسيقى على الحس فيتضاعف الأثر النفسى ويقوى. وإذا ما ضمنا إلى ذلك ما تقوم به عملية التكرار القصصى من عرض صور سريعة ومتلاحقة بحيث لا يكاد الإنسان ينتهى من مشاهدة واحدة منها حتى تهجم عليه الأخرى قدرنا مقدار ما تشيعه هذه الصور من اضطراب وفوضى وقلق نفسى خشية أن ينزل بهم الضرر أو ينالهم الأذى.

وكذلك نلاحظ نفس العمليه في قوله تعالى «الحاقه ما الحاقه وما أدراك ما الحاقه كذبت ثمود وعاد بالقارعه فأما ثمود فأهلكوا بالطاغيه وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويه فهل ترى لهم من باقيه».

أما قصة شعيب « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقيه الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت

والله أنيب ويا قوم لا يجر منكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود قالوا يا شعب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزیز قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه ورآكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيט ويا قوم اعملوا على مكاتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتیه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إنى معكم رقيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جائسين كأن لم يغنوا فيها ألا بعد المدین كما بعدت ثمود . انتهى

فهذه قصة تجرى هيئة لينسة ويبقى البطل هادئا رزينا واستحق بحق ما أطلقه عليه بعض المفسرين من لقب خطيب الأنبياء فهو يحاور القوم ويداورهم لكن لا نامة ولا حركة ولا انفعالا قويا عنيفا يدفعه إلى العبارات القاسية التى يقطر الدم من الفاظ التهديد والوعيد فيها . وتمضى القصة حتى تنتهى إلى تلك النهاية السعيدة بالنسبة لشعيب والمؤمنين وتلك النهاية المؤلمة بالنسبة للكفرة والمشرکين .

وهكذا أكثر القصص كقصة موسى فى القصص وقصة يوسف أيضا فيها شيء من هذا وتخص الصافات إذ كل هذه القصص تصور النتيجة الأخيرة لكل صراع فى سبيل المبدأ والعقيدة وهى انتصار المؤمنين وخذلان المنكرين المخالفين . إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم العنة ولهم سوء الدار .

رابعا - ونستطيع أن ننتهي من هذه الأغراض بغرض أخير هو الإيحاء بأن محمدا عليه السلام رسول حقا وأن الوحي ينزل عليه ويبلغه أخبار السماء .

وتقوم العملية الفنية في بعض هذه القصص على أن حالة محمد عليه السلام تشبه حال غيره من الأنبياء كموسى وإبراهيم ، إنا أرسلنا إليك رسولا كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول ، إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب واليسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلنا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلنا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً .

وعلى أن ما طلب إليه أو ما أوصاه الله به هو ما أوصى به الأنبياء من قبل « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يحبّي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب . »

وفي هذين نستطيع أن نقول إن العرض كان من قبيل عرض الأخبار العادية التي لم يتصد بها إلا لفت الذهن إلى قضية من القضايا .

والتمتمة التي نستطيع أن نسميها قصة فيما يخص نواحي هذا الغرض هي تلك التي عاجلت الأمر الثالث أو الأخير وهو معرفة أخبار السماء وأن الوحي ينزل عليه بها وأنه ما كان يعرفها من قبل .

والقصص التي تمثل هذا النوع كثيره منها قصة موسى في القصص وقصة نوح في هود وإذا حاولنا انتقام قصة تقي بالغرض وتدل على المراد فلن نجد أفضل من قصة مريم في آل عمران وهي إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أتى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فناده الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بجي مصدقا بكلمه من الله وسيدا وحسورا ونبيا من الصالحين قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى السكبر وأمرأتى عاقر قال لذلك الله يفعل ما يشاء قال ربى اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون .

ففى هذه القصه نلحظ معرض صور فهناك صورة امرأة عمران ونذرهما وصورة زكريا ودعائه وصورة عيسى ورسالته وتدخل مريم فى كل صورة من هذه الصور ومع كل شخصية من هذه الشخصيات حسب ما يتطلبه الموقف من ظهور تام جلى أو ظهور ناقص خفى .

نلاحظ صورة امرأة عمران تلك المرأة المتدينه التي تنذر ما في بطنها لله وفي سبيل الله . ثم نلاحظ تلك المسحه الخفيفه من الألم والحسره التي تطوف بنفسها على أن كانت المولودة أنثى وتلك العاطفه النبيله أو تلك الرقة وذلك الحنان اللذان يتجلمان في توجهها إلى الله من أجل مريم وقولها له « إني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . » واستجاب ربها فأنبتها نباتا حسنا وتقبلها بقبول حسن وجعلها في كفالة رجل من رجال المحاريب هو زكريا . وهنا نلاحظ أثر غير العادى فى القصة من حوادث خارقه ومعجزات فريم . يأتيها رزقها من السماء وزكريا ينجب فيولد له يحيى وامرأته عاقر وتلك إرادة الله والله يفعل ما يشاء .

ولقد كان هذا الموقف من زكريا بعد توجهه إلى ربه وطلبه منه ذرية طيبة واستجابة ربه له ثم تعجبه من تلك الاستجابة محيرا للرازي فيما شرح من تفسير للقصة .

وتمضى القصة بعد ذلك ويكفيها منها هذه التوجيهات الدينيه التي تتصل بمرادنا وهى قوله تعالى « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . » وقوله « ذلك نلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . » وقوله « إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم . »

وهكذا نستطيع أن نختم هذا الفصل دون أن يفوتنا لفت الذهن أو تكرير القول بأن أمور الدعوة الإسلاميه شرح عقائدها وتوضيح مبادئها كانت ترد في ثنايا القصة وبين طياتها في كل ما جاء فى القرآن من قصص وأنها كانت غرضا لئلا يسهل على القارئ أن ينتهى عنده القصة ويكون منها النهاية أو الختام وإنه من أجل ذلك جعلنا هذه التوجيهات من الموضوعات لامن الأغراض

الفصل الرابع

مصادر القصص القرآني

والبحث عن مصادر القصص القرآني تتمثل فيه خطورتان . الأولى تتمثل في رجال قد تعرفهم بسيماهم . هم أصحاب الثقافة الضحلة والعقل الضيق والنظر القصير . هم أولئك الذين ألفت المقادير بمقاليد الثقافة العربية في أيديهم فظنوا أنهم كل شيء وما هم بشيء . وأنهم أحق الناس لأن يبينوا للناس ما يصح وما لا يصح وما يجوز وما لا يجوز . ولعله من هنا أخذتهم العزة فتحكموا في البحوث علمية وأدبية . وراعوا في هذا التحكم مصلحتهم وأهواءهم ولم يراعوا مصلحة العلم والمعرفة ولم يراعوا جانب الحق والصواب .

ومن طبع أصحاب العقول الضيقة والنظر القصير — إذا خولفوا في أمر من أمورهم — أن يستثيروا العامة ويستعينوا بالغوغاء ، وهم في كل ذلك إنما يسرون على هدى سلف لهم غير صالح هم أولئك الجاهليون الذين كانوا يقولون لقومهم : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون

وأصحاب العقول الضيقة حين تأخذهم العزة في هذا الموقف قد يقفون ويقولون لك : إن البحث عن مصادر القصص القرآني أمر يجب ألا يكون وتسألهم عن السر فيتمشددون ويقولون : أليس القصص القرآني بعض القرآن ؟ وأليس القرآن قد نزل من عند الله ؟ وإذن فكيف نبيح لإنسان مهما يكن حظه من العلم والمعرفة ، ومهما يكن قدره من العلو والرفعة أن يبحث عن مصادر ما أنزل الله ؟ إنها الفتنة فدعوها نائمة ولعن الله من أيقظها

أما الخطورة الثانية فتتمثل في أقوال المستشرقين والمبشرين تدور حول مصادر القصص القرآني . وهؤلاء المبشرون يحتفلون للحديث عن هذه المصادر أكثر من احتفالهم لأية مسألة أخرى من مسائل القرآن وسر هذا الاحتفال أن هذه المسألة هي الباب الذي ينفذون منه إلى الموازنة بين ما جاء في القرآن الكريم من أحداث وأخبار وما جاء منها في التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب التاريخ والأخبار .

والمستشرقون والمبشرون في موازنتهم ينتهون حتما إلى القول بأن في القرآن مخالفات تاريخية وأن هذه المخالفات هي الدليل على أنه من عند محمد ، لانه لو كان من عند الله لتزه عن هذه المخالفات ولما كان فيه منها كثير أو قليل . وهم يعملون هذه المخالفات بقولهم لاقوامهم : إن محمدا كان يتعلم هذه الأخبار من العبيد والارقاء ، أولئك الاعاجم الذين كانوا يخدمون السادة من قریش والذين أشار القرآن إلى واحد منهم حين قال : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي » . وهؤلاء ما كانوا يعرفون من التاريخ الديني للرسول والأنبياء إلا شائعات . ذلك لأنهم يحكم رقبهم أو يحكم فقرهم ما كانوا يستطيعون الحصول على نسخ من الإنجيل والتوراة وكتب الأخبار ، فلم تكن المطبعة قد وجدت بعد ، ولم تكن النسخ المخطوطة من الكثرة بحيث تقع في أيدي هؤلاء . لقد كانت نادرة ، وكان الحصول عليها يتوقف على مقدار ما يدفع في سبيلها من نقد ومن هنا كانت وقفا على الأغنياء ^(١) . ومن هنا أيضا كانت معارف الفقراء ومعارف العبيد والارقاء وقفا على الشائعات وليس يخفى أن ما كانت وسيلته المشافهة يكون دائما عرضة للتحريف وعرضة للتغيير والتبديل وعرضة للزيادة والنقصان .

(١) راجع هنري سمث الكتاب المقدس والاسلام ص ٦٠ — ٩٧

وراجع ريشارد بل مصادر الاسلام ص ١٠٤ — ١٠٥

إن أخطاء هؤلاء فيما يقول المستشرقون والمبشرون هي التي ظهرت بوضوح في المخالفات التاريخية التي جاءت في قصص القرآن

والخطورة الأولى لا تلبث أن تزول حين نبين للرجعيين والجامدين ومن على شاكلتهم أننا في هذا الصنيع إنما نجرى على سنن سلف لنا صالحهم العلماء الأجلاء من رجال الفقه والدين .

ما الذي فعله المسلمون حين أرخوا للتشريع الإسلامي ؟ ألم يبحث الأصوليون عن مصادر هذا التشريع ؟ ألم يذكر هؤلاء الأصول الأولى لكثير من الأحكام الشرعية الواردة في القرآن الكريم ؟ ألم ينته الأصوليون من بحث صلة الإسلام بغيره من الأديان السماوية إلى القول بأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه ؟ ألم يعمل المسلمون سر الاتفاق بين الأديان السماوية الذي تشير إليه الآية الكريمة : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يحبب إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » . وسر الاختلاف الذي تشير إليه الآية الكريمة : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما أناكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » ، بعلم اجتماعية هي من النواميس الثابتة المستقرة ؟ ألم يكن من بين هذه العلل ما يربط الأحكام الشرعية بالبيئة ويجعل تغييرها وتبديلها أو نسخها يتبع العقل البشري في تقدمه والبيئة الاجتماعية في ترقيا ؟ (١)

فعل المسلمون كل هذا وفعلوا ما هو أخطر من هذا حين ذكروا أن

(١) رجع اخوان الصفاء ص ٣٢٢ - ٤٠٠ .

من عناصر الدين الإسلامى ما يرجع إلى العهد الجاهلى وأن رجالا ذكروهم قد سنوا ما أبقي عليه القرآن الكريم وجعله عنصراً من عناصر الدين الإسلامى ومن ذلك توريث البنات وجعل حظ الذكر مثل حظ الأنثيين وتحريم الخمر والسكر والازلام وغيرها من أمور ذكرها صاحب كتاب المحبّر في فصل عنوانه « من حكم فى الجاهلية حكماً فوافق حكم الإسلام . ومن صنع صنيعاً فى الجاهلية فجعله الله سنة فى الإسلام » .^(١)

إن علينا أن نبحث مصادر القصص القرآنى كما بحث الأصوليون مصادر التشريع . بل نحن هنا أولى بالرعاية ذلك لأنهم يبحثون عن مصادر العناصر الدينية وهى عناصر لا تتأتى معرفتها لما فيها من غيبية إلا عن طريق الرسل والأنبياء . ونحن إنما نبحث عن مصادر العناصر القصصية وهى عناصر من الوقائع البشرية التى يمكن معرفتها والوقوف عليها من غير طريق الرسل والأنبياء . وإن علينا أن نضع بين يدى الرجعيين والجامدين ومن على شاكلتهم هذه الآية الكريمة التى تشير فى صراحة إلى أن القرآن الكريم كان يرد بعض تشبيهاته وأمثاله إلى مصادرهما الأولى أو إلى التوراة والانجيل . (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) . وإن علينا أن ننشد الحقيقة الدينية وأن نضع بين يدى الناس نظرية سليمة تقوم أول ما تقوم على ملاحظة الظواهر المختلفة الموجودة فى القصص القرآنى

(١) المحبّر لأبي محمد بن المتوفى سنة ٢٤٥ ص ٢٣٦ — ٢٤٣ ط حيدر آباد سنة ١٣٦١

وتفسيرها تفسيراً صحيحاً وهي نظرية تحل جميع المشكلات التي وقف عندها المفسرون وتخرج بالقصص القرآني من دائرة التشابه وترد جميع اعتراضات المستشرقين والمبشرين ، أما ما على قومنا فهو أن يفهموا رأينا ومذهبنا ، وأن يعرفوا الحق للحق ، وأن يعلموا أن الدين الإسلامي يفتح أمام العقل الطريق وينير له السبيل ويمكنه من أن يضرب في التقدم الفكري بسهم وافر ، إن علينا ما تقدم وإن على قومنا ما تأخر فإن أبوا إلا المضى في العناد وإلا دعاء الأمة الإسلامية إلى ذلك القول الذي كان يقوله الحاهليون من قبل : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) عمدنا إلى الصبر وإلى الدفاع عن الحقيقة الدينية والله يرعانا بفضل له لأنه القائل : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .)

والخطورة الثانية لا تلبث أن تزول حين نبين للناس حقيقة ما أنزل الله وحين تؤكد المبشرين والمستشرقين أنهم أقاموا موازاتهم على أساس لم يقصد إليه القرآن الكريم ولم يجعله غرضاً من أغراضه وأنهم حين ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه قد تحكموا في الوسائل وفي النتائج العلمية لأن المخالفات التاريخية على فرض وجودها لا يمكن أن تكون الدليل على أن القرآن من عند محمد لم يحتم به الوحي ولم ينزل عليه من السماء .

إن موازات المستشرقين والمبشرين بين ما جاء في القصص القرآني من أخبار وما جاء منها في التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الأخبار والتاريخ يجب ألا تتم ويجب ألا تكون حتى يثبت قطعاً أن القرآن الكريم قد قصد من عرض هذه الأخبار معانيها التاريخية وأنه اختار ما اختار من الأشخاص والأحداث والحوار على أساس أن هذا هو الحق وأنه الذي

يتمشى مع المنطق التاريخي . أما اذا كان قصد القرآن من قصصه ليس نشر الوثائق التاريخية وليس تعليم التاريخ فإن صنيع المستشرقين والمبشرين يصبح لاقيمة له ولا خطر منه

والمسألة الأولى من مسائل هذا الفصل هي أن القرآن الكريم في قصصه لم يسلك مسلك التوراه فلم يقص أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصت هي وإنما اختار بعضهم ليقص قصصهم وأعرض عن الباقي ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وهو حين اختار لم يعمد إلى أخبار هؤلاء جميعها وإنما اختار من هذه الأخبار ما يتفق وحالة الدعوة الإسلامية وموقف النبي من قومه ومن هنا لم يكن ذلك التفصيل الموجود في التوراه . ثم إن القرآن الكريم لم يعمد إلى الزمن فيجعله العامل الاساسي في ترتيب هذه القصص كما عمدت التوراه . إن كل ذلك إنما يدل على الفارق الأكبر بين قصص القرآن الكريم وبين قصص التوراه وهو أنها قد قصدت إلى التاريخ أما هو فلم يقصد إلا إلى العظة والعبرة وإلى البشارة والإنذار وإلى الهداية والإرشاد وإلى شرح مبادئ الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وإلى تثبيت قلب النبي عليه السلام ومن اتبعه وزلزلة نفوس المشركين والكفرة وإلى غير ذلك من مقاصد وأغراض ليس منها التاريخ على كل حال .

والمسألة الثانية هي أن هؤلاء الذين اختارهم القرآن الكريم ليقص قصصهم لم يكونوا جميعا من البيئة العربية وإنما كانت السكثرة الكثيرة منهم من غيرها من بلاد المصريين والعبريين والسبثيين ومن بلاد اليونان والرومان وأقاموا فيها وأرسلوا إلى أهلها ووقعت أحداثهم في هذه البلاد وجرى الحوار فيما بينهم وبين من أرسلوا إليهم بلغات هذه الأقاليم بل جرى الحوار أحيانا بلغات قد لا نعرفها وقد لا يستطيع عقلنا القاصر أن يتصورها وإلا فبأى لغة تحدث الخالق جل وعلا وإلى كل من الملائكة وإبليس في قصة خاق آدم وبأى

لغة تحدث إبليس إلى آدم في قصة الخروج من الجنة . إنها الأمور التي لا نعرف منها إلا الفروض الخيالية (١)

هذه الكثرة الكثيرة من الرسل والأنبياء عليهم السلام من أمثال آدم ونوح وإبراهيم واسحاق ويعقوب وسليمان وداوود ويوسف وموسى وأيوب ويونس والياس وغيرهم لم يكونوا مجهولين في بيئاتهم الأولى وإنما كانوا معروفين تعرف كلا منهم بيئته وتنص أخباره على بنائها وتنقل هذه الأخبار إلا الأسم المجاورة ونعتقد أن ليس هناك من يدعى أن الذي قد حدث غير هذا وأن هذه الأمور من المسائل التي استأثر الله بعلمها وأنها من الغيب الذي لا يعرفه إلا من يطلعه الله عليه لأن هذا القول مما يخالف طبائع الأشياء .

كانت هذه الأشياء من الأمور المعروفة في بيئات الرسل عليهم السلام وفي البيئات التي انتقلت إليها هذه الأخبار والذي نريده الآن هو الوقوف على الصلة التي كانت قائمة بين هذه الأقاصيص وبين البيئة العربية عامه والمسكية بصفة خاصة قبل البعثة المحمدية وقبل نزول القرآن فهل كانت البيئة تعرف من أمر هؤلاء الرسل شيئاً أو كانت تجهل من أمرهم كل شيء ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال من الخطورة بمكان ذلك لأنها التي ستحدد لنا المسائل التالية .

(١) المصدر الذي صدرت عنه هذه العناصر القصصية التي استخدمها القرآن الكريم في بناء القصص فهل كانت العقلية العربية أو كانت بيئات أخرى هي بيئات الرسل والأقوام ؟ إن هذا هو الذي سيبيِّن لنا مذهب

القرآن الكريم في بناء القصة من حيث صلة العناصر بالبيئة فهل كان يذهب إلى بناء القصة على ما هو المؤلف من العناصر أو على ما هو الغريب النادر ؟

(٢) الصنيع البلاغي الذي قام به القرآن والدور الفني الذي لعبه في تاريخ الحياة الأدبية للأمم العربية وذلك بدوره سيمكننا من الوقوف على أسرار الأعجاز في القصص القرآني ويجعلنا نفهم الحكمة التي من أجلها تحدى القرآن العرب بالسور المفتريات .

(٣) الوصول إلى قاعدة أو نظرية يمكننا تطبيقها من حل المشكلات ورد الاعتراضات والخروج بالقصص القرآني من دائرة المتشابه ،

والصلة بين هذه الأفاقيص وبين البيئة العربية لتحديد مما يلي

(١) نوع نستطيع أن نسلم منذ اللحظة الأولى بأنه كان مجهولا بالبيئة المكية جهلا يكاد يكون تاما وذلك هو النوع الذي نزل ليثبت نبوة النبي عليه السلام والذي جاء إجابة عن تلك الاسئلة التي يتوجه بها المشركون من أهل مكة إلى النبي ليعرفوا صدق رسالته وصحة نبوته . ومن أمثلته قصص أصحاب الكهف وذى القرنين . والظاهرة الجديرة بالتسجيل في هذا الموقف هي أن هذا القصص لم يرد إلا مرة واحدة فهو لم يتكرر تكرر غيره ولم يحىء لأغراض كثيرة ومختلفة . والتفسير الذي نرى أنه الصحيح بالنسبة إلى هذه الظاهرة هو أن القرآن الكريم ما كان يذهب مذهب أولئك الذين يبنون أفاقيصهم على ما هو الغريب النادر من العناصر إلا حين تدعو إلى ذلك ضرورة ملحة كأن تكون الغرابة نفسها هي المقصد والغرض كما هو الحال بالنسبة إلى الأفاقيص السابقة . أما حين لا تدعو إلى ذلك ضرورة من الضرورات فإنه لم يكن ليبعد عن العقلية العربية .

(٢) ونوع نستطيع أن نسلم أيضا منذ اللحظة الأولى بأنه كان معروفا في البيئة العربية وذلك من أمثال هذه الأقاصيص التي وردت إشارات عنها في الشعر الجاهلي كقصص أحر عاد أو أحر ثمود وقصص الجن مع سليمان. أو تلك التي بدأت بالتعبير القصصى ألم تر فيما يذهب إليه المفسرون . (١)

والظاهرة الجذيرة بالتسجيل في هذا المقام هي أن أقاصيص هذا النوع قد كررت وجاءت في أكثر من موطن ولا أكثر من غرض وتشهد بذلك أقاصيص عاد وثمود أو هود وصالح . والتفسير الذى نعتقده صحيحا في هذا المقام هو أن القرآن الكريم كان يذهب مذهب من يبني الأقاصيص على ما هو المؤلف أو ما هو المشهور المتداول من مسائل التاريخ وقضاياها .

(٣) نوع ثالث وهو الأكثر قد يشتهر فيه القارئ فلا يدري أهو من النوع الأول أم هو من النوع الثانى وأمثله أقاصيص آدم مع إبليس وقصة الخلق وقصص لوط ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وداود وأيوب وغيرهم . وهو نوع نستطيع أن نصل إلى حقيقة الأمر في الصلة بينه وبين البيئة العربية وبخاصة المسكية بأمرين الأول طريقة القص والثانى التكرار .

(١) أما طريقة القص فنشعرنا بأنه كان معروفا ذلك لأن القرآن كان يجرى فى القصص أول الأمر على أسلوب موجز فكانت أقاصيصه أشبه بالآشارات إلى ما هو المعروف . أو كانت لفتات إلى أحداث تعرفها البيئة ولا تجهل من أمرها شيئا وذلك هو الواضح تماما من مجموعة أقاصيص سورة القمر . ولعل مما يؤكد هذا الذى نذهب إليه أن القصص القرآنى كان يقصد

(١) راجع تفسير سورة الفجر فى كل من الرازى والكشاف

منه أول الأمر إلى الإنذار وإلى العظة والعبرة وكلها من المقاصد التي تطلب من الأحداث المعروفة حتى يكون للإنذار خطره وللعبرة أثرها .

(ب) وأما التكرار فإنه يؤدي إلى نفس النتيجة حين يفيد أن القرآن الكريم كان يجري على مذهب أدبي معين هو بناء القصة القرآنية من مواد معروفة ومشهورة ومتداولة في البيئة ذلك لأنه على فرض أن هذه المواد التاريخية ما كانت معروفة في البيئة العربية قبل البعثة المحمدية ونزول القرآن فإن ما نزل منها أولا كان يكفي بالتعريف بها وما نزل ثانيا وثالثا ورابعا ... الخ يعتبر من قبيل بناء القرآن للقصة على ما هو المعروف أو المشهور المتداول .

ومما يؤيد ما نذهب إليه أن دوران هذه المواد في القرآن كان يتبع الشهرة فالشخصية التي عرفت واشتهرت والأحداث التي شاعت في البيئة كانت أكثر المواد استخداما في بناء القصة القرآنية . وعلى العكس من ذلك الأحداث التي لم تعرف والشخصيات التي لم تشتهر . ولعله من هنا كانت شخصيته موسى أكثر دوراناً من شخصية أيوب مثلاً بل أكثر من أي شخصية أخرى . ذلك لأن موسى كان نبي اليهود ولقد كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني حتى لقد كان العرب أنفسهم يستشيرونهم في أمر محمد عليه السلام . وهذه السيطرة تجعلهم يقصون كثيراً أخبار موسى وفرعون وقليلاً أخبار غيره من الأنبياء إن مذهب القرآن فيما يتضح من الظواهر السابقة هو بناء القصة القرآنية على عناصر يستمدّها من البيئة أو من العقلية العربية وليس ذلك إلا ليكون القصص أشد تأثيراً وأقوى سلطاناً وإلا ليمضى القصص بين المؤلف العادي من الأحداث والأشخاص والغريب النادر من الأفكار والآراء .

مصادر القصص القرآني في الغالب هي العقلية العربية فالقرآن لم يبعث عنها إلا في القليل النادر ومن هنا جاءت فكرة الأقدمين القائلة بأن القرآن ليس إلا أساطير الأولين ذلك لأنهم نظروا فوجدوا الشخصيات القصصية والأحداث القصصية مما يعرفون ومن هنا أيضا كان كل من الرازي والنيسابوري في غاية اللباقة والدقة في الفهم حين فرقوا بين جسم القصة وهيكل الحكاية وبين ما جاء فيها من توجيهات دينية وحين قالوا بأن هذه التوجيهات هي المقصد الأول من القصص القرآني أما الجسم والهيكل فليست له قيمة كبيرة لأنه ليس المقصد والغرض وليس هناك ما يمنع من أن يكون الجسم أو الهيكل من أساطير الأولين . ولعلك لازلت تذكر نص الرازي الذي وضعناه بين يديك في الفصل الأول من هذا الباب عند حديثنا عن القصة الأسطورية . فإنه النص الذي نشير إليه في هذا المقام .

يأخذ القرآن كما ترى عناصره القصصية من البيئة العربية ويبنى من هذه العناصر أقاصيص هي التي نراها في القرآن الكريم وهي التي نريد أن نشرح ما فيها من صنيع بلاغي أو من عمل أدبي لعل هذا الشرح أن يبصرنا بما في هذا القصص من أسرار للأعجاز .

والعملية الفنية أو الصنيع البلاغي في القصص القرآني قد يكون في أسلوب القرآن وطريقته في رسم الأشخاص وفي تصوير الأحداث وفي إقامة الحوار كما قد يكون في توزيع العناصر القصصية وفي تحريكها الحركات التي تجعل كل عنصر قادرا كل القدرة على القيام بالدور الذي قدر له أن يلعبه في القصة بحيث تنتهي كل هذه الأشياء إلى المقاصد المطلوبة والأغراض المرجوة . وهذه الألوان من العمليات الفنية ستجدها مشروحة في الفصلين التاليين فصل العناصر القصصية وفصل تطور الفن القصصي

في القرآن الكريم .

وقد تكون العملية الفنية في أخذ عنصر واحد أو عناصر بأعيانها ورسمها من جوانب عديدة وتصويرها من مواقع مختلفه لتنتج من ذلك رسوم عديدة للشخصية الواحدة وصور كثيرة للحدث الواحد بحيث يكون لكل رسم طابعه الخاص ولكل صورة شخصيتها المميزة ثم في بناء الأفاصيص المختلفة على هذه الرسوم وهذه الصور . إن هذا الصنيع الأدبي هو الذي نراه فيما سماه المفسرون بتكرار القصص وما هو من التكرار في شيء وإنه الصنيع الذي يدل على هذه القدرة القادرة والقوة الباهرة التي لا يستطيعها إلا خالق مبدع والذي يعجز عن القيام به من لا يملك ناصية الفن ومن لا تجرى الأمور على يديه في سهولة ويسر ولعله من هنا تحدى القرآن العرب وتحداهم بالسور المفتريات ذلك لأنه بنى أفاصيصه على ما يعرفون من عناصره وبنى أكثر من قصة على عنصر واحد هو شخصية النبي أو الرسول وجعل لكل قصة غرضها الخاص ومقصدها الذي تصل حتماً بالقارىء إليه وكل ذلك من الأمور التي لا يستطيعها إلا من يقول للشيء كن فيكون .

وقد تكون العملية الفنية في شيء غير ما تقدم في تخلص العناصر التاريخية من أشخاص وأحداث من معانيها التاريخية ، وفي تحميل هذه عناصر بالعواطف الإنسانية أو البشرية والمعاني الدينية والخلقية والاجتماعية وشرح هذا العمل الفني أو الصنيع الأدبي يضطرنا إلى أن نمس المسألة مسألتين خفيفاً عند الأصوليين والبلاغيين .

يذهب الأصوليون إلى القول بالحقيقة اللغوية والحقيقة الشرعية وهم يقصدون بالأولى معاني الألفاظ كما هي اللغة . وبالثانية معانيها التي وضعها لها الشارع . ويضربون لهذا الصنيع المثل بألفاظ الصلاة والزكاة فلكل منهما

معناها في اللغة ومعناها في الشرع . ويذهب الأصوليون في الحديث عن هذا الصنيع إلى أبعد من هذا فيذكرون لنا أن دلالة هذه الألفاظ على المعاني الشرعية لا تحتاج إلى القرائن^(١)

ويذهب البلاغيون إلى أن أسرار الإعجاز الأدبي لا تسكون في المعاني اللغوية أو النحوية وهي المعاني الأولى وإنما تسكون في المعاني الثانية وهي التي يحتملها الأديب اللفظ أو العواطف البشرية التي تمتلئ بها الألفاظ والتراكيب ومن هنا يجعلون للنظم الفضل والمزية .

يقول ابن الأثير «... موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو والنحوى يشتركان في أن النحو ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والإعراب ألا ترى أن النحو يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ومن هنا غلط مفسروا الأشعار في اقتصارهم على شرح المعاني وما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواقع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .^(٢) »

وواضح أن ابن الأثير يرى الغلط كل الغلط في الوقوف على المعاني الأولى وشرح الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الإعراب . ويرى أن الفهم

(١) فواتح الزحمات ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) المثل السائر ص ٣

الدقيق النصوص الأدبية إنما يكون في الوقوف على ما فيها من أسرار الفصاحة والبلاغة أو بعبارة أخرى على ما فيها من فن أدبي جميل .

ويرى النقاد والأدباء أن الفضل والمزية في الأدب إنما يكونان بإحشاء أدبيه وإثارات فنيه يحملها اللفظ كما تكون في مقدار ما يعبر عنه من انفعالات وما يصور من أحاسيس ومن هنا نراهم يقدرون آثار الاستعمال وهي شيء بعد المعاني اللغوية كما نراهم يبحثون عن تلك الروح التي بثها الأديب في اللفظ ومنحه بها الحيوية .

يبحثون عن كل ذلك ومن هنا لا يرون الأدب أدبا ولا الفن فنا إلا بما فيهما من صور صادقة التعبير قوية التأثير ولعل هذا أو قريبا منه هو الذي أراده ابن الأثير حين قال : وبعد هذا فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج . (١) .

يبحثون إذا في الأدب والفن عن سر الإعجاز ويرون هذا السر في غير المعاني الأولى يرونها في المعاني الثانية أو فيما تحمل هذه المعاني من عواطف وتستثير من انفعالات .

والمسألة الآن فيما يخص المواد الأدبية في القصص القرآني هي هذه .

أقصد القرآن من عرضه لهذه المواد — أحداثا وأشخاصا — الدلالة الأولى أي فائدة الخبر كما يقول البلاغيون وهي معرفة هذه الأحداث

والأشخاص كما يقصد اللغوى معرفة مدلولات الألفاظ الأولى . أم قصد شيئا آخر ورام ذلك وبعده هو المعانى الثانية . هو تلك الآثار الأدبية فى النفس عن عرض هذه الأحداث والأشخاص عليها عرضا أدبيا فنيا لتثير الإنفعال وتوحى بالعبرة والعظة .

إن دراستنا لما سبق من قيم تاريخية ومن ألوان قصصية ومن مقاصد وأغراض تدل على أن القرآن لا يقصد بقصصه إلى المعانى الأولى ولا يريد تعليم الناس التاريخ أو شيئا عن الأحداث وإنما يقصد إلى المعانى الثانية وهى المعانى الأدبية أو البلاغية وهى الاستثارات العاطفية والصور الفنية الأدبية وغيرها مما يعده أصحاب الفنون والآداب ملاك الأدب وغاية البلاغة .

وإذا كانت هذه العواطف والانفعالات التى تستثيرها المواد الأدبية فى القصص القرآنى وهذه الأحاسيس التى تصورها هذه المواد تختلف فى موطن عنها فى آخر كان معنى ذلك أن القرآن يصنع فى هذه المواد ما يصنعه الأدب والفن دائما بالألفاظ وأنه يستخرج من هذه المواد الأدبية القصصية معانى أدبية تشبه استخراج المعانى المجازية من المعانى الحقيقية والصنيع هنا هو بعينه الصنيع هناك وأن هذه المواد وهذه الألفاظ فى الصنيع الأدبى القرآنى سواء .

كان هذا الصنيع الأدبى من القرآن محيرا للقدماء حين لم يتبينوا الأسرار الخفية للصور المختلفة التى يعرض فيها القرآن هذه المواد الجزئية حين يحدث أو يقص عن هذا النبى أو ذاك فى هذا الموطن أو ذاك ومن هنا شكوا من التكرار واجتهدوا فى تعليقه وأخذوا أنفسهم بقاعدة الترادف أو الانفاق فى المعانى وهذا هو الأمر الذى لا نرضاه .. وإذا كنا قد ضربنا لك

بعض المثل فيما مضى من قصص موسى وغيره فإننا نضع الآن بين يديك هذا المثل .

جاء في كتاب درة التنزيل وغرة التأويل مايلي قوله تعالى: قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ، وقال في سورة الحجر : « قال يا إبليس مالك ألا تسكون مع الساجدين قال لم أكن لا أسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فإنك رجيم . »

للسائل أن يسأل فيقول إذا كان هذا في قصه واحدة ووقع في كلام الله حكاية عما قال إبليس وعما قيل له عندما كان يظهر من عصيانه فلماذا اختلفت الحكايتان والمحكي شيء واحد ؟

والجواب ما قلته فيما قبله وأقوله فيما بعده من أن اقتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أدام الالفاظ بأعيانها وإنما المقصود ذكر المعاني فإن الالفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان اختلافها واتفاقها سواء^(١)

ونعتقد أن الإسكافي قد أحس بأصل المعنى بعد إذ وضع يده على الإشكال ولكنه لم يتهياً له من وضوح التفسير الأدبي وسر العمل الفني في دلالة الالفاظ والمواد الأدبية ما يحل به الإشكال ففصل بين اللفظ والمعنى فصلاً تحكيمياً .

إن الأساس الذي يفسر به الخطيب هذه الظاهرة هو الأساس الذي

سبق أن نقلناه عنه فيما مضى من أنه لاختلاف هناك . وواضح أن الإمام
الفاضل إنما ينظر حينما ينظر إلى المعاني الأولى في هذه السور وهذه التعبيرات
والمعاني الأولى ليست فيما نعتقد من الأمور التي يقصد إليها من قصص
القرآن .

إن ما يسميه البيانون بالمعاني الثانية وما يسميه المحدثون اليوم بإيجامات
الالفاظ ووقعها النفس والصور الأدبية هو المقصود من الدراسة الفنية
لأمثال هذه النصوص وهذا هو المقصد بعينه الذي لاشك في أن أنقرآن
المعجز قد جعله الأساس الأول في بناء القصة وتركيبها وفي جمع الأفاصيل
في السورة الواحدة . أي أن ذلك كله من صنيع القرآن ذو مغزى أدبي فني
ثم هو سر الإعجاز النظمي .

لنقرأ سويا هذه الآيات من سورة النمل . قال تعالى : « ولقد أرسلنا
إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم
تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا
اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في
المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله
لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا
مكرا ومكروا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنادمرناهم
وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظهروا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون
وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة
وأنتم تبصرون أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس
يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم

مظرا فساء مطر المنذرين قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله
خير أما يشركون . (١)

ولعلك قد لحظت أن هذه القصص لا تقصد إلى تصوير ما حدث بين
نمود ورسولها وبين لوط وقومه فذلك ليس هو الذى يقصد إليه القرآن
لأنه ليس إلا المعانى الأولى لهذه القصص

إن مقصد القرآن ليس إلا جعل هذه الصور مصدرا للانفعال والتأثير
وباعثا للأمن والخوف والرجاء .

إن الذى نقوله هو الأمر الذى يدل عليه القصد القرآنى وهو الذى
يتضح من تلك التوجيهات الدينية التى تنطق بها الآيات ، فقد قال تعالى
« وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليهم » وقال تعالى « لا تخف إني لا
يخاف لدى المرسلون » حين وجه الخطاب لمحمد عليه السلام فى الأولى ولموسى
عليه السلام فى الثانية .

وإني لا أعتقد أن هاتين القصتين نزلتا فى الوقت الذى كان ياتمر فيه
المشركون بالنبي عليه السلام وهذا هو الواضح من مناسبة قصة صالح ومن
الحديث غن المدينة وما فيها من تسعة رهط وعن التقاسم والتبئيت لكل ما
حدث فى مكة إذ هذه تكاد تكون صورة لما حدث من قریش وبذكره
المؤرخون وأصحاب السيرة عند حديثهم عن أسباب الهجرة . ثم هذا هو
الذى يتضح من حديث قوم لوط ومحاولتهم إخراجهم من القرية .

إن المقصود من هذه القصص فيما نعتقد ليس إلا بث الثقة والطمأنينة
فى نفس النبي عليه السلام وأن الله حافظه وناصره ومهلك أعدائه

للإنسان أن هذه الحادثة غير تلك لا أن هذه الصورة غير تلك وذلك من جرم الزيادة والحذف أولاً ثم من جرم العواطف والأحاسيس ثانياً .

انظر في هذه المواد الواردة في القصتين فتجد في الأولى وجاءه قومه وفي الثانية وجاء أهل المدينة ونجد في الأولى قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم وقال في الثانية قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين فحذف الحديث عن الطهر وحذف المنادى وهو القوم . وقال في الأولى فاتقوا الله ولا تخزون في ضيقي أليس منكم رجل رشيد، وقال في الثانية إن هؤلاء ضيقي فلا تنضحون واتقوا الله ولا تخزون من غير سؤال ذلك السؤال الذي يدل على الضيق بهم والاسى والاسف أن وقفوا منه هذا الموقف وهو قوله أليس منكم رجل رشيد .

إن الحادثة كما قلت واحدة فلماذا اختلفت الصور واختلفت التعبيرات الفنية والأدبية ؟

الإجابة سهلة يسيرة لو جرينا على القاعدة التي نجرى عليها في الدرس وهي الإعراض عن المعاني الأولى والبحث عن المعاني الثانية . إن القرآن هنا لا يقص ليعلم التاريخ أو يملأ أخباراً وإنما يقص لأشياء أخرى هذه الأمور هي التي تلعب دورها في تصوير الحادثة أو المادة القصصية كما تلعب دورها في فن بناء القصة وأسلوب عرضها .
ما الغرض من قصص سورة هود ؟

لقد ذكرنا هذا الغرض سابقاً ولا بأس من أن نعيده هنا وهو تثبيت قلب النبي عليه السلام كما حدث القرآن في ختام السورة ، وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وكان هذا التثبيت مخافة عدم المضي في

الدعوة الإسلامية كما حدث القرآن في مبدأ السورة ، فلعلك تارك بعض ما
يوحى إليك وضائق به ضدرك أن يقولوا ... الخ .

كان هذا هو السبب في إنزال قصص سورة هود . وكان أسلوب القرآن
في التثبيت هو الأسلوب الفني الذي يعتمد إلى الأيحاء والإفاضة وليس ذلك
إلا بعرض صور فنية تشبه هذا الموقف الذي يقفه نبي الإسلام عليه
السلام . وكان أن اختار الله ما يحدث الرسل ليريه كيف مضت الأمور
وكيف وقف هؤلاء الرسل مواقفهم التي تذكر لهم مع شدة حرصهم على
هداية قومهم وشدة أسفهم على أن يقف منهم قومهم هذه المواقف .

وأظنك الآن قد فطنت إلى السبب الذي من أجله كانت العبارات
هنا من العبارات التي تدل على قوة الصلة بين لوط وقومه فكانت العبارات
جاءه قومه . قال يا قوم . هؤلاء بناتي هن أطهر لكم . أليس منكم رجل رشيد .
إن هذه العبارات هي التي تحمل من المعاني الثانية ما يتلام وحالة النبي
عليه السلام وقصد القرآن .

إن هذا الصنيع مؤلم لاسيما من قومه . وإن أطهر لكم تدل على حرص
لوط على إبعاد قومه عن الضلال بترغيبهم في بناته وترغيبهم عن ضيفه
وإن أليس منكم رجل رشيد لتدل على متانة هذه الصلة وعلى الحسرة
والأسف أن يكون من قومه هذا الذي يحدث له ولضيفه . ولم
يسكن شيء من ذلك في قصة الحجر لأن قصص هذه السورة نزلت
لتشفي قلب النبي عليه السلام بقص القصص التي تطلعه على ألوان العذاب
التي تنزل بالمكذبين من أقوام الرسل عليهم السلام ومن هنا قال وجاء أهل

المدينة فكأن الأمر لا يعنيه وكأنه لن يحزن أو يأسف على ما ينزل بهم من عذاب . وكان هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين فكأنه قد ضاق بهم إلى الحد الذى يجعله غير مهمتهم منهم من حيث الترغيب والتنفير ولم يكن فى القصة يا قوم من أجل هذا كما لم يكن ذلك الاستفهام المؤلم أليس منكم رجل رشيد .

إن هذه الألفاظ التى تدل على العطف والحنان والتى تدل على حرصه على هداية قومه لم ترد فى القصة الثانية لأنها قصة العذاب .

وهكذا ترى أن المعانى الأدبية والفنية هى مقصود القرآن من القصص وهى الأمور التى يبحث عنها وهى الأمور التى تجعل الحادثة الواحدة تصور بصور مختلفة ويعبر عنها بعبارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات .

وإذا كان الأمر هو ما وصلنا إليه وكانت هذه العواطف والانفعالات تختلف فى موطن عنها فى آخر مهما تتحد المواد الأدبية وتشابه الأفاقيص القرآنية فإن النتيجة الحتمية لكل هذا هى الاعتراف بأن القرآن الكريم كان يخرج بهذه الأحداث عن أن تكون معبرة عن معانيها الأولى وهى المعانى التاريخية أو الإخبارية إلى المعانى الثانية وهى المعانى العاطفية أو الأدبية البلاغية أو الفنية وليس وراء ذلك إلا أن القرآن الكريم لم يقصد من أفاقيصه إلى التاريخ .

ويبقى من العملية الفنية أو من الصنيع البلاغى للقرآن فى أفاقيصه أمر لا بد من الحديث عنه ذلك الأمر هو طبيعة هذه العناصر القصصية ومدى صلتها بالحقيقة والواقع . فهل كان القرآن الكريم يستخدم هذه العناصر من أحداث وأشخاص على الصورة التى كانت تعرفها عليها العقلية العربية فى زمن النبى عليه السلام أو كان يرجعها إلى الصورة التى وقعت بها الأحداث وكان عليها الأشخاص فى الزمن الذى وجد فيه الرسل ووقعت فيه الأحداث .

هل كان القرآن في حديثه عن أحداث الفراعنة مع اليهود مثلاً واستخلاصه العظة والعبرة منها يعتمد على صورة فرعون في ذهن العربي أو كان يعتمد على تلك الصورة التي كانت في أزمان فرعون وموسى في أذهان اليهود والمصريين ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا بحث مسألة أخرى هي الأساس الذي كان يقيم عليه القرآن الكريم أسباب اختياره لهذه العناصر . فهل هو أساس المؤرخين الذي يقوم دائماً على اختيار الحق والواقع وما يشبهه العقل والمنطق ويقوم عليه الدليل والبرهان أو هو أساس البلاغيين الذي قد لا يعنيه الحق أو الواقع بقدر ما يعنيه أن تكون هذه العناصر مما يستهوى النفوس ويأخذ بمجامع القلوب ويسيطر على الأفئدة والألباب ؟

إن القدرة على التأثير هي الأساس الذي كان يلحظه القرآن دائماً في نفوس المعاصرين للنبي عليه السلام حين يستمعون إلى القرآن أو ما يلقي عليهم من كلام . ثم إنها الأساس الذي كان يعتمد عليه القرآن دائماً حتى في غير القصص من آيات الموعظة والعبرة وآيات الهداية والارشاد .

اقرأ معي هذه الآية . قال تعالى « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » وقال تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » وقال تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » فسترى القرآن يصور نوعين من الناس . نوع تبلد منه الحس فعبجز عن أن يتأثر

بالقرآن الكريم ومن هنا صورّه القرآن على أنه قد فقد أدوات الحس التي تنقل إليه المؤثرات . ونوع قد رفف منه الحس ودق الذوق فأنفعل وتأثر حين استمع إلى ما يتلى عليه من كلام الله . وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن القرآن الكريم يلفت منا الذهن إلى أن القدرة على التأثير أساس قوى من أسس الإستجابة وأن القدرة على التأثير سرّ قوى من أسرار الإعجاز .

ثم اقرأ معي هذه الآيات . قال تعالى « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أئكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

وأظن أنك قد لمست أن النفوس التي تأثرت قد ذهبت مذهبين فقوم زادتهم الآيات إيمانا وقوم زادتهم كفرا وقوم استبشرت نفوسهم وقوم ماتوا وهم كافرون . ومعنى ذلك أن الاستعداد النفسى فى الجماعات له دخل كبير لا على التأثير حسب بل على تحويل الانفعالات التى تستثار إلى انفعالات سارة أو انفعالات مؤلمة . وكل ذلك حسب الظروف والمناسبات أو حسب الأهواء والشهوات .

ثم أقرأ قوله تعالى « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » ، فسترى المسألة فى غاية الوضوح .

وهذه آية أخرى نحب أن نقف عندها . قال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » . وواضح أن القرآن هنا يصور قوة الانفعالات

المستثارة وأن هذه القوة تشتد حتى تصل إلى حد الخطر أحيانا فهو لاء يعرف في وجوههم المنكروهم يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا . وليس من شك في أن القرآن يعطينا الصورة القوية الواضحة لتلك القوة الساحرة التي تكن في الألفاظ والعبارات وفي الصور الأدبية وأن هذه العناصر الأدبية لها قوتها الساحرة في تحريك الأفراد والجماعات وأنها سلاح قوى في يد من يجيد استعماله ولعله من هنا ذهب القوم إلى أن القرآن سحر مبین .

ولعلك الآن تستطيع أن تفهم لماذا نهى القرآن المسلمين عن سب آلهة المشركين حتى لا يسب هؤلاء الله عدوا بغير علم . ولعلك تستطيع أن تفهم أيضا لماذا نهى القرآن النبي عليه السلام أو طلب إليه الإعراض عن الذين يخوضون في آيات الله . بل لعلك قد فهمت لماذا جعل القرآن المسلمين الذين يستمعون إلى الخائضين في آيات الله مثلهم في التهديد بالعقاب .

أعتقد أن السبب واضح بَسَّيْنَهُ وهو أن القرآن يعرف للفن الأدبي قدرته القاهرة وقوته الساحرة وأنه من هنا يخشى على المسلمين خطر أحاديث المنافقين والكافرين . قال تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذالك زيننا لكم أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » وقال تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكري مع القوم الظالمين » وقال تعالى « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهن بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا » .

اعتقد الآن أنك لن تختلف معي في كل ما تقدم وأنتك تتفق معي على أن تأثير المواد الأدبية في النفوس يستمد قوته من علاقة هذه المواد بالبيئة وباستعداد النفوس وأن كل هذا من الأمور التي صورها لنا القرآن الكريم.

على أن المسألة لا تقف عند هذا الحد فالأمر في القرآن أبعد غورا وأكثر عمقا ذلك لأن القرآن الكريم كان يلحظ هذه العلاقة التي يفرضها المجتمع وبقيمها بين الألفاظ والنفوس أو بين الصور الأدبية والنفوس البشرية عندما يختار هذه المواد ليعبر بها عما يريد .

انظر إلى الأساس الذي أقام عليه اختار هذه المواد الأدبية قال تعالى « إن يدعون من دونه إلا إنا وإنا يدعون إلا شيطانا مريدا » وقال تعالى « فاستفتهم أربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إنا نانا وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفي البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون » أفلا ترى أنه اعتمد في التفسير من عبادة الملائكة على ما كان معروفا في البيئة العربية مما هو من مسلمائها من كراهية للأنثى .

أعتقد أنك تسلم بهذا وأنتك تسلم أيضا بأن هذا الاختيار لمثل هذه المواد الأدبية لا يكون له هذه الجدوى في بيئة ليست الأنثى فيها هذه المنزلة النازلة . تصور أنه هذا القول قيل في بيئة تعرف للأنثى حقها وتقدرها قدرها وتعتقد أنها أجمل ما خلق الله .

ومثل ذلك تماما ما صنعه القرآن في اختيار المواد الأدبية المنفرة من جهنم خاصة تلك التي تعتمد على الصفات البشعة لألوان الطعام والشراب .

قال تعالى « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون » وقال تعالى « إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابئين فيها أحقبا لا يذوقون فيها بردا ولا شربا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا » وقال تعالى « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فالثون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم » وقال تعالى « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلوعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فالثون منها البطون ثم إن لهم عليها اشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لآلى الجحيم » .

وأعتقد أنك قد لمحت أن بعض هذه الأدوات الأدبية منفرد لا في البيئة العربية فحسب وإنما في غيرها من البيئات . ومعنى ذلك أن القرآن الكريم كان يختار من الصور الأدبية ما يمكن أن يكون من الصور العالمية التي تظل موحية والتي يظل لها فعلها القوي الساحر مهما تختلف البيئات وتتابع الأزمنة .

ولعلك أيضا قد لمحت أن هذا الأساس يقوم حتى ولو كانت هذه الصلة بين الأدوات الأدبية والنفس البشرية من الصلات التي تقيمها الجماعة على صور يخترعها الوهم ، يخلقها الخيال وإلا فما بال القرآن ينفرهم من شجرة الزقوم بتشبيهه طلوعها برؤوس الشياطين . إن هذه الصورة من الصور الخيالية الوهمية باعتراف القدماء من المفسرين . جاء في الكشف ما يلي « وشبهه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لا اعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير

فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان . كأنه رأس شيطان . وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله . كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه فشبّهوا به الصورة الحسنة قال الله تعالى ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم وهذا تشبيهه تخيلي^(١) ،

وجاء فيه أيضا مايلي : « لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان . أي المصروع . وتخطب الشيطان من زعمات العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . والخطب الضرب على غير استواء كخبط العشواء فورد على ما كانوا يعتقدون^(٢) ،

وهنا نستطيع أن نضع بين يديك مرة أخرى هذا القول من أقوال الأستاذ الإمام . قال رحمه الله : « وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكي عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله : « كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » وكقوله : « بلغ مطلع الشمس » وهذا الأسلوب مألوف فإننا نرى كثيرا من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لاسيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئا من تلك الخرافات الوثنية^(٣) ،

وأعتقد الآن أن المسألة قد وضحت في ذهنك وأنها كادت أن تستقر في نفسك وأنت لن تستطيع أن تنسك أن القرآن يجعل الأساس في اختياره للوادر الأدبية من صور وألفاظ قدره على التأثير كما أنك لن تنسك أن هذه القدرة إنما تستمد قوتها وحيويتها من تلك الصلة التي يربط فيها المجتمع بين هذه

(١) الكشف ج ٢ ص ٢٦٤

(٢) الكشف ج ١ ص ١٧٦

(٣) المنار ج ١ ص ٣٩٩

الأدوات وبين النفوس وأن هذا هو الأمر الذي فطن إليه القدماء من علماء البلاغة عند حديثهم عن الدلالات . جاء في عروس الأفراج ما يلي : « أى لا يشترط اللزوم العقلى الذى لا يتصور انفكاكه بلى لو اقتضى العرف العام أو الخاص ملازمة أمر لآخر وأطرد ذلك بحيث صار استحضار أحدهما مستلزما للآخر كفى ذلك فى اللزوم الذهنى وأعلم أن اللزوم العرفى هو اصطلاح البيانين لاحتياجهم إلى ذلك فى الاستعارة والكناية والتشبيه أما المنطقيون فإنما يعتبرون اللزوم العقلى ^(١) » . وجاء فى كتاب الإيضاح ما يلي : « ولا يشترط فى هذا اللزوم أن يكون مما يثبت به العقل بل يكفي أن يكون مما يثبت به اعتقاد المخاطب إما لعرف أو لغيره ^(٢) » .

وها هم القدماء كما ترى يجعلون لاعتقاد المخاطب أثره فى بناء الجمل الأدبية ويقولون فى غير تحرج إن القرآن كان يحىء على ما يعتقد الحاهليون وما يزعمون . وهو قول يشعرنا بأن ما فى الأقايصيص القرآنية من أحداث وأخبار لا يلزم أن يكون هو التاريخ ذلك لأن القرآن الكريم قد يكتفى بما تزعمه العرب وما تعتقده فى صورته البيانية المعجزة وليس يخفى أن القصة صورة من صور البيان العربى وأن القرآن الكريم قد اكتفى فى قصص أصحاب الكهف وذى القرنين بما كان يعتقده المخاطبون . ومن هنا لا يصح لمعترض أن يعترض على أن فى الأقايصيص القرآنية مخالفات للحق والواقع أو مخالفات للتاريخ .

إن اختيار القرآن لبعض الرسل دون بعض ، وإطالته الحديث عن بعض الرسل دون بعض ، وتأخير تصوير بعض الأحداث من حياة

(١) شروح التخليل ج ٣ ص ١٧٣ (٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٧٢

الرسول وتعجيله بتصوير بعض ، واختياره لغة المرسل إليهم لتكون لغة
الوحي والرسالة . إن هذا كله هو الدليل على أن القرآن لم يقصد من
قصصه إلى التاريخ .

وإن الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخلص العناصر القصصية
من أحداث وأشخاص وأخبار من معانيها التاريخية وجعلها صالحة كل
الصلاحية لاستثارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة ،
وتكون البشارة والأذار ، وتكون الهداية والإرشاد ، ويكون الدفاع عن
الدعوة الإسلامية والتمكين لها حتى في نفوس المعارضين . إن هذا كله هو
الدليل القوي على أن القرآن الكريم لا يطلب منا الإيمان برأى معين في
هذه المسائل التاريخية . ومن هنا يصبح من حقنا أو من حق القرآن علينا
أن نقسح المجال أمام العقل البشري لبحث ويدقق وليس عليه من بأس في
أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ، ولن تكون مخالفة
لما أَرَادَهُ اللهُ أو لما قصد إليه القرآن لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ ولأن
القصص القرآني لم يقصد إلا إلى الموعظة والعبرة وما شابههما من
مقاصد وأغراض .

إن المخالفة هنا لن تكون إلا مخالفة لما تتصوره البيئة ولما تعرفه عن
التاريخ ولم يقل قائل بأن ما تعرفه البيئة العربية عن التاريخ هو الحق
والصدق . ولم يقل قائل بأن المخالفة لما في أدمغة العرب من صور عن
التاريخ هي الكفر والألحاد . بل لعل هذه المخالفة واجبة حتى يكون تصحيح
التاريخ وخلوه من الخيالات والأوهام .

أعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحل مشكلات
المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين . وأعتقد أنك قد فطنت

إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما بالقصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام عن التاريخ وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع. كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردّها إلى الحق والواقع لأن القرآن الكريم كان يحىء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب وتعتقد البيئته ويعتقد المخاطبون .

وهنا قد تقول ما يقوله الكثيرون من أن هذا التفسير يعارض بعض نصوص القرآن . فهو يعارض وصف القصص القرآني بالحق . ويعارض آيات الافتراء . ولذا يجب علينا أن نقف عند هذه الآيات لنريك أنه لا تعارض . ونستطيع أن نبدأ بآيات الافتراء فنقول : - (١) إن آيات الافتراء لا تتعلق بالمواد الأدبية القصصية ولا بما في هذه القصص من صور للأحداث والأشخاص من حيث هي صور وإنما تتعلق بالقرآن كله من حيث هو كتاب ديني وصلته بالخالق سبحانه وتعالى أو بمحمد عليه السلام تتعلق بصاحب النص أهو الخالق أنزله على النبي عليه السلام أم هو النبي وهو الذي يفترى حين ينسب هذا القرآن أو هذه القصص إلى الله .

ذلك هو الأمر الذي تدور حوله هذه الآيات وهو الأمر الذي لم يغب عن بال القدماء من المفسرين ثم هو الأمر الواضح من نصوص القرآن الكريم .

جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته .. الخ » ، ما يأتي : « واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر وذلك لأنهم التمسوا منه قرآنا يذكره من عند نفسه ونسبوه إلى أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عند نفسه ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على

أن ذلك باطل وأن هذا القرآن ليس إلا بوحى الله تعالى وتنزيله فعند هذا قال فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان فى الدنيا أحد أظلم لنفسه منى حيث افتريته على الله ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك بل بوحى من عند الله تعالى وجب أن يقال إنه ليس فى الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم لأنه لما ظهر بالبرهان المذكور وكونه من عند الله فإذا أنكرتموه كنتم قد كذبتم بآيات الله فوجب أن تكونوا أظلم الناس (١) .

ثم هو واضح من نصوص القرآن الكريم الظاهرة فهم مثلا حين يقولون إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون یرد عليهم بقوله تعالى : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . » ومعنى ذلك أن القرآن قد نزل على النبى عليه السلام من عند الله فلم يكن إفكا افتراه وأعانه عليه آخرون .

والقرآن حين يطلب إلى النبى عليه السلام أن يجيب عن شبهات القوم فى هذا الافتراء يقول له قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ويقول قل إن افتريته فعلى إجرامى ومعنى هذا أن القرآن من عند الله ولا يستطيع النبى عليه السلام أن يفتريه لأن العقاب جزاء المفتريين ولا يملكون هم له من الله شيئا .

والقرآن حين يتهدد النبى عليه السلام وخصوم القرآن الكريم يقول ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقال أوحى لى ولم يوح إليه شيء .

والقرآن يصور قلمهم في شأن النبي عليه السلام والآيات على هذا الأساس : « انت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسه إن أتبع إلا ما يوحى إلى » ، « وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها » « إنما يعلمه بشر » ... الخ

المسألة كما ترى تتعلق بهذا الجانب في مسألة القصص القرآنى وهو جانب إضافة هذه القصص إلى الله مع أنها من عند محمد عليه السلام . ورد القرآن عليهم ينصب على هذا الجانب أيضا وهو أن هذه القصص من عند الله وليست من عند محمد عليه السلام .

وهنا نستطيع أن نقول إن الواجب العلمى يفرض علينا ألا نعمم في الحكم كما يفرض علينا أن نقف في بحثنا عن هذه المسألة في القصص القرآنى عند الحد الذى أراده القرآن الكريم وقصد إليه . إن قصة يوسف عليه السلام تكاد تكون القصة الوحيدة التى ختمت بآية يجرى فيها الحديث عن الافتراء . وهذه هى الآية . قال تعالى : « لقد كان في قصصهم لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . ومن البين أن القرآن يدل بهذه القصة وما فيها من أحاديث عن إخوة يوسف عليه السلام على أن القرآن قد نزل من السماء . ويحسن بنا أن نقف بالآيات عند هذا ولا تعدوه إلى القصص وهل ما تصوره هو الواقع أو صور الأحداث . لا تعدوه إلى هذا لأنه أمر مسكوت عنه وأقل ما يجب هو التوقف حتى يأذن الله .

(٢) أما الآيات التى يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة

« بالحق » من مثل قوله تعالى إن هذا هو القصص الحق . وجاءك في هذا الحق . فليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة إنما هي الأحداث التاريخية . بل لعل رأيا آخر هو الراجح وهو أن هذه الصفة إنما تطلق على المقصود من هذه القصص من أمثال التوجيهات الدينية والأغراض القصصية .

ونعتقد أنه من المستحسن أن نضع بين يديك هذا النص الذي يشرح حال هذه الصفة حينما تجيء مع الأمثال . جاء في المنار ما يلي « ثم ذكر تعالى أن الناس في ذلك فريقان » فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم « لأنه ليس نقصا في حد ذاته وقد جاء في كلامه تعالى فهو ليس نقصا في جانبه وإنما هو الحق لأنه مبين للحق ومقرر له وسائق إلى الأخذ به بما له من التأثير في النفس » (١)

وأظنك توافقني على أن وصف المثل بالحق لا يقصد منه بآية حال أن هذه الأمور التي يقصها المثل قد وقعت خارجا وحدثت فعلا وأن هذه الصور التي يقصها القرآن الكريم هي الصور التاريخية الكاملة لما يروى في الأمثال . وإنما يقصد بهذه الصفة كما شرحها صاحب المنار أن الأمثال تشرح الحقائق وتقررهما في الأذهان .

وهذا هو الذي نريد منك أن تفهمه من الصفة حينما يوصف بها القصص القرآني . جاء في الرازي عند تفسيره لقوله تعالى « إن هذا هو القصص الحق » ما يلي « والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة »

وجاء فيه أيضا عند تفسيره لقوله تعالى « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين مايلي » واعلم أن قوله تلك إشارة الى القصص التي ذكرها من حديث الألوف ... الخ أما قوله بالحق ففيه وجوه أحدها أن المراد من ذكر هذه القصص أن يعتبر بها محمد صلى الله عليه وسلم وتعتبر بها أمته في احتمال الشدائد في الجهاد كما احتملها المؤمنون في الأمم المتقدمين.

وواضح من النصين أن الصفة تتعلق بالتوجيهات الدينية ولا تتعلق بالأحداث وجاء في الرازي أيضا عند تفسيره لقوله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما ثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق مايلي «... ثم انه تعالى بين أنه جاء في هذه السورة أمور ثلاثة الحق والموعظة والذكر . اما الحق فهو إشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوه » .

ويذهب القاضي عبد الجبار عند حديثه عن قوله تعالى « إن هذا هو القصص الحق » إلى أنه يجوز هذا الوصف لا باعتباره وصفا لجسم القصة وهيكل الحكاية أو ما فيها من عناصر تاريخيه وإنما باعتباره وصفا لما فيها من انفعالات عاطفية تدفع إلى الإيمان بما هو الحق من مسائل الدين ولذا نراه يعلق على الآية السكريمه بقوله « لأن ما ينذر ويخوف يوصف بذلك » (١)

ونعتقد أن هذا القول من الوضوح بحيث لا يصعب إدراكه أو التسليم به . لا يقصد من هذا الوصف إذا ما في القصص من جزئيات للأحداث وإنما يقصد منه وصف التوجيهات الدينية الواردة في القصة أو وصف المقاصد التي من أجلها نزلت الأقاصيص والأمثال .

ونستطيع الآن أن نلخص لك ما نريد الاتفاق عليه من مسائل هذا الفصل (١) المقصود من القصص هو استخراج الحقيقة الدينية التي يرمى

إليها القرآن الكريم من القصة الواحدة أو من مجموعة القصص الواردة في سورة واحدة .

(٢) أن استخراج هذه الحقائق يحتاج إلى نوع معين من الفهم هو ذلك الذي يجرى عليه العمل في تحليل القصص الآن تحليلًا أدبيًا . وهو الأمر الذي أشار إليه الزمخشري عند حديثه عن التمثيل وعن القصة التمثيلية وذكرناه أول هذا الباب .

(٣) أن الأحداث والأشخاص في القصص القرآني من المواد التي يكون بها البناء وهي مواد قد تكون تاريخية وقد تكون خيالية وقد تكون صورًا لما في الأذهان أي معتقدات ومسلطات .

(٤) أن هذه المواد كانت موجودة في البيئة غالبًا . وأن القرآن كان يعتمد على هذا الموجود كما هو وبحالته التي كان عليها لأن القصص القرآني لم يجرى للتاريخ حتى يصبح الأوضاع وإنما جاء للعظة والعبرة وفي هذه تكفي المعتقدات والمسلطات .

(٥) أن باب التأويل مفتوح لمن يعوزه مثل هذا التأويل إلى الاطمئنان .

الفصل الخامس

العناصر في القصة القرآنية

وتوزيع العناصر في القصة القرآنية يجري على ما يجري عليه التوزيع في كل قصة أدبية قصيره أو في كل أقصوه . وهو يجري في أمثال هذه الأعمال الفنية على أساس إبراز عنصر واحد وإلقاء الضوء القوي عليه حتى يحل مكان الصدارة من القصة أو الأقصوه وحتى يكاد ماعداه من عناصر أخرى أن يختفي أو يهمل . ومن هنا لن نجد عناصر الأحداث والأشخاص والحوار مجتمعة في كل قصة قرآنية وموزعة التوزيع الذي يجعل لكل عنصر منها قيمته وخطره في القصة بحيث لو اختفى لاختل التوازن الفني وانهد ركن من أركان البناء القصصي . لأن هذه الأشياء إنما تتطلب في الرواية وفي القصة الطويلة .

نعم قد نجد هذه العناصر مجتمعة وموزعة التوزيع الفني في قصة كقصة يوسف عليه السلام ولكن ذلك لم يكن الكثير الغالب لأن القرآن كان يجري في قصصه على أساس الأقصوه لا القصة الطويلة .

وتوزيع العناصر في القصة القرآنية كان يتطور بتطور الدعوة الإسلامية ويجري معها في مضمار ومن هنا كنا نرى عنصر الأحداث هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها إلى التخويف والإنذار . وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها إلى الإفاضة والأيحاء أو إلى تثبيت قلب النبي عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين .

وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأفاصيص التي يقصد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وهكذا .

وتطور الفن القصصى في القرآن له فصل خاص به هو الفصل التالى وهناك سنرى هذه المسائل مشروحة بتفصيل وليكتفى في هذا الموقف نريد أن نختار أفاصيص قرآنية تدور حول شخص واحد لئلا نرى منها كيف كانت عملية توزيع العناصر في القصة تتبع الدعوة الإسلامية في تقدمها وترقيها .

والقصص التي وقع عليها الاختيار هي قصة صالح أو ثمود فلنقرأ أمنها سويا هذه الأفاصيص . قال تعالى « كذبت ثمود بطغواها إذ أنبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها . » وقال « كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشر ائنا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلون غدا من الكذاب الأشر إنا مرسلو اتناقة فتنة لهم فارقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »

ففي هاتين القصتين الواردتين في سورتي الشمس والقمر - وهما من أوئل ما نزل من القصص حول ثمود وصالح - أن العنصر القصصى البارز هنا هو تصوير الأحداث ، ذلك لأن القصد من القصة تخويف المكذبين . وليس أبلغ من تصوير الأحداث ، التي تلم بالآمم والمصائب التي تنزل بالجماعات من بث الرعب وإشاعة الخوف ليعدل الإنسان عن موقفه ويترك العناد والتكذيب ، ومن هنا برز عنصر الأحداث واختفى ماعداه ، واختير لأنه الملائم لحال النبي أول عهده بالدعوة وإعلانه أنه رسول رب العالمين .

وإذا ما انتقلنا خطوة إلى الأمام وقرأنا قصص الأعراف والشعراء ،
والأولى « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره
قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله
ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد
عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون من الجبال
بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين قال الملأ الذين
استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل
من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم
به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا
إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم
وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين »

والثانية - « كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني
لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى
إلا على رب العالمين أتركون فيما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع
ونخل ظلمعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين فاتقوا الله
وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون
قالوا إنما أنت من المسرفين ما أنت إلا بشر مثلبنا فأت بآية إن كنت من
الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء
فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن في
ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم . لحظنا
تطوراً في فن البناء فنلاحظ تعدد الشخصية . فهنا صالح وثمود وهناك ثمود
فقط ، ونلاحظ الحوار بين النبي وقومه حيناً ، وبين بعضهم وبعضهم الآخر
أحياناً ، ونلاحظ المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وهم

الذين يصدون الناس عن الإيمان : ونلاحظ إلى جانبهم الأحداث وتحديدهم للنبي بطلب البينات .

نلاحظ إذا تعدد العناصر وإن ظل بعضها مهملاً كصور الأشخاص . ونلاحظ أن العنصر الجديد القوى هو عنصر الحوار . ونلاحظ أن موضوع هذا الحوار هو الأمور التي كانت تشغل ذهن العربي وقت إرسال محمد عليه السلام ونزول القرآن الكريم كما نلاحظ أن الحالة الموصوفة من فرقة وانقسام وصد الناس عن سبيل الله أو اتباع النبي إنما هي بعينها التي كانت تعانيها الجزيرة العربية في ذلك الوقت بالذات .

وإذا ما انتقلنا إلى قصة النمل وهي : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيدة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائرکم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لننبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كانت عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إني في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . » تبين لنا إلى أي حد كان القصص يحارى الدعوة الإسلامية ويتغذى بلبانها ، إذ نلاحظ هنا عنصراً جديداً هو عنصر الغرائز والعواطف وعنصر القضاء والقدر فقد بلغ الضيق حدّه بعد إذ تجاوزت الخصومة منتهاه وتطير القوم برسولهم إذ أصبح نذير فرقة وانقسام وكذب القوم الرسول وتحذوه ، فلم تأتهم البيته ولم ينزل بهم العذاب وإذا فليس هناك سوى طريق واحدة هي طريق الاغتيال ، ومن هنا كانت المؤامرة التي

يراد بها القضاء على الرسول وكان المتآمرون تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . وهنا يتدخل القدر فينجو النبي عليه السلام ويحل بقومه العذاب .

وهكذا نستطيع المضي في التدليل على الصلة بين الأثر الفني والبيئة أو بين الدعوة الإسلامية وقصص القرآن ، وأن توزيع العناصر كان يتبع هذه الظروف في كل قصة . ولكننا نكتفي بهذا القدر ونبدأ فنستعرض العناصر في القصص القرآني كله ونترك الحديث عن توزيعها في القصة الواحدة إلى تحليلنا لقصة يوسف في فصل تطور القصة في القرآن .

ونبدأ فنعترف بأننا سنهمل الحديث عن الموضوعات من أفكار وآراء . فقد سبق أن تحدثنا عن كل هذا في حديثنا عن القيم في الباب الأول من هذا البحث ، ولذا نبدأ بالحديث عن الأشخاص :

و يلاحظ في القصص القرآنية أن الشخصيات لا تكون من منظور واحد بل من منظورين أو ثلاثة . وهذا هو الملاحظ في الملائكة أولاً - الأشخاص

(١) الأشخاص .. ولن نقصد هنا بالشخصيات الأناسي من عباد الله فنقتصر الحديث عليهم ، ذلك لأننا إنما نقصد إلى كل شخصية وقعت منها أحداث وصدرت عنها عبارات وأفكار أدت دوراً إيجابياً في القصة وعلى هذا فسيكون من الشخصيات في القصص القرآني الملائكة والجن ، وسيكون منها الطيور والحشرات ثم الأناسي من رجال ونساء .

(٢) ونبدأ هنا بالحديث عن الطيور والحشرات ، ونلاحظها في قصة واحدة هي قصة سليمان من سورة النمل ، فنرى الهدد ونرى النملة ونلاحظ أنهما يقومان بما يقوم به الشخص العادي في القصة .

أما النملة فتحذر أخواتها وتخيفهم من أن ينالهم الشر أو يصيبهم الأذى ولذا تطلب إليهم دخول المساكن حتى لا يخطمهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين .

وأما الهدد فيقف من سليمان موقف المطلع الذي يعرف من أخبار الممالك الأخرى ما يجهل النبي والذي يعرف من أمر الملكية وقومها ما ممدّ بالأمر الغريب لدى سليمان ، حتى ليعتذر عن تخلفه أو غيابه بقوله أحطت بما لم تحط به وإليك المنظر من القصة . قال الله تعالى : « وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجئتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين إذهب بكتابك هذا فألقه إليهم ثم تولي عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم ... الخ . »

فالهدد هنا يقظ متنبه لكل ما يدور من الملكة وقومها من الناحية الدنيوية وهو يعجب من عبادتها للشمس وسجودها لها من دون الله ويرى أن الشيطان هو الذي زين لها هذا العمل وصدها وقومها عن السبيل ، بل يمشي إلى أبعد من هذا فيلفت الذهن إلى الأسباب التي تدفع إلى عبادة

الله من إخراج الحباء ومن عليه بما يخفى الناس وما يعلنون .

وهذا الموقف من الهدهد هو الذى أوقع الرازى وغيره من المفسرين فى حيرة ففسد نالهم العجب من صنع الهدهد الذى يدل على رجاحة عقله ونفاذ بصيرته وفهمه الأمور وفطنته الى ما لم يفتن اليه سليمان . يقول الرازى فى تفسيره للقصة : « البحث الأول إن الملحدة طعنت فى هذه القصة من وجوه وثالثها كيف خفى على سليمان عليه السلام حال مثل تلك المملكة العظيمة مع ما يقال إن الجن والانس كانوا فى طاعه سليمان وأنه — عليه السلام — كان ملك الدنيا بالكلية ... ومن أنه يقال إنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الا مسيرة ثلاثة أيام . رابعا من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وانكارهم سجودهم للشمس وإضافته الى الشيطان وتزيينه » .

ولو أن هؤلاء درسوا المسألة على أساس من الخلق الفنى للشخصيات ، وأنها ما وجدت الا لتؤدى أدوارها فى القصة لما وقعوا فى تلك الحيرة ، ولما كان دفاع واتهام .

على أن المسألة قد تحتاج — من الجانب الفنى — الى شيء من الإيضاح فنقول نلاحظ فى القصص الحديث أن بعض الأدوار الرئيسية فى القصة تستند الى الحيوانات وبسكون الحيوان فى مثل هذا القصص هو الشخصية الرئيسية التى تتوجه نحوها الأنظار وتلتفت اليها القلوب والاسماع . ولعلنا لم ننس بعد شخصية « لاسى » ذلك الكلب الذى يضطلع بالبطولة فى قصة « لاسى يعود الى منزله » وهى بطولة تتجلى فيما يرسم على وجهه من انفعالات إنسانية . وفيما يحركه من عواطف بشرية ، ويتحرك لاسى فى القصة كما

يتحرك الإنسان النابه الممتاز الذى يملك رقة عواطف البشر ودقة إحساساتهم
ويمتاز بما يمتاز به النابهون من ذكاء .

على أن المسألة لا تقتصر على الأدب الحديث ، ففي الآداب القديمة
ألوان وألوان . ويكفينا من الأدب العربى كتاب « كلیة ودمنه » ففيه المثل
الصالحه للدلالة على ما يقوم به الطير والحيوان من عمل ، وما ينطقان به
من حكم وأمثال .

أعتقد أن السبب فيما وقع فيه هؤلاء المفسرون من حيره هو اضطرابهم
بين ما يشاهدون ويلبسون ، وبين ما يذهب إليه بعضهم من حديث عن عقيدة
الخوارق والمعجزات .

(ب) الأرواح الخفيه : والملائكة ناس من الناس يجيئون فى الصورة
البشرية ولا يفطن إليهم غيرهم إلا بعد مرحلة من مراحل القصه ، كذلك
كانوا فى قصة إبراهيم ولوط وكذلك كانوا فى قصة زكريا ومريم . ونعتقد أن
قد كان ذلك فى قصة داود عليه السلام

جاء الملائكة إبراهيم ولوطا فى زى الأضياف وقام كل منهما بما يعتقد
أنه الواجب نحو ضيفه . أما إبراهيم فقد قام بواجب الإكرام ، فقدم الطعام
وأما لوط فقد خشى المعرة وخاف العاقبه لولا أن هدأته الملائكة . وفى كلا
الموقفين كان إبراهيم ولوط يجهلان القوم وأنكرهما الأول . وهذه قصة
كل منهما مع الملائكة قال الله تعالى « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى
قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل
إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط
وامرأته قائمه فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت

يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين
من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن
إبراهيم الروح وجاءته البشري يحادلنا في قوم لوط إن إبراهيم حلیم أواه
منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب
غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم
عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال
يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيبي أليس منكم
رجل رشيد قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال
لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد قالوا يا لوط إنا نرسل ربك إن
يصلوا إليك فأمر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمر أنك
إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا
جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند
ربك وما هي من الظالمين ببيعد .

وجاء الملك مريم في زى البشر فاضطربت وخافت واستعاذت بالرحمن
« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من
دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ
بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا
قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك ربك هو على
هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا . »

وهكذا يسمع زكريا النداء وهو فى الحراب ويدخل الملائكة على داود
فيفزع ويقوم المملكان هاروت وماروت بما يقوم به البشر فيعلمان الناس
السحر ويقولان لهم إنما نحن فتنه .

يوماً أو بعض يوم . قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير .

ونستطيع أن نذكر حكماً عاماً فنقول : إن القصص الذي يقصد فيه إلى التأثير بالأحداث تبرز فيه الحادثة ويختفي ما عداها ومما يختفي الأسماء وصور الأشخاص .

✕ (٢) في القصص الذي يبرز فيه عنصر الحوار ، والذي يقصد فيه القرآن إلى بث الآراء والأفكار وتقرير الدعوة الإسلامية ، ثم هدم العقائد الباطلة ومحو أثرها من النفوس يسلك القرآن طريقين : فهو حيناً يهمل الأسماء إهمالاً تاماً ويكتفي ببعض الصفات المبهمة أو العامة ، وذلك من مثل قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين قالوا إنا تطيرنا بكم لنن لهم متنهبوا للرجمتم ولئیسنکم منا عذاب ألیم قالوا طائركم معكم أنن ذکرتم بل أنتم قوم مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون وما لي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون أتأخذون من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون إني إذأ لفي ضلال مبين إني آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المسكرين وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون يا حسارة على العباد ما يأتيهم من

رسول إلا كانوا به يستهزئون » وقوله : « ثم أنشأنا من بعدهم قوماً آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . وقال الملا من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مبعوثون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرني بما كذبون قال عما ليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غناء فبعدها للثوم الظالمين » وقوله : « ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءهم رسالهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنألفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسالهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوك ليغفر لك من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسالهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبيلنا ولنصبرن على ما آذيتهمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا لرسالهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدواستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ .

X وهو حيناً آخر يذكر الأسماء ولكنّها في هذا الوضع تشبه الرموز التي
جاء بها ليمكن القارئ أو السامع من متابعة الأفكار والوقوف على
مجرياتها ، ولذا نلاحظ في أمثال هذه القصص ذكر القوم أولاً ، ثم ذكر
الألفاظ العامة المهمة كلفظ المرسلين ، ثم اسم البطل الرسول . وذلك هو
الواضح تماماً في قصص سورة الشعراء ، فتراه يقول كذبت عاد المرسلين ،
وهكذا . ونستطيع أن نكتفي هنا بمثل واحد لأننا نقلنا في الفصول السابقة
كثيراً من قصص هذه السورة . يقول الله تعالى « كذبت قوم نوح المرسلين
إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون
وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون
قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما على بما كانوا يعملون إن حسابهم
إلا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين قالوا
لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب إن قومى كذّبون فافتح
بينى وبينهم فتحة ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيتاه ومن معه فى الفلك
المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين
وإن ربك هو العزيز الرحيم . »

وعلى الجملة فالذى نستطيع قوله فى مثل هذا القصص الذى يقصد فيه إلى
الآراء والأفكار ، والذى يتخذ فيه الحوار وسيلة إلى ذلك ، إن عنصر
الشخصية فيه يكاد أن يختفى لولا بعض الأسماء وبعض الصفات ، وإن العنصر
القوى الذى يسير جنباً إلى جنب مع عنصر الحوار إنما هو عنصر الأحداث
وإن يكن العنصر الثانوى .

X (٣) أما فى القصص الذى يقصد فيه إلى التنفيس والإفاضة فإن الأمر
يتغير تماماً لا فيما يتعلق بالأسماء فقط ، بل فيما يتعلق بتوزيع العناصر ،

إذ تبرز الشخصية بروزا قويا وإن تفاوت هذا بتفاوت الظروف والأحداث. ونفصل هذا الأمر فنقول : قلنا في تدليلنا على أثر البيئة في اختيار الأشخاص ، وذلك عند حديثنا عن مصادر القصص القرآني ، إن القرآن كان واقعا في اختياره لعنصر الأشخاص ، وإنه كان يكثر الحديث عن الأنبياء المعروفين ويدير حولهم القصص ، وذلك كموسى وإبراهيم ، وإنه كان يهمل الآخرين حتى ليكن الحديث أو القصة بضع جميل ، وذلك كقصص أيوب ويونس . وقلنا إن القرآن كان يختار من الأحوال ما كان معروفا ، ولكيه حين ينطق الأشخاص ينطقهم بما يتفق والدعوة الإسلامية . ومن هنا نستطيع أن نقول إن الأحداث التاريخية المعروفة هي التي تميز إحدى الشخصيات عن الأخرى وإنه كلما كثرت الأحداث تميزت الشخصية ، ووضحت الصورة ، وكلما قلت جرى الأمر على العكس ، وجاءت الشخصية مهمة غامضة حتى ليصح أن يقال إنها شخصية كل رسول ، وإنها شخصية النبي العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نميز صور موسى وإبراهيم وعيسى من أحداثهم ، وموقعهم من أقوامهم ، أو من أرسلوا إليهم في سهولة ويسر . ونستطيع أن نميز شخصية نوح وصالح ولوط أحيانا ، ولا نستطيع أن نميزها أحيانا أخرى . والواقع أنه لولا بعض الأحداث المميزة ، كالطوفان والناقة والعجوز ، لأصبحت صور هؤلاء مهمة غامضة .

أما صور هود وشعيب مثلا ، ومخاورتهم الأقوام فهي الصورة العامة التي تصلح لكل رسول كما قلنا ، وهي التي تصلح للنبي العربي عليه السلام .

ويجب ألا ننسى في هذا المقام ما سبق أن ذكرناه عن حرية الفنان في حديثنا عن الصلة بين الأدب والتاريخ ، إذ قلنا هناك إن هذه الحرية تتسع

كلما أوغلنا في القدم ، أو اخترنا من الشخصيات ما كان مجهولا ، إذ عند ذلك لا تتعارض للصور الذهنية مع الصور الفنية ، فيكون الإيحاء أقوى ، والتأثير أشد ، وهذا هو الذى نلاحظه بالضبط فى تصوير القرآن لشخصيات الرسل والأنبياء فقد كان يعطى لنفسه الحرية التامة حين تكون المعلومات العامة عن الشخصية معدومة أو فى حكمها ، فيتحدث عن الأمور التى يقصد إليها فى الدعوة الإسلامية . ومن هنا كان يتجاوز الأسماء والصفات الحسية ويخرج إلى الإجمال والإبهام ليؤثر الأثر المطلوب .

فإذا كانت تصرفات الأشخاص حيال الأحداث التى تلم بهم تدلنا على عقليتهم ومزاجهم ، كان من المتوقع أن نرى فروقا بين هذه الشخصيات على هذا الأساس وهذا هو الذى حدث عند القدماء ، فنلاحظ أنهم يقولون عن شعيب وموقفه من قومه فى تفسيرهم لسورة هود إنه خطيب الأنبياء ، ونلاحظ شيئا مثل هذا من حديثهم فى أسباب النزول لآية « ما كان لنبى أن يكون له أمرى حتى يشخ فى الأرض » عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى حين يقولون - « أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيرى قال أخبرنا حاجب بن أحمد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعشى عن عمرو بن مره عن ابن عبدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر وجىء بالأسرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأصلك استبقهم واستأن بهم لعل الله عز وجل يتوب عليهم ، وقال عمر : كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله ابن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الخطب فأدخلهم فيه ثم اضرب عليهم نارا ، فقال العباس : قطعت رحمك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبه ثم دخل ، فقال ناس يأخذ بقول أبى بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول عبد الله ، ثم خرج عليهم فقال : إن الله

عز وجل إلمين قلوب رجال فيه حتى تسكون ألين من اللبن وإن الله عز وجل
ليشد قلوب رجال فيه حتى تسكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر
كمثل إبراهيم قال من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، وإن
مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك
أنت العزيز الرحيم ، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال ربنا أطمس على
أموالهم واشدد على قلوبهم ، ومثلك يا عمر كمثل نوح قال رب لا تذر على
الأرض من الكافرين ديارا .

إذ نلاحظ وصفهم لإبراهيم وعيسى بالركة والرحمة ، ووصفهم لموسى
ونوح بالشدة والقسوة ، ولكننا لا نريد أن نسلم بكل هذا إذ هي اللمحات
التي تلج سراعاً ثم يتركها الإنسان دون فحص وتدقيق ، إذ الواقع أن
المشابهة بين تصرفاتهم وأقوالهم وقعت كثيراً وفي مواطن مختلفة ، حتى لقد
لاحظ الرازي هذه المشابهة بين شخصيتين قويتين وفي أكثر من موطن قال
عند تفسيره لقوله تعالى : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم
ضراً ولا نفعاً ، ما يأتي : » أما قوله أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم
ضراً ولا نفعاً فهذا استدلال على عدم آلهيتها بأنها لا تتكلم ولا تنفع ولا
تضر ، وهذا يدل على أن الإله لا بد وأن يكون موصوفاً بهذه الصفات
وهو كقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر
ولا يغني عنك شيئاً وإن موسى عليه السلام في أكثر الأمر لا يعول إلا
على دلائل إبراهيم عليه السلام . وقال عند تفسيره لقوله تعالى : « فلما
توجه تلقاء مدين قال عسى أن يهدينى سواء السبيل » ما يأتي : « أما قوله
عسى أن يهدينى سواء السبيل فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام
إني ذاهب إلى ربى سيهدين ، وموسى عليه السلام قلها يذكر كلاماً في
الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام ،

وهكذا الخلف الصادق للسلف الصالح صلوات الله عليهم .

ولا نريد أن نعلل المشابهة بما عللها به الرازي من أن موسى يعول على دلائل جده ، وأن تلك سنة السلف الصالح ، وإنما نذهب إلى شيء آخر هو أن تلك المشابهة قامت لأن تلك الدلائل التي يرمى إليها القرآن لتقرير الدعوة وهدم الأوثان ، وإن الظروف المحيطة بالنبي العربي هي التي كانت السبب في أن ينزل القرآن بمثل هذه الآيات . وسنشرح المسألة بتفصيل عند حديثنا عن القصص القرآني ونفسية النبي العربي إن شاء الله .

ونستطيع أن نقول إن شخصيات الرجال في القصص القرآني تتميز بالأحداث التاريخية المعروفة ولا تتميز بالصفات الحسية أو الصفات المعنوية من خلق ومزاج ، وإنما لو حاولنا فهم ما يعرض لكل منهم من انفعالات نفسية وتأثرات عاطفية فلا بد لنا من فهم الظروف المحيطة بالنبي العربي ، والعوامل المؤثرة في الدعوة الإسلامية إذ هي التي تفصح لنا عن المواقف التي توضح لنا شخصية البطل وتجلى صورته . وهذا هو الذي يتمشى مع القصد العام لهذا اللون من القصص وهو التنفيس وتخفيف الضغط العاطفي وإنه ليتحقق كل هذا لا بد وأن تتشابه المواقف وتماثل الظروف .

وإذا أردنا أن نختار إحدى الشخصيات لندرسها ونوضح صورتها فلن نجد خيراً من شخصية يوسف . ذلك لأنها شخصية فنية واضحة الصورة ، بارزة المعالم ثم هي شخصية واضحة المعالم بارزة السمات تصلح أن تكون نموذجاً لرسم الشخصيات وتصويرها على أحسن ما جاءت في القرآن .

ونلقى يوسف أول ما نلقاه في صغير السن يجلس إلى أبيه ليقص عليه رؤياه « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ، ويسمع الوالد ثم يعلق بما يشاء ؛ ونفهم من

التعليق أن يوسف محل حسد إخوته وأنه من أجل هذا سلبق عنتا وبلاء .

ونرى يوسف وهو في غيابة الجب ، ونراه وقد التقطه القوم ونراه وقد بيع ، وهو في كل هذا يقف موقفا سلبيا لا يفصح عن عقلية أو عن خلقه ومزاجه . وإن كنا نحس أن الحظ قد التفت إلى ذلك البدوي وأنه في منزل سيد يريد أن يتخذه ولدا وأن عين الإله قد رعتة فمكنت له في الأرض وعلمته من تأويل الأحاديث .

ثم نلاحظ يوسف وقد بلغ أشده وأوقى العلم والحكمة وبدأ يتصرف التصرف الذي يدلنا على الخلق والمزاج .

ويوسف — قبل كل شيء — في تغيرت بيئته الاجتماعية فنزل الحضرة بعدئذ كان باديا ، ونزل في بيت تظهر فيه النعمة والثراء ، نزل في بيت العزيز ، وهو من البيوت المرموقة من القوم في ذلك الزمان . وحمل يوسف معه من البادية أخلاق البداية وصفاء الرعاة . ولاحظ يوسف — من غير شك — الفروق القائمة بين بيئته الأولى وبيئته تلك وأحدث له هذا — من غير شك — شيئا من الاضطراب .

ونلاحظ من مقام يوسف في بيت العزيز شيئا من الصلة بين السادة والأتباع فالعزيز يوصى به خيرا ، ويتوقع أن تكون منزلته بينهم منزلة الأبناء من الآباء .

ويوسف في ملبح الوجه ، حلو القسمات ، جميل الصورة إلى حد الفتنة والإغرام . فتقع في حبه أولا امرأة العزيز ثم بعدها جمع من كريمات النساء . ويوسف في فاضل ، يعرف للبيت حرمة ويحرص على الوفاء لسيده .

تراوده التي هو في بيتهاعن نفسه فتننازعه العواطف ، ولكنه يكبت غرائزه ويميت شهواته لينتصر ما في قلبه من حب للخير وصدق في العهد وإيمان بحق البيت وحرمة ويتكرر الموقف ، ويحس الفتي بما في نفسه من نزعات بشرية ويخير فيختار . يخير بين السجن أو التورط في الإثم فيقول رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا كانت الصبوة وكان الجهل والهلاك .

ويوسف رجل متدين ، قد أوتي العلم والحكمة وتفسير الأحلام ، ثم هو رجل محظوظ يدخل السجن فيدخل معه من القصر فتيان ، ويطلبان إليه تفسير الرؤى ويحاول أن يفيدهم فيعقد بينه وبينهم عواطف الإلف والمحبة ويدعوهم إلى عبادة الواحد الديان ، ويطلب إلى واحد منهم — بعد تفسيره الرؤيا — أن يذكره عنده ولكن الزمن قد مضى دون ذكر أو انبأه . ويرى الملك رؤياه ، ويسعف الحظ يوسف فتتحول نحوه الأبصار والاسماع ، ويحرص يوسف على إزالة ما علق بسمعته من أدران وأقذار ، وتعاد المسألة مرة ثانية بين يدي الحاكم ، وهو في هذه المرة رب البلاد وينتصر يوسف ويعرفه الملك فيختاره لنفسه ، ويطلب منه يوسف أن يجعله على خزائن البلاد ، ويستجيب الملك ويتصرف في خزائن الأرض فينقذ البلاد وما جاورها من بلاء وأي بلاء .

ويوسف رجل حريص نهان للنصر يحضر إليه إخوته فيعرفهم ويذكر ما كان بينهم وبينه من كيد ومكر ، ويحاول أن يحتال عليهم ويسعفه من طبعه الفطنة فيطلب إليهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، وبعدئذ يتحقق القصد حيث يسكدهم بأن يجعل السقاية في رحل أخيه ، ويبدأ بأوعيتهم قبل وعائه ، ويرى القوم الواقعة ، ولا يفتنون إلى الحيلة فيذكرون ما كان

بينهم وبين أبيهم من عهد وحرص على الوفاء ، وينتهى الأمر إلى المصارحة وإلى استحضار أبويه وأهله من بادية الشام .

ويستقبل يوسف أباه بما في نفسه من عواطف البر والحنان وعواطف التقى والإيمان ويرفع يوسف أبويه على العرش ويتوجه إلى ربه بالدعاء والابتهاال .

وأخبر آفان شخصية يوسف تمثل شخصية كثيرين من الاسرائيليين الذين يتركون أوطانهم وينتقلون إلى غيرها فينبه شأنهم ويعلو صيتهم ، وينهضون نهضات اقتصادية تمكن لهم وتجعلهم أهلا لما تطلق عليهم من أنهم ملوك المال .

° ° °

(٥) شخصيات النساء :- وشخصيات النساء في القصص القرآني يجمعها والرجال صفات ، ويفرقها عنهم صفات ، وإن كنا نلاحظ أن شخصيات النساء أكثر وضوحا وتعبيرا من شخصيات الرجال .

(١) والأمر الأول الذي يستوى فيه أولئك وهؤلاء هو العدول عن الصفات الحسية والجثمانية ، تلك التي تميز فردا عن فرد ، والتي توضح العلاقة بين المنظر الخارجي والصفات القلبية كالتقصير والمكسر والطول وعرض الأكتاف مع الغفلة والبلة وغير ذلك من علاقات .

(٢) وثاني الأمور هو العدول عن التسمية وإن اختلفت العلة هنا عنها هناك . فقد كنا نرى الأمر بالنسبة للرجال عدم الاهتمام بالشخصية كعنصر رئيسي في القصة ونرى العدول عنها إلى غيرها من العناصر كالأحداث والحوار . ولـ كننا هنا نجد المسألة تعليلا آخر هو سلطان البيئة والحرص على مراعاة التقاليد المعروفة في البيئة العربية إذ ذاك . والذي يدفعنا إلى

هذا التعليل هو ما نلاحظه من أن هذه الشخصيات النسائية قد قصد إليها قصدا لتؤدي أدوارا بعينها في القصة ، ولم يحىء بها لتكون رموزا أو كالموز لتجربى على لسانها الأفكار والآراء .

قصد القرآن إلى هذه الشخصيات كما هو الواضح من قصصه لئلا البيئة كانت تحصر على تقليدين . الأول أن تكون المرأة تابعة للرجل ،

والثاني ألا يذكر إسمها عاريا حين تتناول بالحديث في أى موقف وبين

قوم كلهم من الرجال . ولقد قصد من وراء ذلك إلى مصلحة المرأة ، ولا ينبغي أن ننسى أن هذا الرجل ليس هو الرجل نفسه بل هو الرجل الذى يتصل به المرأة . ويتضح الأمر الأول من موقف القرآن من حواء ، فهو لم يذكر إسمها

ولا مرة واحدة وهو الأمر الذى قد يدعوا إلى العجب ، خاصة وهى أم البشرية ، وأول امرأة فى هذه الحياة . ثم هى التى ساعدت على إخراج آدم من الجنة حين أغوته ثم أغرته بالأكل من الشجرة كما تقول التوراة

وعندول القرآن عن التسمية مقصود من غير شك . وعدوله عن أن

تكون البطلة فى الغواية والإخراج مقصود كذلك من القرآن ، فقد صورها

تابعة لآدم فى كل شيء . تابعة له فى النهى عن الأكل من الشجرة ، وتابعة

له فى الأكل وفى الخروج . وتلك التبعية هى التى كان يحصر عليها فى البيئة البنية

العربية إذ ذاك . مما نلاحظه من أن القرآن لم يذكر إسمها مرة واحدة . ولعل

الاعتناء بهذه المسألة فى الأمرين من استغراضنا لشخصيات النساء الواردة

فى قصص القرآن ، فنلاحظ أنه يعبر عنهما بالمرأة دائما ، وسواء فى ذلك

المتزوجات وغير المتزوجات . فهى إن كانت متزوجة امرأة فلان ، كامرأة

نوح وامرأة لوط وامرأة إبراهيم وامرأة عمران وامرأة العزيز وامرأة

فرعون وإن كانت غير متزوجة أطلقت من هذا القيد فليكن سبأ ، امرأة

ذلك . وهذا المصطلح المرأة ورد فى القرآن فى سياقات كثيرة . ولعل

الاعتناء بهذه المسألة فى الأمرين من استغراضنا لشخصيات النساء الواردة

تملكهم ، « وابنتا الشيخ ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . ومرة واحدة يعدل القرآن عن هذه الطريقة إلى التسمية المباشرة وذلك عند حديثه عن مريم ولم يكن ذلك إلا لظروف خاصة قاهرة . فقد كان القوم يعتقدون أن عيسى ابن الله . وكان القرآن يحاول القضاء على تلك العقيدة الباطلة ويثبت مكانها أمرا آخر هو أنه ابن مريم وأنه ولد من غير أب ، وأن مثله في ذلك كمثل آدم عليهما السلام . ومن هنا صرح القرآن بالإسم عاريا ومن هنا كرره وكرره على أنه ابن مريم ومعنى ذلك أنه ليس ابن الله .

وفي غير هذين تختلف المرأة عن الرجل في الدور الذي تلعبه وفي الصورة التي يرسمها لها القرآن . تختلف أولا في أنها لم تأخذ دورا رئيسيا في أية قصة من قصص القرآن ، فأدوار المرأة دائما أدوار ثانوية حتى مع مريم وحواء .

وتختلف - ثانيا - في أن المرأة ولو أنها تلعب دورا ثانويا في القصة ، إلا أنها واضحة الصورة متميزة المعالم ، وليكل منها طابعها الخاص .

فتذهب امرأة فرعون - مثلا - بما في المرأة من حرص على الأمومة وما يصاحب هذه الأمومة من بر وحنان ، ونلاحظ ذلك من موقفها من موسى عليه السلام - « وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . »

وتذهب امرأة العزيز بما في المرأة من أنوثة مكتملة ، وما يصاحب هذه الأنوثة من محبة للجمال وحرص على الفتنة والأغراء ، ونلاحظ ذلك من موقفها من يوسف ذلك الموقف الذي صورته القرآن - « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله

انه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلاح الظالمون ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وإنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفياء سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب اليم الخ وإن يسكن إلى جانب هذه الانوثة المكتملة التي يحوطها المسكر والدهاء وسعة الحيلة حرص على أن يكون عندها شيء من عزة النفس والاعتراف بالأخطاء وبيان أن ما وقعت فيه كان من الأمور التي لم يكن لها إلى دفعها قدرة أو سلطان ونلاحظ ذلك من سحر الجمل وفتنته حتى لقد خضع له عواذها من النساء - وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين ، فلما سمعت بمسكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكئا وات كل واحدة منهن سكيما وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكم الذي لم تفتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجن وليكونا من الصاغرين .

لما نلاحظه من حرصها على الفضل واعترافها بما اقترفت من إثم ومحاولتها تبرئة الفتى يوسف بين يدي المليك حين وجه إليها السؤال - قال ما خطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشى الله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم .

وتذهب ابنتا الشيخ بما فى الأنثى من محبة للفتوة وإعجاب بها وبما فيها من خفر وحياء ونلاحظ أن هذا الحياء يدفعهن إلى الحيلة فيحتلن على أبيهن

وعلى الفتى موسى حتى أقام بينهما وتزوج إحداهن ، ثم رحل بها إلى حيث أراد الله ويصور القرآن هذا في هذه الآيات ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم إمراةين تذودان قال ما خطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لها ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أحسر ما سسقت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك سجدنى إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل ،

وتذهب مريم بما في المرأة من حرص على الشرف والعفاف ، فهي تخشى الفضيحة والعار وتخاف من رسول ربها حين يمثل لها بشرا فتستعيذه بالله ان كان تقيا وهي لا تفهم مطلقا أن يكون لها ولد ولم يمسهها بشر ثم هي ليست بالبغى التي قد يدور بخلد لها شيء من ذلك ، واذكر في الحكمة مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتبذت من دونهم حجابا فارسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم اك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين وانجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحتملة فاتبذت به مكانا قصيا فأجاءها الخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

وتذهب ملكة سبأ بما في المرأة من ضعف مستحب ، وما فيها من سعة

الحيلة وحسن السياسة ، تلين إلى درجة تشبه الضعف ، وتستسلم إلى حد يكاد يكون خضوعا ، وهي المالسكة لناصية الحال ، ترسل الهدية إلى الملك لتكتسب بها يدا عنده ، لكنه يرفض ويأبى عليها إلا أن تأتى إليه ، فتذهب إلى الملك كالمستسلمة وتعلن أمامه أنها قد ظلمت نفسها ثم تعترف بأنها قد أسلمت معه لله رب العالمين .

ولسنا بحاجة إلى الحديث عن امرأة عمران وعاطفتها الدينية ونذرنا ما في بطنها محررا . ولا إلى الحديث عن امرأة ابراهيم وعجبها من أن يكون لها ولد وبعلاها شيخ وهى عجوز عقيم . ولا إلى الحديث عن موقف كل من امرأة نوح وامرأة لوط ، لأن كل هذه لفتات وصور واضحة لا تحتاج إلى وقوف طويل .

وننتهى من الحديث عن الشخصيات فى القصص القرآنى بقولنا

(١) إن مذهب القرآن فى رسمها وتصويرها كان المذهب الغير المباشر وهو الذى يذهب فيه القاص إلى عرض الشخص فى تفكيرهم وأعمالهم وحركاتهم ، ويترك لنا نحن التعرف عليها من طرق تفكيرها ونهج أعمالها وسبلها روحها حتى لكانها الشخص الذى نعاشره منذ زمن ، فعرفنا خلقه ومزاجه وطوايا عقله وخبايا فؤاده .

(٢) أن شخصيات النساء كانت تسيرها الغرائز والعواطف الأولية . أما شخصيات الرجال - من غير الأنبياء - فكانت تسيرها المصالح الخاصة والعقائد الباطنية والنزعات النفسية والإهواء . ومن هنا كانوا خليطا تخضع كل مجموعة منها لمؤثر من هذه المؤثرات . أما شخصيات الرسل فكانت تسيرها المثل العليا والمبادئ الدينية ومن هنا تشابهت صفاتهم العقلية وحركاتهم الفكرية وجرى على ألسنة الكثيرين منهم عبارات بعينها متحدة

الصورة أو متقاربتهما ، وإن كانوا - بين فترة وأخرى - يخضعون لما يخضع له غيرهم من الجنس البشرى فيخضعون ويفرحون ويتناولون الأعداء بالذم ويتوجهون إلى الله بالدعاء عليهم ، حتى لقد يصل الأمر أحيانا إلى درجة مخالفة المبادئ الدينية أو تعاليم العلي العظيم فآدم عصى ربه ونسى فلم نجد له عزما ، ولقد عصى آدم ربه فغوى ، - « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما »

ويوسف يحتال على إخوته ويجعل السقاية في رحل واحد منهم - فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون .

وسليمان تحتال لتكشف ملكة سبأ عن ساقها فيقول « قال نكروا لها عرشها لننظر أتتهدى أم تكون من الذين لا يهتمدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين قيل لها ادخلي الصرح فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير . »

(٢) أن تصوير الشخصيات في القصص القرآنى - خاصة في عهده الأول - لم يكن بالأمر الذى يعنى به ، ولعل القرآن في هذا اللون يمثل المذهب الفنى في رسم الأشخاص عند قصاص العربية فقد كان القوم يهتمون بالحادثة أكثر من اهتمامهم بالبطل ، ويهتمون بالفكرة والرأى أكثر من اهتمامهم بالأشخاص ، وهذا هو الواضح تماما فيما روى عن العرب من قصص . فنجد في العقد الفريد بعض هذه النوادر التى وإن تكن إسلامية إلا أنها قد حافظت - إلى حد ما - على الشكل والصورة فى لون من ألوان القصص والنوادر .

(٤) أن القرآن في حديثه عن الأشخاص كان يختار من مواقفهم ما يتفق وأحوال النبي العربي ليثبت نفسه ويسرّي عنها ما ألمّ بها من حزن وألم ، كما كان يختار من أحوالهم ، أو يجري على ألسنتهم ما يشرح عقائد الدعوة الإسلامية ويؤيد مبادئها . ومن هنا كانت شخصية النبي عليه السلام هي الأساس أو العامل الأول في الاختيار ، ومن هنا أيضا تقاربت الصورة واتحدت في كثير من الأجزاء . وهذا يلقي في الروع أن شخصية النبي العربي قد وضحت في هذا التخصّص أكثر من صورة غيره من الرسل والأنبياء ، وذلك هو الذي سنشرحه بتفصيل عند حديثنا عن القصص القرآني ونفسية الرسول عليه السلام .

ثانيا - الحوادث

والصلة بين الحوادث والشخصيات في القصة أقوى من أن يدلّ عليها أو يلفت الذهن إليها ، ذلك لأنهما العنصران الرئيسيان في كل قصة ، ثم نحن لانستطيع أن نتصور شخصا من غير أحداث تلمّ به أو تقع عليه . نعم نحن لانكر أن القصة في القرآن لقصرها قد تجعل العنصر البارز في تكوينها عنصر الحوادث ، وقد تبهم عنصر الأشخاص وتجعله عاما غامضا لكن ذلك لا يدفع الى التسليم بخلو القصة من هذا العنصر مهما يبرز العنصر الآخر ويقف وحده في الميدان .

وطبيعة الأحداث في القصص القرآني مختلفة فهناك

أولا - ذلك النوع من الأحداث الذي يكون نتيجة تدخل عنصر القضاء والقدر في القصة ، فقد يجيء الرسول فيكذبه القوم ويطلبون إليه

أن يأتي بالآيات البينات التي تدل على صدق دعوته وصحة رسالته، وتأنيهم
الآيات، لكنهم ينصرفون عنها ويظنون عند موففهم الأول من الكفر
والعناد. وقد يصل الأمر أحيانا إلى الحجاج في طلب الآيات والمعجزات،
فتتعدد الأمور ويشق على الرسول ما وصل إليه الأمر خاصة إذا كان نصيبه
منهم التهديد بالقتل والإغتيال إذ عند ذلك يتقدم إليه الذي تفضل عليه
بالاختيار وعلى قومه بإرساله إليهم هاديا وبشيرا، فينزل عليهم غضبه
ويصب عليهم نقمته جزاء ما قدمت أيديهم من مكر وكيد. وذلك من أمثال
ما تصوره هذه القصة كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا
تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر
إن أجرى إلا على رب العالمين أتركون فيها هنا آمنين في جنات وعيون
وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارحين فاتقوا الله
وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا
يصلحون قالوا إنما أنت من المسحurin ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن
كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها
بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب
إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم،

وثانيا — ذاك النوع من الأحداث الذي يعتبر من الخوارق أو
المعجزات وهي الأمور التي يجريها الله على أيدي الرسل أو يحدثها في
الكون إستجابة لدعوة أحدهم حين التحدى وطلب البينة وذلك من أمثال
الأمور الواردة في هذه القصة، إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي
عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهذوكلا وإذ
علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة

الطير بأذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بأذنى وتبرىء الأكمة والأبرص بأذنى
وإذ تخرج الموتى بأذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات
فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين وإذ أوحيت الجواريين أن
آمنوا بنى وبرسولى قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون . إذ قال الحواريون
يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال
اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم
أن قد صدقتنا ونسكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل
علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا
وأنت خير الرازقين قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه
عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين .

وإيراد هذين النوعين فى غير القصص القرآنى أو القصص الدينى يخرج
به عن واقعيته ومألوفه ويجعله قصصا خياليا ، لكنه هنا يبقى على ما هو عليه
من واقعى ومألوف ؛ ذلك لأن القوم كانوا يعتقدون بكل هذا فيطلبون
المعجزات للتصديق ويؤمنون بغضب الآلهة حين المخالفة ، ومن هنا كانوا
يتحدون الأنبياء حين لا يطمئنون اليهم وحين يرونهم غير أهل للتصديق
وذلك هو الواضح من قول قوم شعيب له — « قالوا إنما أنت من
المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا
كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال رب أعلم بما تعملون فكنذبوه فأخذهم
عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) ومن قول قوم محمد عليه السلام
« واذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء
أو ائتنا بعذاب أليم »

وموقف القرآن من هذين النوعين موقف يدعو إلى الإعجاب ، فقد

وقف عند الأحداث المعروفة للرسول والأقوام ، وكان في هذا الصنيع منه كسب عظيم للحجاسة العقلية والفكرية في ذلك الزمان وما تلاه ، فقد كان القوم يربطون بين تلك الأمور وبين كل دعوة يقصد منها إلى الرقي الفكري والتقدم الإجتماعي حتى لكأن كل رسول في عرفهم ملزم بإحداث مر خارق أو إنزال عذاب ، وكان هذا الربط قليل النفع ، عديم الجدوى من حيث الاقتناع والالزام ، وإلى هذا قصد القرآن الكريم حين قال « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » ولقد كان الأمر يحتاج إلى شيء من المهارة في سوق الجماعة نحو هذا الرأي في ذلك الوقت الذي كان يمتلئ فيه العالم العربي ببجو من الخرافات والأوهام ولذا عمد القرآن إلى الوقوف من هذه الأحداث عند هذا الحد وأكتفى بالاعتماد على الواقع النفسي ، ولم يعمد إلى الخلق الفني أو إلى الاختراع والابتكار ، وفصل بين الأمرين فلم يجعل الرسالة متوقفة على المعجزات « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ،

وصرح بأنه قد منع هذه البيّنات حتى لا يكون تكذيب فعذاب وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا

غير أننا مع إعجابنا منه بهذا الموقف من هذه الوجهة نلاحظ أنه قد حدد الحرية وجعل العمل الفني محصورا في رسم الحادثة وعرض الصورة وهذا بدوره مع اعتماد القرآن على التكرار كوسيلة من وسائل الاقتناع دفع إلى شيئين .

(١) انطاق الأشخاص المختلفين بعبارات واحدة نحو قوله (إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) وقول صالح (إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين)

(ب) التفنن في العرض والتنويع في الرسم ، فيصور الحادثة الواحدة بصور مختلفة ويعبر عن المعنى الواحد بالفاظ مختلفة . وكل تلك الظواهر لحظها القدماء وإن لم يوفقوا في تعليلها ، وقد سبق لنا أن ذكرنا أشياء عنها في حديثنا عن المعاني التاريخية

ثالثا - أما النوع الثالث والآخر فهو تلك الأحداث العادية أو المألوفة التي وقعت للإبطال رسلا كانوا أم غير رسلا باعتبارهم أفرادا من الناس يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق . والقصص القرآني ملي بهذا النوع من الأحداث ، ولعل خير ما يمثله قصة يوسف عليه السلام .

وهذا النوع لم يقف فيه القرآن عند حد رسم الحادثة وعرض صورتها بل جاوز ذلك إلى عملية الخلق الفني الأدبي . وقد أشرنا إلى شيء من ذلك عند حديثنا عن القصص التمثيلية ويكفي هنا أن نلفت الذهن إلى أمور أخرى من مثل حديث الهدهد والنملة ومن الالتفات الواقع في ثنايا القصص القرآني نحو أمور لم تقع بعد كالحديث بين عيسى وخالقه ، والحديث بين المستضعفين والمستكبرين مما صور على أنه سيحدث في الآخرة إن شاء الله .

وننتقل الآن إلى أمر آخر غير طبيعة الأحداث هو الربط بينها أو تسلسلها ولن نعيد هنا مرة ثانية الحديث عن قيد الزمان وعدم اهتمام القرآن به

بعد أن وضعنا القصد القرآني عند حديثنا عن القيم التاريخية، وبعد إذ وضعنا قصة لوط بين يدي القارئ لتدل على أن الزمان لم يجعل محوراً ترتبط به الأحداث، وإنما سنمضي إلى شيء آخر هو أن القصة القصيرة قد يهتم فيها بالحادثة من حيث تصويرها لتحدث أثرها في النفس وتستثير من الناس الانفعال وذلك هو الواضح من هذه القصة (كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)

وقد تتابع الأحداث على هذا النسق فتجرى سراعاً لتستثير الانفعال وتؤثر الأثر المطلوب من ألفه أو نفور وذلك من مثل قوله تعالى (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين فكلاً أخذنا بذنية فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته نصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وليس معنى هذا أن الأحداث لا ترتبط أصلاً برباط الزمن وإنما معناه أن تسلسل الأحداث في القصة يخضع للغرض أو القصد الذي من أجله نزلت القصة، فإن كان التخويف فإنه يقصد إلى الحادثة من حيث هي ويصورها لتلقى الرعب في القلوب وتبث الخشية في النفوس.

أما إن كان تخفيف الضغط العاطفي أو تثبيت قلب النبي جعل المحور الذي تدور حوله الأحداث هو الشخص نفسه، وتصور الحادثة على أنها الحادثة التي وقعت له فلم تضعف نفسه ولم توهن عزمه، وإنما مضى حتى كان النصر من عند الله وقصة إبراهيم - إلى جانب قصة لوط السابقة - تمثل لنا هذا

النوع من تسلسل الأحداث قال الله تعالى (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالو سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وإمراته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا قد إنه جاء أمر ربك وإنهم آتاهم عذاب غير مردود)

وقال تعالى (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأة في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم قال فما خطبكم أيها المرسلون قالو إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسمومة عند ربك للمسرفين فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم)

وقد لاحظ الرازي الفروق بين القصتين من جوانب كثيرة وذلك عند تفسيره لقصة الذاريات وكان مما قال (المسألة الرابعة قال في سورة هود فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم فدل على أن انكارهم كان حاصلًا بعد تقريره العجل منهم وقال ههنا قال سلام قوم منكرون ثم قال تعالى فراغ إلى أهله

فجاء بعجل ثمين فقربه إليهم بعد حصول الإنكار لهم اسكن الحال
في سورة هود بحكمة على وجه أبسط مما ذكره ههنا فأن ههنا لم يبين المبشر به
وهناك ذكر باسمه وهو اسحاق ولم يقل ههنا إن القوم قوم من وهناك قالوا
قوم لوط وفي الجملة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على
وجه الاضافة أبسط فذكر فيها النكتة الزائدة ولم يذكرها هنا . . . فإن قيل
لم قال ههنا الحكيم العليم وقال في هود حميد مجيد نقول لما بينا أن
الحكاية هناك أبسط

المسألة الرابعة — هذه الحكاية يعينها هي المحكية في هود وهناك قالوا
إنا أرسلنا بعد ما زال عنه الروح وبشروه وههنا قالوا إنا أرسلنا بعد
ماسألهم عن الخطب وأيضا قالوا هناك إنا أرسلنا إلى قوم لوط وقالوا ههنا
إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين والحكاية عن قولهم فإن لم يقولوا ذلك ورد
السؤال أيضا انتهى

والأمر هنا — كما ترى — واضح كل الوضوح من أن الاحداث لم
ترتب ترتيبا واحدا ولم يجعل الزمن هو المحور الذي تدور حوله ولم
تصور الاحداث بصورة واحدة وأنطق الملائكة بألفاظ مختلفة وعبارات
متفاوتة في الحادثة الواحدة والمنظر الواحد .

والمسألة عندي — ترجع إلى القصد الذي من أجله بنى القصة ففي
هود كان القصد التسمية عن نفس محمد صلى الله عليه وسلم وتخفيف الضغط
العاظمي ومن هنا عني القرآن بالتفضل على ابراهيم بأمر وساق القصة
هذا المساق فكان الحديث عن البشرى وذكر اسمه ، وكان الحديث عن
قوم لوط لا المجرمين وكان الحديث عن الحميد المجيد .

وفي الذاريات بنيت القصة للتخويف وهنا كان الإنكار سريعا ، ومن هنا وصف قوم لوط بالمجرمين . ومن هنا أسرع إلى الحديث عن قوم لوط لينزل بهم العذاب .

وهنا يجب ألا ننسى أن القرآن قد يعتمد إلى التنويع أحيانا حتى لا يمل القارئ أو السامع من التكرار .

كان محور الربط اذا هو القصد الذي من أجله بنيت القصة وكانت الحبكة الفنية قائمة على أن هذا التسلسل يوصل الى هذه النتيجة أو تلك وكان اختلاف التسلسل قائما على هذا الأساس .

و ننتقل الآن الى أسلوب القرآن الكريم في رسم الصورة أو عرض الحادثة . ونلاحظ أن القرآن لم يسلك طريقة واحدة وإنما نوع في قصصه ونلاحظ من تنويعه هذه الظاهرات .

(١) كان نقرأ أن يعتمد أحيانا على الألفاظ الفخمة الضخمة ذات الرنين القوي التي تؤثر بمبناها ومعناها ، كما تؤثر بموسيقاها . وكان يعتمد أحيانا إلى الجمل المسجوعة القصيرة الفقرات ليزيد من قوة الرنين فتملأ موسيقى الألفاظ الأذن نغما والقلب خشية ورهبة أو غبطة وسرورا . وذلك من أمثال هذه القصص : كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونوا وازدجر فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحن أبواب السماء بماء منهمر وجفرا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس

كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ونقد يسرنا القرآن
لذكر فهل من مدكر .

(٢) وكان يعتمد أحيانا أخرى على تتابع الأحداث تتابعا سريعا لتؤثر
فى النفس وتهز القواد وذلك من أمثال قوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان
والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما
مجرمين » ولعل هذا هو الذى دعا أيضا إلى أن يجمع ألوانا من القصص فى
سورة واحدة وذلك من أمثال قصص الأعراف وهود والشعراء والقمر .

(٣) وكان أحيانا أخرى وهو الغالب — يعتمد على الألفاظ السهلة
اللينة التى تصدر عنه كما تصدر الألفاظ فى الأجاديث العادية . يقصص وكأنه
يخاطب القوم بلغتهم العادية ويتحدث إليهم أحاديثهم المألوفة ويلاحظ فى
مثل هذا اللون أن حركة الأسلوب كانت تتمشى مع حركة العاطفة ولعل
خير ما يمثل هذه الخاصية هذا الجزء من قصص موسى « ولما ورد ماء مدين
وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال
ما خطبكما قالتا لانسق حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقا لهما ثم تولى
إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير فجاءته إحداهما تمشى على
استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص
عليه القصص قال لا تنف نجوت من القوم الظالمين قالت إحداهما يا أبت
استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين قال إني أريد أن أنكحك
إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما
أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك
أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل .

فنحن نلاحظ فى الجزء الأول وهو الخاص بورود موسى ماء مدين استعمال
الفعلين المضارعين يسقون وتذودان للدلالة على الحركة ولتصوير الأحداث .

حتى لكانها حاضرة مشاهدة ، وليس ذلك الا لأنهما الفعلان الدالان في هذا الجزء من الآية على ماسيقع وكأنهما ينهانا الى أن هذه الأحداث هي التي تهم موسى ولقد كانت هي التي استثارتها فعلا ، فالتناس يسقون وهاتان تذودان ولذا تقدم الى الفتاتين قائلا ماخطبكما . وأظنك تلحظ معي ما في هذا اللفظ من عنف وجزالة وما فيه من دلالة على تلك الخواطر التي أملت بذهن موسى ، واني لأحس منه الغضب على أولئك الذين يسبقون الفتاتين الى السقيا .

وتنطق الفتاتان بهذه الجملة التي تدل على ما في الآتي من ضعف وحياء يدفعانها إلى التخلف في مثل هذه المواقف التي يكثُر فيها التزاحم ويختلط فيها النساء بالرجال « لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وبهذه الجملة التي تستثير الرحمة وتستمطر الحنان « وأبونا شيخ كبير » . إنها الألفاظ سهلة لينة تداعب رقتها الأذان والقلوب . وإنها الجمال التي تنطق بها الآتي والآتي ليس غير ما في ذلك شك أو جدال .

ويأتي جزء آخر دال على الحركات الخاطفة السريعة التي يأتي بها الإنسان ليصل إلى ما وراءها « فسقى لها ثم تولى إلى الظل » ونلاحظ موسى هنا وفي هذا الظل متراخياً منهوك القوى مستسلماً ضارعاً « رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » . وتمشي الجملة مع هذه الضراعة ويطل الشعور الديني من وراء النداء ومن التصريح بالفقر والحاجة إلى الخير أمام الغنى الكبير .

على أن المقام بموسى لن يطول فقد جاءت إحداهما تمشى على استحياء . ألا ما أعذب هذه الحملة وما أخف وقعها على الأسماع والقلوب ، وما أقدرها على تصوير الحركة والانفعال ، تمشى وتمشى على استحياء . ثم ما أجمله من تعبير دال على خير ما في الفتيات من جمال هو جمال الخفر والحياء .

جاءته فقالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سبقت لنا ، وهل ينتظر موسى حتى يجيب إنه عجل لأنه فى حاجة إلى هذا الأجر وهو الغريب الفقير وإذا فلتطو الإجابة وليطو معها الطريق وليلق موسى الشيخ وليقص عليه القصص وهل يفعل غير هذا الغريب الطريد .

ويفطن الشيخ إلى ما بنفس الفقى المطلوب للشارف يقف منه موقف الشهم الكريم ويلقى إليه تلك العبارة التى ترد عليه الهدوء والطمأنينة وتشعره بأنه فى كنف شجاع كريم . « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . لا تخف هذه ينطق بها الرجل القوى الواثق حين يشمل الناس بعطفه وحنانه ، ونجوت هذه التى توحى إلى السامع باطمئنان النفس وراحة القلب وهدوء الخاطر ومن القوم الظالمين تلك التى تدفع عنه القلق النفسى وتأنيب الصمير .

وتبدأ مرحلة أخرى تصور الإعجاب بالفقى والاحتياى على لقاء الحبيب إذ تتقدم إحداهما إلى أبها وتطلب إليه أن يستأجره . ومن يستأجر ؟ إن خير من يستأجر القوى الأمين . وكأن الشيخ قد فطن إلى المراد فأسرع إلى تحقيق رغبة الفتاة وأقدم على الفقى بهذا القول المؤكد الذى يقطع على المتردد كل سبيل « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ... » ويستجيب الفقى وهو الشريد المقتنى ، وهو القاتل المستجير ويحجب بتلك الجملة التى تشعرنا باستسلامه وكأنه الطفل الصغير أمام الشيخ الكبير . « ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » ويتم الاتفاق ويشهدان الله لأنه على ما يقولان وكيل .

وكان القرآن يعتمد فى أحيان كثيرة على تصوير الحركات لتدل بدورها على الانفعالات قوة وضعفاً أو عنفاً وليناً ، وذلك من أمثال قوله تعالى : « ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم جاءتهم

رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أغواهم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ، وقوله : « فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » وقوله : « وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » وقوله : « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئاً وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم ، وقوله : « وامرأته قائمة فضحك » .

كما كان يستعين أحياناً بالعبارات التصويرية والصيغ الدالة على الانفعال نحو قوله تعالى : « قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً » وقوله : « فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » وقوله : « يا أبت لا تعبّد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً » وقوله : « فلما وضعته قالت ربني إني وضعته أثني والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثي وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » وقوله : « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم »

وعلى كل فيجب ألا ننسى أن أسلوب القرآن - في الغالب - هو أسلوب التخاطب فقد كان القرآن يلقى على القوم القاء ، ومن هنا وضحت في قصصه

أساليب الحديث والمشافهة خاصة في مبدأ القصة نحو ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم . ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه . وادل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها الخ .

ثالثا — « الحوار »

الحوار — وليس من الضروري أن يوجد الحوار في كل قصة فقد تخلو منه القصة وتمضى على أنها صورة لشخص أو رسم لحادثة وهذا هو الغالب في القصص القصيرة . ثم هذا هو الأمر الذي مضى عليه القرآن في كثير من قصصه الذي يقصد فيه إلى التخويف ، بل مضى القرآن إلى شيء آخر في دعايته للعقائد أو ضدها ، فأدار الحوار على أنه الخواطر النفسية التي تلم بالشخص والتي تنقله من طور إلى طور ليتخلص من عقيدة ويدخل في أخرى ، وهذا هو الأمر الواضح كل الوضوح في قصة إبراهيم من الأنعام : « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

لكننا — مع كل هذا — نجد كثيرا من القصص القرآني كان الحوار فيه عنصرا مهما — إن لم يكن العنصر البارز — وهو موجود على كل حال في كل قصة تعددت شخصياتها وذلك من مثل قصة يوسف وقصة موسى

في طه وقصة آدم في الأعراف ثم في مجموعات قصص سورتي هود والشعراء
وفي قصة إبراهيم في سورة مريم وفي غيرها من القصص الذي يرا به
التبثيت أو شرح مبادئ الدعوة الإسلامية . ونستطيع أن نضرب مثلاً
لذلك هذا الجزء من قصة موسى في سورة طه « إذهب أنت وأخوك بآياتي
ولا تنيا في ذكرى إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر
أو يخشى ، فإنا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا
إننا معكما نسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل
ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد
أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ، قال فمن ربك يا موسى قال
ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى قال
عليها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهدياً
وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى
كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها
نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال
أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتيناك بسحر مثله فاجعل
بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ، قال موعدكم يوم
الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فججمع كيداً ثم أتى قال لهم
موسى ويلكم لا تتفتروا على الله كذباً فيسحقكم بعذاب وقد خاب من افتري
فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ... الخ ،

وموضوعات الحوار فى القصص القرآنى هى الموضوعات الدينية فى
الغالب وهى الموضوعات التى بسببها قام بين النبى عليه السلام وقومه جدل
عنيف وتلك من أمثال الوحداية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا

من المسائل الملهمة وإحداث الأمور الخارقة أو المعجزات للدلالة على النبوة وغيرها . وقد سبق أن صورنا كثيرا من هذه الموضوعات في الفصول الأولى عند حديثنا عن القيم الدينية والاجتماعية فلا داعي لذكرها هنا . وطريقة القرآن في تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية ، فيحكي القرآن أقوال الأشخاص ويصدرها بقوله قال أو قالوا أو قالوا .

هذا التصدير يلفت ذهننا إلى أمر خاص بالحوار في القصص القرآني هو أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين ، فقد يكون بين كثرة . وكل هذه الأمور ملحوظة في القصص القرآني ، فيكون الحوار بين اثنين كالحوار بين إبليس وآدم وبين إبراهيم وأبيه وبين موسى وفرعون . ويكون بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر ، كما هو الواضح في قصة موسى السابقة ، فقد كان موسى وهارون الركن الثاني من أطراف المحاورة . وقد يكون بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر كالحوار الواقع في أكثر القصص القرآني بين الرسل وأقوامهم من مثل قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنني لكم نذير مبين أن لا تعبثوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال المشركون الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مث لنا وما نراك إلا الذي هم أراد لنا بآدي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنزل مكموها وأنتم لها كارهون ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله

خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ، قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون .

والقضايا التي يعتمد عليها القرآن في حواره ترجع في الغالب إلى المسلمات الدينية أو المسلمات بحسب العرف والبيئة ، ومن هنا تقوم على أساس اللذة والألم أو المنفعة والمضرة وأنهما يسد الإله المتفضل بمن بهما على عباده كل وما يستحق .

والأسلوب الأدبي في الحوار يخضع خضوعاً يكاد يكون تاماً لسمات الأسلوب القرآني كله ولذا نلاحظ فيه هذه السمات .

(١) إن لغة الأسلوب تختلف باختلاف الموضوعات والطور الذي نزلت فيه ، ومعنى ذلك أنه أسلوب فني يجري في كل قصة من القصص على وتيرة واحدة ، ومعنى ذلك أيضاً أن القرآن كان لا يسير نفسية المتحاورين يقدر ما يسير نفسية محمد عليه السلام ونفسية معاصريه ، ومن هنا خضع أسلوب القصص لتلك المميزات العامة المعروفة عن أسلوب القرآن في عهده المبكى والمدنى .

(٢) يلاحظ أنه في القصص الذي نزل أولاً ، كان يعتمد على الرنين الصوتي للألفاظ ، يعاونه في ذلك الفقرات القصيرة المسجوعة ، وذلك لأن عاطفة النبي عليه السلام كانت في ذلك الطور قوية جياشة مندفعة ، ومن هنا كانت الانتقالات الفجائية السريعة التي تظهر في القصة الواحدة ، والتي تظهر في مجموعة القصص الواردة في سورة واحدة ، ولذا كان القصص قصيراً جداً في هذه الفترة ، ويمثل هذه السمات قصص سورة القمر .

(٣) يلاحظ في القصص الذي يوضح العقائد الجديدة ، وبحاول أن يهدم القديمة أن السخرية بالافكار والعقائد تدخل فيه كعنصر فني ، وهي سخرية مرّة نافذة ، إذ تحاول أن تضع الحقائق الواضحة المتميزة أمام كل ذي عينين ليستفيق من غشيتها ، وليحس إحساساً قوياً بما هو فيه من ضلال ، وذلك الأمر يمثل قصة إبراهيم عن عبادة الأوثان ، خاصة في سورة مريم والشعراء .

كما يلاحظ في هذا الجزء شيئاً من هدوء العاطفة عند الرسول ، ونلس ما تحمل الألفاظ من حنان حتى يشعر القاريء أو السامع أنه في كنف شخص عظيم يظله برعايته وبحاول أن يصرف عنه القسوة والعذاب ، ويمثل هذا اللون قصص هود وصالح وشعيب من سورة الأعراف كما يمثل قصة إبراهيم في مريم .

(٤) في القصص الذي يأتي للتنفيس والإفاضة تكون العواطف جياشة قوية ، وإن تكن أميل إلى الاستسلام ، وذلك هو الأمر الذي تدفع إليه العلاقة القائمة بين الرسل والأقوام . ومن هنا تأتي الألفاظ هيئة مسترسلة لتجرى مع طبيعة العاطفة وما فيها من يأس واستسلام . ومن هنا نلاحظ من حين لآخر وجود العنصر الفني الديني الذي أسميناه فيما يأتي بالمناجاة ، وهي عبارات أصبحت تقليدية في بعض الأدعية الدينية .

وهنا قد نلاحظ اختلافاً في العاطفة بين المتحاورين ، فيبقى المستكبرون على ما عرف عنهم من قسوة وجبروت ، ويمضى الأنبياء بين بين وإن غلبت المسألة ، وذلك لما يمكن في قلوبهم من محبة الأهل والعشيرة ، ولما يرغبونه من انتصار الدين ، ولما يرجونه من إسعاد الأهل والعشيرة ، أو إسعاد من تحمله الأرض أو تظله السماء .

وعلى الجملة فالأسلوب القرآني في القصص يساير نفسية النبي محمد عليه السلام ، وستظهر هذه المسيرة في حديثنا المقبل عن القصص القرآني ونسبة الرسول عليه السلام ، وإن كنا نجعل الحكم الأدبي في هذه الجملة ، وهو أن أسلوب القرآن في التعبير عن أفكار الأنبياء والمرسلين أو الأقبام لا يشاكل الواقع وإنما يمشي على وتيرة واحدة في القصة الواحدة ، وهو الأمر الذي يحاول أن يعضي القصص على خلافه في هذه الأيام ، إذ نرى الحوار يُمثِّل نفسية المتحاورين وأسلوبهما في الحديث والمخاطبة وعقليتهما في التفكير وفي الحركات الذهنية . كما قد يمثل الحرف والصناعات .

ومرات قليلة تلك التي نجد الحوار فيها يمثل شخصية المتحاورين وما فيها من قوة وجبروت وما لها من عظمة وكبرياء ، وتلك هي المحاورات التي يقصها القرآن الكريم على لسان فرعون أو على لسان إبليس حين يحاور كل واحد منهما شخصية الرسول الذي قام إلى جانبه في القصة كشخصيات موسى وآدم عليهما السلام ، وهي مرات لا تجعلنا نطمئن إليها أكثر من اطمئناننا إلى الأمر الآخر وهو أن الحوار إنما يمثل أكثر من كل شيء الدعوة الإسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام .

رابعاً — « القضاء والقدر »

وقريب منهما الحظ وكل تلك عناصر وجدت وأدت دورها في بعض القصص القرآني وقد ضربنا لبعض هذا مثلاً فيما مضى عند حديثنا عن النوع الأول من الأحداث ، وشرحت كيف يدخل عنصر القضاء فينقذ الرسول عليه السلام من القتل والاضطهاد .

والآن نستطيع أن نضرب مثلاً آخر يوضح لنا أهمية هذا العنصر في بعض القصص وكيف يغير مصائر الأشياء. في قصة إبراهيم من سورة صافات يرى إبراهيم رؤيا تكاد تودى بحياة ابنه لولا قضاء الله وقدره : « وقال إني ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا هو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين . » وهو واضح كل الوضوح فى قصة يوسف وسنتناولها بالتحليل فى القريب العاجل إن شاء الله .

خامسا — « المناجاة »

المناجاة :

ومن العناصر الفنية فى القصص والى وجدت قليلا فى القصص القرآنى عنصر المناجاة ، وهو فى القرآن يأتى على صورة غير تلك التى يأتى بها فى أغلب القصص الأدبى ، إذ هو فيه يقوم على مناجاة الشخص لنفسه ليسمعه غيره ، ولكنه يأتى فى القرآن كما يأتى فى بعض القصص المسرحى الغربى كقصة « قلوب سعيدة » مثلا ، إذ ترى البطلة فيها تتوجه إلى صورة العذراء ضارعة داعية ونحس نحن — كما تحس البطلة — بأن هذا الدعاء قد قبل ، وأن الله قد استجاب . كما نحس بأن هذه العبارات تكاد تكون تقليدية بما فيها من ألفاظ قد ألفت فى مثل هذه المواطن ، وقد حملت بالعواطف الدينية القوية ، تلك التى تدفع بسر بيان الشعور الدينى بين النظارة والمتفرجين .

والمناجاة في القرآن تأتي على هذه الصورة ، فيتوجه النبي عليه السلام إلى خالقه ويتوسل إليه أن يستجيب لدعائه . وهذا موجود في قصة نوح حين دعا على قومه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ذيارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ، رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا » . وفي قصة إبراهيم : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ربنا إنني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . وفي قصة يوسف : « رب قد آتيتني من الملك وعلبتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين » .

هذه هي العناصر الفنية التي تقوم عليها القصة في القرآن قد صورناها كما لحظناها من القصص القرآني المتفرق ، وسنتناولها بالحديث في تحليلنا لقصة يوسف في نهاية الفصل المقبل إن شاء الله .

الفصل السادس

تطور الفن القصصي

قد يكون من اليسير على الباحث أن يمضى في مثل هذا الدرس في غير القصص القرآني ، فيرتب عند الأدباء الذين يقصد دراسة قصصهم آثارهم الفنية ترتيباً تاريخياً ليلاحظ الظواهر الفنية وتطوراتها من حيث السك ومن حيث الكيف ، وقد لا يجد الباحث حرجاً في أن يصل إلى تلك النتائج التي تتوقع من أمثال هذه الأبحاث ، فيرى مثلاً أن التطور الفني كان يتبع المراتم والتجربة ، كما يتبع الموهبة الفنية والقدرة على الابتكار والاختراع ، ذلك لأنه من المسلم به عند النقاد ورجال الأدب أن الفنانين يسدون حياتهم الأولى بتنمية ما فيهم من مواهب ومدارك فيقرمون أو يشاهدون اللوحات أو يستمعون إلى الموسيقى والغناء ، ثم على كل حال يلتمسون المتعة واللذة في كل أثر فني يعرض لهم ، ثم يتقدمون خطوة فيتبعون الاستمتاع واللذة بالمحاولات الأولى التي تقوم على التقليد والمحاكاة ، ثم يكون التخلص شيئاً فشيئاً والدخول في ميدان التجارب الخاصة ، وهذا قد يبرز ما في بعضهم من مواهب فيمثلون روح العصر ويظهر في فهم طابع البيئة ، وقد تلبس عصا الفن السحرية ما فيهم من عبقرية فتتجلى قدرتهم على الخلق والإبداع ، فينسجون على غير منوال سابق ، فينشئون المدارس ويصبحون أصحاب مذاهب .

هذه الأمور واضحة كل الوضوح والسبيل إليها لا عوج فيها ولا التواء
والنهاية لا حرج فيها ولا مشقة ما دمتا بضدد دراسة التطور الفني في القصص
الأدبي في غير القرآن . لكن المسألة حين تنتقل إلى ميداننا هذا تغسر وتشق
وتكاد تتغير طبيعة الأمور ، ذلك لأن القرآن قد نزل من السماء على أنه
معجزة العرب الكبرى وأوحاه خالق مبدع منزّه عن كل ما يتصف به البشر
من ضعف وقدرة يخضعان للتجربة والمران ، وإذا فلا سبيل إلى الوصول
إلى مثل هذه النتيجة ، ونحن لا نكاد نلمسها بالخيال حتى نرد عن القصد
ونقف مكتوفي الأيدي حتى لا حراك ولا كلام . لكن ما العمل والتطور
موجود لا شك فيه ؟

أعتقد أن الوصول إلى هذه النتيجة يسر لو اتسنا الطريق إليها فيما
خلف الأولون من رجال الفقه والأصول من حلول لمثل هذه المشكلات ؛
قال القوم بالنسخ ، وقالوا بالتدرج في التشريع . ومعنى ذلك أن أحكام
القرآن وشرائعه ومبادئ الدين وعقائده لم تنزل دفعة واحدة وإنما نزلت
على دفعات وأن الزمن قد طال بها حتى شمل مدة البعثة وزمن الإرسال ،
وهم يرون في هذين حكمة أرادها الخالق هي أن تستعد النفوس وتتهيأ
العقول والقلوب لتقبل الدين الجديد ، فلم يكن معقولا أن العربي الذي
تسلطت عليه العقائد واستبدت به التقاليد يتخلى عن كل تراثه الروحي على
ما فيه من زيف وهتان في يوم وليلة ، ولا أن يتسلل الدين الجديد إلى نفسه
فيستقر فيها ويتمكن منها في يوم وليلة كذلك . هكذا رأوا وإلى تلك
الحكمة ذهبوا ، وهي الأمور التي تتفق وطبيعة الدعوات

ولن نذهب نحن إلى أبعد من قولهم حين ندل على ما بالقصص القرآني
من تطور داخلي هو بعينه ذلك التدرج في التشريع فنحن نعلم أن القصص

القرآنى قد نزل لخدمة الدعوة الإسلامية شرح مبادئها ، وتوضيح عقائدها ، والدفاع عن النبي العربي والقرآن الكريم . على هذا جرى الواقع ، وبهذا نطق القوآن الكريم . وإذا كانت الدعوة الإسلامية قد نزلت فى فترة طويلة وجاء القرآن على قاعدة التدرج فى التشريع وإذا كان القصص القرآنى قد جاء لخدمة هذه الدعوة ، كان لابد من أن تصبح القصة صورة لهذه الدعوة تعبر عما يدور فى البيئة من آراء وأفكار وتصور ما يجرى فى البيئة من حركات عدائية أو سلبية وتدافع عن النبي عليه السلام والدعوة "دعو لهما لتثبت أركانها وتمكن لهما من قلوب الكفرة والمشركين .

كان القصص القرآنى إذن يتطور من حيث الموضوعات أو من حيث الأفكار والآراء حسب قاعدة التدرج هذه ، وهذا هو التطور الداخلى لعنصر من عناصر القصة .

وكان فى البناء كما كان فى توزيع العناصر كما وكيفاً يتأثر بهذا ، وهذا هو الأمر الذى سندل عليه هنا بعد إذ نتناول ظواهره وعلله بالشرح والتفصيل .

نلاحظ القصص القرآنى أول ما نلاحظه خبر أعاديا يصور حالة أو موقفا أو حادثة فنرى صحف إبراهيم وموسى " إن هذا لى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ، ونلاحظ حديث الجنود فرعون وثمود وما نزل بهم ويقوم عاد من المصائب " ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك صوت عذاب إن ربك لبالمرصاد .

وقد كان القصد الأول — أول عهد القرآن بالنزول — زلزلة المشركين وزعزعتهم من مواقف العناد ، ومن هنا نرى القرآن يعنى بالأقاصيص التى تبرز فيها الحوادث روزا قويا ويهمل ما عداها من عناصر القصة . ومن هنا أيضا نلاحظ أن الرنين الصوتى كان له أثره القوى من تصوير هذه الأحداث وكان ما يذكر فى القصة ليس أسماء الرسل الذين أرسلوا وإنما أسماء الأقسام الذين نزلت بهم السكوارث وأملت بهم المصائب ، الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية »

وفى ذلك الوقت أيضا كان جد لهم عن نبوة محمد عليه السلام واتهامهم له بالسحر أو الجنون وأنه كذاب أشر وأنه يتلقى الوحي من الله وأنه بشر مثلهم وكيف يتبعون واحدا منهم مع أن الرسول لا يكون من البشر بحال من الأحوال . ويمضى القصص القرآنى على طريقته من تصوير الأحداث والاستعانة بالرنين الصوتى فى أسلوب مسجوع وتظل أسماء الرسل فى الغالب مخفية وإن ظهرت فى الحين بعد الحين . ويمثل هذا الطور قصص سورة القمر والذاريات ، اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر فتول عنهم يوم يدع الداعى إلى شىء نكسر خشعا أبصارهم يخرجون من الأحداث سراعا كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداعى يقول الكافرون هذا يوم عسر كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعاه ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا

الأرض عيوننا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر
تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان
عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت عاد فكيف
كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر
تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا
القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا
تتبعه إنا إذا فى ضلال وسعر ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب
أشر سيعلمون غداً من الكذاب الأشر .

« وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه وقال
ساحر أو مجنون فأخذناه و جنوده فنبذناهم فى اليم وهو ملهم وفى عاد إذ أرسلنا
عليهم الريح العقيم ما نذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم وفى ثمود إذ
قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون
فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين وقوم نوح من قبل إنهم كانوا
قوما فاسقين والسماء بيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم
الماهدون ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا إلى الله إني
لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين
كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا
به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى
تنفع المؤمنين .

وبعد ذلك بقليل — حين تشتد الخصومة وبعد أن يقبل بعض الناس
على الدخول فى الدين الجديد — يدخل عنصر الحوار فى القصة ويكون
موضوعه موضوعات الدعوة الإسلامية من بحث ووحداية ، كما يكون

الدفاع عن النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم .

وإذا كان هناك حوار فلا بد من وجود أشخاص يقومون به ويوجهون المسائل الوجهة التي يتطلبها الدين الجديد وهنا تظهر أسماء الرسل ، ويقف القرآن من هذا العنصر عند هذه الأسماء حتى لا كأنها — كما قلنا سابقا — الرموز التي توجه سير الحوار وتعين أغراضه ومراميها .

وأطراف المحاورة هم الرسل وأقوامهم ، كما هو الحال في قصص سورة الشعراء كما قد يكون المستضعفين والمستكبرين ، ويمثل النوعين قصص سورة الأعراف . وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم من الخلق بسطه فاذكروا الآء الله لعلكم تفلحون قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأنتنا بما تعبدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عايسكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين فأنجيناها والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا الآء الله ولا تعشوا في الأرض مفسدين قال الملأ الذين

استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتول عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رساله ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين . وهنا نستطيع أن نسجل هذه الظواهر .

اولاً — تعددت العناصر ، فأصبحنا نجسد الموضوعات والأحداث والحوار والأشخاص ، ولا يزال عنصر الأشخاص أقلها بروزاً ، حتى لقد كان القرآن يتخلل عنه في بعض قصص هذه الفترة ، كما هو الحال في بعض قصص سور إبراهيم والمؤمنين .

ثانياً — بدأت هذه العناصر تتميز ويصبح لكل منها طابعه الخاص ، فالأحداث الآن تنزل بالمستكبرين أو المكذبين لا بقوم عاد أو قوم ثمود عامة ، كما هو الحال في قصص الطور السابق . والرسول هنا يحاور القوم ليقنعهم وليس سبيله التهديد والوعيد كما هو الحال في القصص السابق ، بل الأسباب الموجبة للعبادة والاستجابة لرسول الواحد القهار الذي ينعم عليهم . وموضوعات الدعوة التي يكفر بها القوم هنا معلومة ، وزاد عليها جديد هو تكذيبهم بما يتهددهم به من مصائب الدنيا وويلاتها . والبيئة التي يحيا فيها الأبطال واضحة كما هو الحال في قصة عاد ، فهم يتخذون من السهول قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً ، ثم تقدم الدعوة واضح ، فقد استجاب لها قوم وإن يكونوا من الفقراء ، ونفر منها آخرون وإن يكونوا من الأغنياء المستكبرين ، وقام بينهما حوار .

ثالثاً — أخذ الأسلوب يبتعد عن السجع قليلاً قليلاً ، فهو في الشعراء يشبه أن يكون سجعاً ، وهو في غيرها — كالأعراف — بدأ يسترسل ويقترّب من الأسلوب القصصي الذي يشبه أساليب الأحاديث والتخاطب .

رابعاً — يكاد قارئ القصة في هذا الطور يشعر بأن هناك شخصية مختفية وراء هذه الأسماء المهمة العامة ، وأن الموضوعات التي يدور حولها الحوار هي الموضوعات التي تعني بها هذه الشخصية . وذلك أمر سنشرحه في الفصل التالي عند حديثنا عن القصص ونفسية الرسول .

بعد ذلك أو في أثنائه يألم النبي عليه السلام ، ويحس بضيق شديد من جراء تلك العداوة التي قد تؤدي إلى التهديد بالنفي والإخراج من الأرض أو الاغتيال والتقتيل ، وينزل القرآن ليصور هذه الأحوال ويذهب عن نفس النبي ما ألمّ بها من ضيق ، ويمثل هذا اللون من القصص قصص سورة هود وطه والقصص والأنبياء ويوسف .

ويلاحظ في هذا الطور أن الشخصية الفصصية بدأت تتميز بعواطفها الخاصة وأحداثها التاريخية ، وأن البناء القصصي قد بدأ يتكامل ، وأن الحوار قد استقر وظهرت آثاره الفنية لا في توضيح الفكرة فحسب ، بل بما تستثيره الأفكار من عواطف وانفعالات تؤثر في مجرى الأحداث وحياة الأشخاص . واعتقد أن خير قصة يجب أن نقف عندها لنحللها ، ونبين ما فيها من عناصر قصصية وظواهر فنية هي قصة يوسف .

وقصة يوسف قصة إنسانية ، تلعب فيها العواطف البشرية الدور الأول فتؤثر في سير الأشخاص وتوجههم نحو الخير أو نحو الشر في حياتهم ، ثم هي قصة رحبة واسعة تتعدد فيها الشخصيات وتلون الأحداث ، ويجري فيها الحوار حيناً ليناً رقيقاً ، وتوزع فيها العناصر التوزيع الذي يتطلبه

الفن القصصي ، فهي موزعة بمقدار تظهر وتختفي حسب الظروف الطبيعية وحسب ما يحيط بالأبطال من أحداث .

ثم هي — من حيث البناء القصصي — أجد قصة في القرآن . ولعله من أجل هذا عدّها القرآن من أحسن القصص حين قال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

تبدأ القصة بتمهيد هو رؤيا يوسف : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين ، وكذلك يجتئيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم » . ونفهم نحن من هذا التمهيد ما سيدور فى القصة من أحداث تلم يوسف فنعلم أنه سيكاد له ، ونعلم أن هذا الكيد لن يقضى عليه فسينجيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه ويجعله نبيا كما أتمها على أبويه من قبل .

والتمهيدات تظهر بكثرة فى هذا الطور من القصص فنلاحظها فى قصة موسى فى القصص : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم بذيخ أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » . كما نلاحظها فى قصص عيسى فى مريم وفى آل عمران ، والتمهيدات هنا قصص بأكملها ، فقصة يحيى أو زكريا فى سورة مريم تمهد لقصة عيسى وتهيء لها

الأذهان . وقصة مريم في آل عمران توحى بقصة ولادة يحيى ، وهى بدورها أيضا تمهد لقصة عيسى عليه السلام .

تبدأ القصة بعد هذا التمهد فى شكل مؤامرة لاغتيال يوسف أو التنكيل به يدفع إليها الحسد والغيرة ، ونسمع حديث القوم حول الطريقة التى يريدون سلوكها ، وزاعم وهم يرددون الأمر بين جانبيين : جانب القتل ، وجانب الإلقاء فى الحبس ، ونفهم أن قصد رجح الأمر الأخير . ثم نلاحظ الجريمة وقد بدأت تأخذ شكلها العملى ، فهم يحتالون على أبيهم وهو يخشى أن يأكله الذئب وهم يؤكدون له أن هذا لن يكون ، وكيف يقع وهم عصبية وماذا يكون موقفهم لو أكله الذئب وهم غافلون إنهم إذا لحاسرون . وأخيرا يمشون بأخيهم إلى حيث أرادوا ويحيثون أباهم عشاء وهم ييكون .

ونلاحظ هنا نوعا من السذاجة يلائم العقل العربى أو العقل البسدى ، فقد كان خوف أبيهم من أن يأكله الذئب ، وكانت حيلتهم للتعمية والتضليل إخبار أبيهم أن قد أكله الذئب ، والتجاوب بين الخوف والاعتذار سذاجة فى البناء القصصى تلائم طبيعة البداوة فيما اعتقد .

ونلاحظ بعد ذلك تلك السحابة الرقيقة من الحزن التى تغشى نفس يعقوب ونسمع حديثه إليهم وإيمانه القلبي بأن أنفسهم قد سولت لهم أمرا ونرى استسلامه للقدر فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون .

ثم نمضى مع يوسف حين يلتقط من الحبس وحين يشرى بثمن بخس فنترك أرض فلسطين إلى أرض مصر ونترك البادية إلى المدينة ، ونستقر فى بيت من أعظم بيوتها هو بيت العزيز ، ونستمع إليه وهو يوصى به خيرا لعله أن ينفعه أو يتخذة ولدا . وهنا نحس أن يد العناية قد لمستة فكنت له فى الأرض وعلمته من تأويل الأحاديث ، ثم أخذت تدفع به إلى الأمام

لينتصر على الكيد والحسد ويفوز على من أرادوا التخلص منه لتستقيم لهم الأمور وتستقر في نفوسهم أسباب المودة والسعادة ويكونوا من بعده قوما صالحين .

وفي بيت العزيز تتعقد الأمور ، فيكون الصراع بين العقل والعاطفة وينتصر العقل لدى يوسف الفاضل ، وتحس المرأة بالهزيمة فيملؤها ذلك حقدا وغيظا ، ويبدأ — بالنسبة إلى يوسف — كيد جديد وتتهم امرأة العزيز بأنه قد أراد بها السوء وأن جزاءه يجب أن يكون السجن أو العذاب الأليم . وهنا يدخل القصة عنصر جديد هو عنصر الكشف عن حقيقة الجريمة ، ويستدل العزيز على أن فتاه لم يخنه من أن قيصه قد من دبر .

وتتوالى الأحداث وهي طبيعية متساوقة إذ يسمع النسوة بالمدينة عن الحادث فيأخذون — كما هي عاداتهن — يكثر الحديث عنه ، وتسمع امرأة العزيز بما يدور حولها وتفكر في مخرج من هذا المأزق ، فتهدى فطرتها إلى ذلك الاجتماع الذي ينقلب فيه العاذلات عواذر ، إذ يؤخذن بجمال الفتى ويرون أنه ليس من البشر وأنه ليس إلا الملك الكريم . وتحس امرأة العزيز أن قد ملكت ناصية الموقف فيعاودها حرصها على إشباع رغبتها الجنسية وتعلن أمامهن أنها قد راودته عن نفسه فاستعصم ، وأنه إن لم يفعل مات أمره به ليسجن وليكونا من الصاغرين . ويختار يوسف الفاضل السجن ويرى أنه أحب إليه مما يدعونه إليه ويخشى أنه إن لم ينصرف عنهن أن تغلب فيه النزعات البشرية والعواطف الجنسية فيصب إليهن ويفعل ما يفعله الجاهلون . وهنا تلمس يوسف يد العناية فتستجيب لدعائه وتصرف عنه كيد النساء .

وندخل مع يوسف السجن ونلاحظ ما أفادته العناية الإلهية ، كما نلاحظ ما فيه من شعور ديني ، فهو يعبر الرؤيا لصاحبيه ، وهو يدفعهم إلى التوحيد

وعبادة الواحد القهار ، وهو ينههم عن عبادة الأوثان ، وهو يطلعهم على أن ذلك من فضل الله عليه .

ثم يُسَحِّمُ الناجي من صاحبيه أمانة ويطلب إليه أن يذكره عند ربه وإن يكن الشيطان قد أنساه . ويعاود الحظ يوسف وتلبسه يد العناية حين يرى الملك رؤياه وحين يعجز الملاء عن تعبير تلك الرؤيا ، إذ عند ذلك يذكر الناسى من صاحبي يوسف يوسف ويذهب إليه مستفتيا ويحبيه يوسف إلى ما طلب ويعبّر له الرؤيا ويدل على القصد من البقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر واليابسات .

ويطلب الملك يوسف ويأبى هذا حتى يحقق الملك مبتغاه وحتى يرسل إلى النسوة ويقف منهن على الحقيقة فيما كان من أمره مع امرأة العزيز ، وتأتى هذه وتعلن أنها هى التى راودته ، وأنه صادق فى كل ما قال ، ويأتى يوسف ويطلب إلى الملك أن يجعله على خزان الأرض ويستجيب الملك وينال يوسف مبتغاه .

وفى مدة السجن هذه نلاحظ أثر العنصر النبوى أو الغيبي والدور الذى لعبه فى القصة . نلاحظه كما لاحظنا من قبل أثر العنصر الجنسى فى توجيه حياة يوسف من الكيدلة فى أثناء مقامه فى بيت العزيز إلى أن انتهى به ذلك الكيد إلى إلقاءه فى السجن حتى أنقذته يد العناية وخرج من السجن بسبب رؤية الملك .

وتعود بنا القصة إلى بعض الذكريات السابقة فتجتمع بين يوسف وإخوته مرة ثانية فيعرفهم وهم له منكرون ، ويحتال عليهم حتى يأتوه بأخ لهم من أبيهم ويحتالون هم بدورهم على أبيهم ليرسل معهم ذلك الأخ ، ويحتاط والدهم كما احتاط أولا ، ولكن القدر الذى يوجه القصة يدفعه إلى القبول

ويذهب الأخ إلى أرض مصر حيث يقيم يوسف . فأواه إليه وقال إني أنا أخوك فلا تبتس .

واختال يوسف عليهم مرة ثانية حين جعل السقاية في رحل أخيه وحين أذن المؤذن بأنهم سارقون ، وحين سألهم عن جزاء السارق ، فقد كان هذا الجزاء هو كل ما يطلب يوسف وما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله . ويحاول هؤلاء الإخوة دفع أحدهم مكان السارق وبأنى يوسف ويستعيز بالله أن يكون من الظالمين ويرحل الإخوة ويبقى كبيرهم فلن يبرح الأرض حتى بأذن له أبوه أو يحكم الله . ويطلب إليهم أن يخبروا أباهم بكل ما حدث ، وأن يدفعوه إلى السؤال عن صحة الحادثة بسؤاله أهل القرية التي كانوا فيها . أو العير التي أقبلوا فيها . وهنا تعاود الرجل أفكاره السابقة ويخبرهم بأن قد سولت لهم أنفسهم أمرا ؛ ويستسلم للقدر كما استسلم له أولا ويصبر ذلك الصبر الجميل الذي يحوطه الأمل بأن الله سيأتيه بهم جميعا .

وتغشى الرجل سحابة حزن قائمة حتى ليسكاد أن يكون من الهالكين . وتطوف بنفسه خواطر ملهمة فيدفع أبنائه إلى الذهاب للتحسس من يوسف وأخيه ويطلب إليهم الا ييأسوا من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . ويذهب هؤلاء ويلتقون بيوسف للمرة الثالثة وهنا يعيد إلى أذهانهم ما ألم بها من حيل المكر والكيد ، ويسألهم عن فعلتهم التي فعلوها وهم جاهلون . ويعرف القوم الحقيقة ويسألونه عن نفسه فيقدم لهم نفسه وأخاه وينبئهم بأن ذلك جزاء الصبر والتقوى وإن الله لا يضع أجر المحسنين ويعترفون بالخطيئة ويعترفون له بالفضل وإيثارة الله له عليهم . ويحس يوسف بما في أنفسهم من إحساس باللوم والتعنيف فيخفف وقع ذلك عليهم فلا تثريب عليهم . اليوم يغفر الله لهم وهو ارحم الراحمين .

ويعود الإخوة بقميص يوسف ويلقونه على وجه أبيهم فيرتد إليه البصر
ويقبل الأب والأبناء ويستقبلهم يوسف استقبال ابن البار والآخر العطوف
ويفيض الحنان من قلبه ، وتجري عبارات الشكر على لسانه ويذكر أباه بما
كان بينه وبينه من حديث ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال
ادخلوا مصر إن شاء الله آمين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا
وقال يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقاً وقد احسن لى إذ
أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين
إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم .

فأنت ترى هذه القصة بنيت بناء محكما من حيث فن البناء القصصى .
ففيها وحدة الموضوع ، وإحكام التصميم وفيها جودة الحبكة . وفيها الانتفاع
بالحوادث الاستطراضية .

وشخصية يوسف هى الشخصية الرئيسية التى تدور حولها الحوادث .
أما غيره من الشخصيات فتظهر وتختفى كلما دعت الحوادث ، فيظهر الإخوة
فى أرض فلسطين حيث كان يقيم معهم ويختفون حيث رحل . وتظهر السيارة
كوسيلة لانتقال يوسف من البدو إلى الحضر . ويمضون إلى غير رجعة حين
باعوه للعزير . ويظهر العزير وامراته وواحد من أهلها ونسوة المدينة .
كل يؤدى دوره المنوط به حين يكون مسرح الحوادث بيت العزير . ثم
يختفون حين ينقل يوسف إلى السجن . وهنا يظهر صاحبه ويتركه أحدهما
إلى غير رجعة حين يصلب . ويعود إليه الثانى مرة ثانية حين يرى الملك
رؤياه . ويظهر الملك على مسرح الحوادث حين نسمع رؤياه ويبقى حتى
يسلم خزان الأرض لىوسف بعد إذ يبرئه من دغواه ، ويحضر النسوة
ليعترفن بما قدمت أيديهن من شر لهذا الفتى . ويختفى الملك والنسوة ويظهر

اخوة يوسف مرة ثانية وبيقون على المسرح حتى ينقلون إلى مصر ومعهم
ابوهم ومن شاء .

فأنت ترى أن الشخصية الرئيسية هي شخصية يوسف وأن الشخصيات
الأخرى شخصيات ثانوية تظهر وتختفي حسب الخطوط أو حسب ما يؤدون
من أدوار . وقد حللنا فيما مضى شخصيتين من هذه الشخصيات هما يوسف
وشخصية امرأة العزيز .

والأحداث في هذه الشخصية أحداث عادية تقع لكل شخص وفي
كل زمان ومكان فليس يبعد أن يرحل إسرائيلي من بلد إلى آخر وهو فقير
معدم فتصير إليه مقاليد بيت المال ، وليس يبعد أن تقع كل هذه الأحداث
لشخص فيكون موقفه منها موقف يوسف حتى حادث المراودة ، ولا تستغرب
إلا حالة إلقاء القميص على وجه أبيه وارتداده بصيرا فتلك قد تكون من
خصائص الأنبياء .

وأمكنة الأحداث هنا متميزة بعض التميز ، فهي حيناً أرض فلسطين
التي كان يسكنها يعقوب ، وهي حيناً أرض مصر . بيت العزيز أو السجن
أو بيت المال .

والآراء والأفكار عادية ، وكذا ما كان يمضى بين الشخصيات من حوار
والانفعالات القوية والغرائز المؤثرة في مجرى الحوادث من الأمور
التي تؤثر أثرها في كل لحظة من لحظاتها في الحياة ، فالحقد والحسد والحب
أقوى العواطف والغرائز في القصة ، وهي الأمور التي تلبس في كل مجتمع
منذ خلق الله الأرض والسماء .

وعنصر الرؤى هو الذى يجرى قليلا مع الاتجاهات الدينية حيث تفسر على أنها الأمور القريبة من أمور الوحي ، وإذا فلا بد من أن تصدق وتقع في الحياة . وتفاوت الحظوظ موجود واختلافها على يوسف واضح حتى لا يحتاج إلى تفسير أو إيضاح .

وعلى كل فقصة يوسف من القصص الفنى المحكم البناء . وقد اجتمعت فيها كل العناصر القصصية التى توزعها القصص المختلفة فى القرآن .

وأخيرا نصل إلى الطور المدنى ونحس أن القصة فيه قد بدأت تكون فى الغالب معرض صور أو آراء ، فلا مقدمات ولا نتائج ، وإنما الأحداث تصور لتهز النفوس وتستثير العواطف . والآراء تذكر لتأخذ مكانها من القلب وتستقر فى طوايا القواد .

والقصة فى هذا الطور تمثل أيضا الصراع القائم بين النبي عليه السلام وأهل الكتاب ، ومن هنا كانت موضوعاتها دائرة فى الغالب حول منازل باليهود من مكر وكيد . وكيف سامهم فرعون سوء العذاب .

كذلك كانت تدور حول عيسى ومادار حوله من جدل بين أهل الكتاب والنبي عليه السلام فى قتله وصلبه . وأنه ابن أو ليس إله . وخير ما يمثل هذه الألوان من القصص قصة موسى عليه السلام فى البقرة وعيسى فى آل عمران .

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر أننا نلاحظ وجود قصص فى هذا الطور تصور أحداثا لكنها لا تصورهما بقصد استشارة الانفعالات والعواطف . خاصة تلك التى تخيف وترعب - وإنما التى تصور الأحداث

وكانها التجارب البشرية التي أخذت مكانها في الحياة وكان القصد هو استقرار
الفكرة في النفوس ، وإزالة تلك الغرابة التي تحسبها العقول وأكثر ما كان
يدور القصص في هذا الطور من تلك الناحية حول مسألة البعث وخير
ما يمثله قصة إبراهيم والطير وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عز وشها
وهما من قصص سورة البقرة ، وسبق أن نقلناهما في غير هذا المكان .

الفصل السابع

نفسية الرسول وقصص القرآن

ومما تقدم ، ومن نصوص القرآن الصريحة نستطيع أن نسجل بعض الحقائق لتكون العون والسند في الحديث عن نفسية الرسول عليه السلام .

(١) وأول تلك الحقائق تلك الوحدة ، أو ذلك التشابه التام القائم بين الأديان كلها في الكثير من عناصر الدعوات ، لاسيما ذلك الجزء الخاص بالوحدانية ومحاربة الأوثان ، أو بعبارة أعم في الجزء الخاص بالمعتقدات وذلك هو الأمر الواضح من قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يحبى إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » .

(٢) وثاني تلك الحقائق ذلك التشابه التام القوي بين حالة النبي عليه السلام وأحوال غيره من الرسل من حيث الاختيار والاصطفاء ونزول الوحي ، ومن حيث عمومية الإرسال في كل أمة سبقت الإسلام ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

(٣) وثالثها ذلك التشابه التام الواضح من عمومية النص في الآيات الكثيرة المصورة لمواقف الأمم المختلفة من رسلها العديدين ، وذلك من مثل قوله تعالى « يا حشرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . ومن مثل قوله « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحرا أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون » .

إلى غيرها من الأشياء التي سجلناها في حديثنا عن المعاني الاجتماعية في القصص القرآني .

ومعنى ما تقدم أن الجو القصصى الذى يمثل هذه الحقائق يمثل إلى جانبها نفسية كل رسول في كل عصر من حيث الجانب الفكرى الواضح فيما يدعو إليه من آراء ومعتقدات ، كما يمثلها من حيث الجانب الاجتماعى من وجود القادة والنذر أو الرسل والعظماء .

ومحمد عليه السلام لم يكن إلا واحدا من هؤلاء ، وإذا فهذا الجو الفكرى والاجتماعى فى القصص القرآنى يمثله كما يمثل غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وإذا تركنا هذا الجانب الذى توجد فيه الوحدة ، ويقوم فيه التشابه بين الدعوات والرسل إلى غيره من الجوانب التى لا تقوم فيها أو عليها هذه الأشياء النفث ذهننا إلى أمر آخر هو السبب الذى من أجله اختيرت أحداث بعينها من حياة بعض الرسل فى القصص القرآنى دون أحداث . والقرآن نفسه يدلنا على هذه الأسباب حين يقول « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق ... » وحين يقول (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، وحين يقول « نحن نقص عليك أحسن القصص أو حيناً إليك هذا القرآن » .

ومعنى كل هذا اختيار أحداث بعينها من تاريخ هؤلاء الرسل أو قصصهم كان مقصودا ، وأن هذا المقصد لم يكن إلا التنفيس والإفاضة عن النبى عليه السلام والمسلمين وإلا خدمة الدعوة الإسلامية . وإذا فالقصص القرآنى من هذا الجانب الذى تتفاوت فيه حيوات الرسل ويمضى فيه كل منهم إلى

نوع من الأحداث ثلاثم ظروفه وتتفق وطبيعة الدعوة وأحوال البيئة يمثل نفسية النبي عليه السلام من حيث أنها العامل الأول في الاختيار .

غير أننا يجب أن نأخذ حذرنا ونحتاط وأن نتذكر ما قلناه سابقا من أن الفروق المميزة لشخصيات الرسل في القرآن تقوم أول ما تقوم على هذه الأحداث المعروضة لكل واحد من هؤلاء . فتقوم مثلا على حادثة إلقاء إبراهيم في النار أو التقام الحوت ليونس ، أو إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بالنسبة لعيسى عليه السلام كما تقوم على فرق البحر بالنسبة لموسى وحادث الطوفان بالنسبة لنوح والناقة بالنسبة لإصالح ومعنى ذلك أيضا أنه يجب علينا أن نعرف هذا القصص القرآني من تلك الوقائع الخاصة إذا أردنا أن تبقى لنا الوقائع العامة التي قد تتكرر في أكثر من قصة ولأكثر من مناسبة لأنها التي اختيرت أكثر من مرة ، ومن هذا الباقي نستطيع أن نلبس صورة تلك النفسية التي عمدنا من أجلها هذا الفصل ، وهي نفسية محمد عليه السلام ، ولكن ليس معنى هذا أن تلك الوقائع الخاصة لا قيمة لها فذلك أمر لا أستطيع القول به ، ذلك لأنني لا أستطيع أن أنكر قيمة هذه الأحداث من حيث عملية الإفاضة أو الإيجاء ، ثم هي تدل على ما كان يعانيه الواحد من الرسل من ألم أو شقاء لكن هذه القيمة تقف عند هذه الدلالة وعند عرض الصورة التي قد تسرى عن نفس النبي عليه السلام ولا نعدوها إلى ما يجري خلفها من آراء وأفكار أو عواطف وانفعالات تستفيد منها في هذا الميدان بالذات .

والذي نستطيع أن نلاحظه بعد عمليات التعرّبة هذه ، وبعد استبعاد الأجزاء العامة التي تمثل نفسية كل رسول لما فيها من وحدة أو تشابه تام هو ما يأتي :

أولاً - نلاحظ أن بعض عناصر الدعوة الإسلامية قد توزعت القصص المختلفة فثبت بعضه عند رسل بأعيانهم ، ومضى غيره إلى أكثر من رسول وإن تميز هذا للرسول دون ذلك . فنلاحظ مثلاً أن قصص شعيب تلتزم الحديث عن بخس الناس أشياءهم ، وتطفيف السكيل في كل موطن وردت فيه من القرآن . ونلاحظ أن قصة لوط قد التزمت الحديث عن إتيان الذكران من العالمين . وسبق أن سجلنا بعضاً من قصص لوط وشعيب فلا داعي لذكرها في هذا المكان . ونلاحظ أن قصة صالح في النمل تصور فكرة اغتيال النبي محمد عليه السلام قال الله تعالى : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسبيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تقتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرمهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » ثم هي التي تتمشى مع هذه الآيات المصورة لنفسية النبي عليه السلام وأحواله مع قومه . قال تعالى : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجدوا لسننتنا تحويلاً ، وقال : « وإذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ولعل من مميزات هذه الصورة التي تؤذن بما كان في مكة من حرص على الانتقام والاغتيال والتي نعتقد أن قصة صالح تمثله أن نذكر هنا أطرافاً من قصص موسى تلقى ضوءاً على مانحس أنه قد وقع في البيئة الملكية في ذلك الزمان .

وأول هذه الأطراف محاولة بعض الناس الدفاع عنه وصرف الناس عن قتله واغتياله ، وتلك يمثلها جزء من قصة موسى في سورة غافر . يقال تعالى : وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد وقال موسى إني عدتُ ربِّي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدمكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزي إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعوني إلى النار تدعوني لأكفر بالله وأشرك به ماليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لا جرم أنما تدعوني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، إذ ليس من شك عندي في أن الجزء الأخير يحمل في طياته خصائص من الدعوة الإسلامية في مكة . خاصة الحديث عن عبادة الأوثان وعبادة ما ليس لهم به علم وعبادة من ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة .

وثاني هذه الأطراف ذلك الذي جاءه يسعى ليخبره عن تلك المؤامرة التي تدبر لقتله واغتياله إذ هي في هذا الوضع تشبه حال النبي عليه السلام وليس من شك في أن النبي قد علم بمؤامرة قتله واغتياله ، وأنه من أجل

هذا هاجر إلى ديار أخواله بنى النجار . هاجر إلى المدينة . وهذا الجزء من قصة موسى هو المذكور في سورة القصص قال تعالى وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين .

ونص القرآن صريح في أن النبي عليه السلام قد علم بما يضمرون له من مكر وكيد ، وذلك هو الواضح من الآيات التي ذكرناها هنا بعد قصة صالح فهي آيات مكينة حتى الأخيرة الواردة في سورة الانفال وهي من السورة المدنية إذ نص على أنها من الآيات المكينة .

وإذا فهذه القصص لصالح وموسى تفسر هذه المؤامرة التي حبكت لاغتيال النبي عليه السلام وتكشف عما كان يدور في مكة بين الأعداء والأصدقاء وكيف عاونهم الآخرون بالعمل على إحباط هذه المؤامرة . أما الأمور التي تمضي في أكثر من قصة وإن تميز بها رسول بالذات فهي من أمثال : —

(١) عبادة غير الله وسواء في ذلك الكواكب والأوثان وعبادة الأرواح الخفية وأفراد من بنى الإنسان ، فهذه تمضي في أكثر من قصة وتكرر في غير آية ولكن إبراهيم وحده يتميز من بين سائر الرسل بنفيه عبادة الكواكب وتحطيم الآلهة من الأصنام ، وتتميز شخصيته كل التميز في موقفه من عبادة الكواكب والقمر والشمس في سورة الأنعام ، وتحطيم الآلهة في سورة الأنبياء . وهو في هذه المواقف يكاد يخفي شخصية غيره من الأنبياء .

(٢) يتكرر عرض مواقف المستكبرين من الرسل والأنبياء أو من المستضعفين والفقراء ونجد آثارهم في قصص كل من شعيب وصالح مثلاً .

ولكن بطلين يكادان يتفردان بالموقف في هذا الميدان ، أولهما إبليس في بعض قصص آدم ، وثانيهما فرعون المتعالى الجبار . وما ظنك بشخص يدعى الألوهية ويخاف من طغيانه وجبروته الرسل والأنبياء إن فرعون لعمال في الأرض وإنه لمن المسرفين .

ثانياً - وهذا الأمر هو الذى يعنيننا أكثر من غيره في هذا الفصل من الكتاب وهو أن الشخصيات تتساوى فيما عدا ما تقدم في تمثيل نفسية النبي عليه السلام .

نلاحظ الصورة المعروضة للواحد من الرسل فتحسن لساعتنا كأنها صورة تمتد عليه السلام وكأن الحوار القائم وكأن الأحداث البارزة هي التي تلم به أو تقع بينه وبين من يدعوهم إلى الدين الجديد من مشركين وأهل كتاب .

ولن أعمد هنا إلى عرض شخصيات الرسل واحداً واحداً لآيين لك القصد وأوضح لك المراد فذلك أمر قد يكفي فيه المثال أو الشاهد ، يستغنى بهما عن كل شاهد ومثال . ولذا سأختار إحدى الشخصيات أتتبعها في جميع مراحلها وسنلاحظ سوياً أن هذه المراحل هي التي مرت بالدعوة الجديدة وبني الإسلام .

ولن أختار موسى وإبراهيم فقد تحدث الناس كثيراً عما بينهما وبين النبي عليه السلام من صلوات ، وإنما سأعتمد إلى شخصية أخرى أعتقد أنها شخصية فذة فريدة في هذا المقام .

سأختار شخصية نوح . وأعتقد أنك ستطالبي بتعليل هذا الاختيار . ولقد كان من الممكن أن أصبر عليك أو أطلب منك الصبر حتى أعرض

عليك الصورة النفسية لنوح ، ثم أدلك على وجه الموافقة أو التشابه التام بينها وبين نفسية نبينا عليهما السلام . ولكنى لا أريد أن أفوت عليك قصدا رعى إليه القرآن .

لنقرأ سويا هذه الآيات من القرآن . يقول الله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين ومن بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتيناه داود زبوراً » . ويقول تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يحبى إليه من يشاء ويهدى إليه من يئيب » .

أو لست ترى أن هذه هى الشخصية التى أراد القرآن أن يعقد بينها وبين النبي محمد صلوات ؟ وأفلا تعتقد أن ذلك هو الأمر المتوقع مادامنا نعتقد أن نوحا هو الأب الثانى للبشرية ، ومادام القرآن يرمى إلى أنه لافضل لقوم على قوم ولا رعاية لمعاينة دون أخرى من حيث النبوة والرسالة وإيتاء الحكمة وإنزال الكتاب فالله يحبى إليه من يشاء ويهدى إليه من يئيب .

ونبدأ فنقرأ قصص نوح على أساس هذه المجموعات .

المجموعة الأولى قصص القمر ونوح والشعراء والأعراف ويونس والمؤمنون وهى القصص التى تمثل بدء الدعوة ، كما تصور موقف المكذبين ، وهى القصص التى غلب عليها التخويف أو شرح مبادئ الدعوة ، وما يتبع كل ذلك من حوار وتصوير أحداث .

المجموعة الثانية قصص هود والصفات والأنبياء ، وهى القصص التى تمثل القلق النفسى والاتجاه إلى المولى القدير ، والقصص الذى يقصد به إلى التنفيس والتطهير .

أما المجموعة الثالثة فنستطيع الإعراض عنها لأنها من الأمور العامة التى يجمع القرآن فى الحديث عنها بين نوح وبين غيره من الأنبياء .

ونعود إلى المجموعة الأولى فنقول قال الله تعالى فى سورة القمر « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . . . » . وذلك بعينه هو الذى حدث من قوم محمد عليه السلام . ولعل هذه القصة لا توضح الوضوح الكافى صورة محمد عليه السلام من الجانب النفسى ، ولذلك ننتقل إلى غيرها ، وهى قصة نوح فى نوح . ولن أنقل إليك هذه القصة ، فقد سبق أن وضعناها بين يديك فيها مضى ولذا سأكتفى بلفت الذهن إلى هذه الأشياء .

(أ) الدعوة فى السر والعلن وفى الليل والنهار وتصوير موقف المعارضة من الدعوة إذ هو بعينه موقف النبى عليه السلام « قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدكم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . »

(ب) إن عوامل الترغيب فى الدخول فى الدعوة هى بعينها تلك العوامل التى صورها القرآن من حيث ترغيب النبى عليه السلام لقومه ثم هى التى تلائم البيئة العربية فى الجزيرة . قال تعالى « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات

ويجعل لكم أنهارا مالمكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا فيها سبلا فجاء .

(ج) موقف المعارضة هو هو بعينه إذ يطلبون إليه البقاء على دين الآباء والأجداد، دين الوثنية، ويذكرون الأصنام العربية بأسمائها . والمعارضون هم الأغنياء الذين ينفقون أموالهم لصد الناس عن سبيل الله واتباع الدين الجديد . قال تعالى : « قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » .

(د) الأمر من حيث النفسية يجرى بين الضيق بالقوم والاستسلام لله وهو بعينه الذى يلحظ عند النبي عليه السلام، وتبين هذا الضيق من الدعاء عليهم بقوله : « وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تدرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » . كما تبين الاستسلام من قوله : « رب إني دعوت قومي ... رب إنهم عصوني ... رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا والمؤمنين والمؤمنين ولا تزد الظالمين إلا تبارا » .

ونمضى بعد هذه القصة إلى قصص نوح في المؤمنين والأعراف فنلاحظ تفسيرية النبي عليه السلام هي الواضحة، كما نلاحظ أننا لانزال في الطور الأول من أطوار الدعوة الإسلامية . يقول الله تعالى في سورة الأعراف : ولقد

أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملا من قومه إنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون فكذبوه فأنجينا نوحا والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا منهم كانوا قوما عمين . ويقول في سورة المؤمنين « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملا الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين قال رب انصرني بما كذبون . »

فنحن نلاحظ من هاتين القصتين أن عناصرهما تصور الحياة العربية المعاصرة للنبي عليه السلام ونزول القرآن . فهم يرونه في ضلال ويرون به جنة ويعتقدون أن لو شاء الله لآنزل ملائكة فسمعوا من قبل بأن الرسول يكون من البشر وليست المسألة - إلا أنه واحد منهم يريد أن يتفضل عليهم . وكل هذه الأشياء هي التي حدثت في البيئة العربية بين العرب وبين النبي عليه السلام .

والذي يصح أن نلفت إليه الذهن في هذا المقام هو أن الضيق بالرسول قد بدأ يستقر في نفس الجماعة ، وأن الرغبة في التخلص منه قد أفضحت عن نفسها ولكنها رغبة لينة لم تستكمل عناصر القوة بعد ، ولذا فهي تكتفي بالتربص . وليس ذلك إلا ما ذكره القرآن عن نبينا عليه السلام . قال الله تعالى « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر

تقربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين .
وننتقل بعد ذلك إلى القصة في يونس فنرى الضيق قد بدا يشتد ؛ والرغبة
في التخلص منه قد أخذت تقوى ، وهو لا يزال قوى العاطفة رابط الجأش
يعتمد على ربه في الصغيرة والكبيرة من أمره . ثم هو في الوقت نفسه
حريص عليهم شديد الرغبة في هدايتهم يظهر شيئاً من الحنان نحوهم . يقول
الله تعالى « وائل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي
وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن
أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر
إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » .

على أننا نلاحظ هنا عناصر أخرى غير السابقة هي عدم سؤالهم الأجر
ثم إعلانه لهم بأنه أمر أن يكون من المسلمين وليس من شك عندى في أن
هذه التفاته من القرآن واضحة صريحة نحو الدعوة الإسلامية ، خاصة إذا
كنّا نعلم من القرآن نفسه أن إبراهيم أول من سماه المسلمين وأن إبراهيم
قد جاء بعد نوح في الترتيب الزمني حتى في القرآن .

ولم يبق من هذه المجموعة غير قصة نوح في الشعراء ، وهي تمثل عناصر
مختلفة من الدعوة الإسلامية . يقول الله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين
إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون
وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فأنتقوا الله وأطيعون
قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما على بما كانوا يعملون إن
حسابهم إلا على ربى لو تشعرون وما أنا بشارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين
قالوا لنن لم تنته يا نوح لتسكونن من المرجومين قال رب إن قومى كذّبون
فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين .

فهنا نلاحظ غير ما تقدم في القصص السابقة التهديد والوعيد وأنهم سيرجمونه إن لم ينته عما يقول أو عن دعوتهم للدين الجديد كما نلاحظ عنصرا آخر هو الحديث عن الأراذل ، وعن أنهم العقبة الوحيدة في سبيل دخولهم إلى الدين الجديد ، وأنهم من أجل ذلك يطلبون إليه أن يطردهم ولكن أنى له أن يجد عنه الأنصار والأعوان ، وليس من عمله إلا الإنذار أما ما عدا ذلك من ثواب أو عقاب فأمر يملكه الواحد القهار .

وأظنك لست في حاجة إلى أن أدلك على أن هذا الصنيع بعينه هو الذى كان من الأغنياء ومن مشركى قريش ، وأنه الذى من أجله نزلت بعض آيات القرآن . « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » .

وننتقل إلى قصص المجموعة الثانية ، وهى القصص التى يراد بها إلى التنفيس ف نجد قصة هود ، وهى القصة التى سبقها حديث عن الحالة النفسية للنبي عليه السلام وكيف كان يضيق صدرا بالمعارضة حتى ليهم بترك الدعوة من جراء حديثهم عنه من أنه يفترى على الله كذبا ويحىء بالقرآن يقول الله تعالى « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

وهذه الأمور هى التى نلاحظها فى قصة نوح من هذه السورة ، كما نلاحظ إلى جانبها عناصر قصصية من القديم والجديد . يقول الله تعالى « ولقد أرسلنا

نوحا إلى قومه أتى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملاّ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أن لا لمكموها وأنتم لها كارهون ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يوتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين قالو يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى لإجرامى وأنا بريء مما تجرمون وأوحى إلى نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . . . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاّ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . . . ونادى نوح ربه قال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنى ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم . . .

فهنالكما ترى بعد حذفنا للعنصر القصصى الخاص بأحداث الطوفان تجدد
العناصر القصصية الباقية تصور الحالة العربية في زمن النبي عليه السلام وموقفه
منها . ونستطيع أن نهمل شرح كونه نذيرا وأنه بشر وأن الذين اتبعوه هم
الاراذل ، وأنه لن يطردهم . وأن أجره على الله ، وأنه لا يطلب منهم مالا
فتلك عناصر قد تكررت ، وتبقى بعد ذلك أمور دالة ، منها البيئة ، تلك التي
عميت عليهم والتي لا يريد أن يلزمهم بها وهم كارهون . أليست هذه هي الحال
المشابهة تماما لحال النبي عليه السلام حين طلبوا منه الآيات البيّنة على صدق
الرسالة وصحة الدعوة ، والتي كان يجيب القرآن عليها بمختلف الإجابات .
ولقد كان من أوضح إجاباته تلك التي وردت في سورة العنكبوت من قوله
تعالى « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما
أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك
لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . ومنها أنه لا يدعى أنه يملك خزائن الله
أو يدعى علم الغيب أو يقول إنه ملك . ومنها ذلك التحدى القائم على تكذيبه
بأن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقا فيما يذهب إليه . ومنها مسألة الافتراء ،
وهي من غير شك التفاتة إلى الأمور المعاصرة فما نعلم أن نوحا قد نزل
عليه كتاب . ولعل هذا هو الذى دفع بعض المفسرين إلى القول بأن هذه
الآية ليست من قصة نوح وأنها خاصة بمحمد عليه السلام . ومنها تلك
السخرية التي يقومون بها حين يرون عليه وهو يصنع الفلك .

ونستطيع أن نضيف إلى الأمور السابقة موقف ابنه منه ، وما كان
من فزقة دينية بينهما كما نستطيع أن نضم إلى ذلك موقف زوجته منه فهي
الأمور التي تمثل الوضع العربى ، وإن مثلته على أنه القاعدة العامة أو الناموس
النفسى الذى لا يتخلف . وقد أشرنا إلى هذه النصوص عند حديثنا عن

الأسس النفسية والاجتماعية في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث .
ويبقى بعد ذلك قصص الصافات والأنبياء ، وهي جميعها تمثل الحديث
عن النصر الذي يمن الله به على الأنبياء . وتلك أيضا قاعدة عامة ، أو ناموس
نفسى يحدث لسكل نبي وفي كل زمان .

ونستطيع أن نفعل ذلك في قصص كل نبي نحذف منه الوقائع المعروفة .
ولن نجد بعد كل هذا إلا نفسية محمد عليه السلام .

على أن أمرا آخر يبين الصلة بين هذا القصص ونفسية النبي عليه السلام
هو أن النبي هو الذى كان يلقيه . وليس من شك في أنه كان يعبر بصوته عما
يصوره النص من معانى ، وعما يحمله اللفظ من أحاسيس وعواطف .
القصص القرآنى يمثل نفسية النبي ويمثلها في أدق مراحلها وفي أعنف صورها
وليس بنا من حاجة بعد ما تقدم من شرح إلى إقامة أى دليل أو برهان :

الخاتمة

هذه هي رسالة الفن القصصى في القرآن الكريم ، وهي رسالة تنتهى بالقارىء إلى هدفين رئيسيين : الأول منهما درس أدبى أو بلاغى فنى للقصة القرآنية ، وهو درس يكشف عن بعض أسرار الإعجاز ، لأنه يبين لنا مذهب القرآن الكريم فى بناء القصة ، فبين الألوان القصصية من تاريخية وتمثيلية وأسطورية ، وكيف كان القدماء يفهمون كل لون ويفسرونه ، وإلى أين انتهى بهم هذا الفهم وهذا التفسير . ويبين أيضاً طريقة القرآن الكريم فى توزيع العناصر القصصية أى فى هندسة القصة ، وكيف كان هذا التوزيع للعناصر يتبع الظروف والمناسبات ، ويتأثر إلى حد كبير بالدعوة الإسلامية فى تدرجها وترقيها . ثم يبين مذهب القرآن الكريم فى رسم الأشخاص وتصوير الأحداث وإقامة الحوار ، وكيف كان يجعل العنصر الواحد من الأحداث والأشخاص محوراً تدور حوله أكثر من قصة . وأخيراً هو درس أدبى بلاغى يكشف عن مذهب القرآن القصصى : وعن العوامل النفسية التى كانت يقيم عليها القرآن أسس الاستمراء ، وعن النوااميس الاجتماعية التى كان يرد إليها القرآن السبب فى قوة الدعوة الإسلامية وفى صحتها وسلامتها .

أما الهدف الثانى فقد كان الاتهام من هذا الدرس إلى قاعدة أو نظرية تفسر لنا مواقف الكفرة والمشركين من القصص القرآنى ، وتحل لنا هذه المشكلات الكثيرة التى وقف عندها المفسرون ، ثم تعتمد فى النهاية إلى

ردّ جميع الاعتراضات التي يتقدم بها المستشرقون والمبشرون ، ومن لفّ لفهم أو نحاً نحوهم من الزنادقة والملاحدة ، وكل طاعن على النبي ، أو في القرآن الكريم .

وتفسير موقف المشركين يقوم على ذلك الأساس الذي قال به الرازي ثم النيسابوري عند تفسير كل منهم للآية الكريمة « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » من سورة يونس ، وهو الأساس الذي يقول بأن هؤلاء الكفرة قد نظروا من القصّة إلى هيكلها ، ومن الحكاية إلى جسمها ، ولم ينظروا منها إلى الجوهر : إلى التوجيهات الدينية والخلقية وإلى الأسس النفسية والنواميس الاجتماعية ، ولو أنهم نظروا هذه النظرة الأخيرة ، لما وقفوا عند الأحداث والأخبار من حيث هي تاريخ ، ولما دفعت بهم هذه الوقفة إلى القول بأن القرآن أساطير الأولين ، ولما عارضوا القرآن حين عارضوه بالقصص التاريخي ، قصص رستم واسفنديار وملوك الفرس ، ولعرفوا في النهاية أن القصص القرآني لا يقصد إلا إلى التوجيهات الدينية والخلقية ، وإلى تقرير الدعوة الإسلامية ، وإقامة هذا التقرير على الأسس النفسية والنواميس الاجتماعية ، وعند ذلك كانوا يعترفون حتماً بأنه وحى الله وأنه تنزيل الحكيم الحميد .

وحل مشكلات المفسرين يقوم على ذلك المذهب الذي لفت الأستاذ الإمام إليه الذهن عند تفسيره لقصص آدم وهاروت وماروت من سورة البقرة ، وهو المذهب الذي يقرر بأن القصص القرآني يصح أن يفهم فهماً أدبياً بلاغياً ، وأنه لا يجوز أن يفهم فهماً تاريخياً ، ولقد كان المفسرون يذهبون هذا المذهب في كثير من المواقف ، وكانت المشكلات تحل عندهم على هذا الأساس ، ومن ذلك تفسيرهم لقصّة داود والملكين من

سورة ص . وتفسيرهم لقول اليهود عن عيسى إنه رسول الله . وغير هذين مما سبق أن ذكرناه .

أما الرد على الملاحدة والزنادقة ، وعلى المستشرقين والمبشرين فيقوم على أساس أن القرآن الكريم كان يقيم بناء القصة على ما يعتقد المخاطب ، وعلى ما تتصوره الجماعة من مسائل التاريخ ، وليس ذلك إلا لأنه يريد الهداية والإرشاد ، ويقصد إلى العظة والعبرة ، ولا يقصد إلى تعليم التاريخ أو نشر وثائقه بحال من الأحوال .

والمذهب الذى جرى عليه القرآن الكريم مذهب أدنى مقرر ، تعرفه جميع اللغات ويجرى عليه العمل عند جميع الأدباء ، ثم هو مذهب التفت إليه كثير من المفسرين ، فقال به بعض القدماء من روى الطبرى أقوالهم عند تفسيره لقصة أصحاب الكهف ، وقال به الأستاذ الإمام عند حديثه عن قصة هاروت وماروت ، وقال به علماء البلاغة من المسلمين حين اكتفوا بالزوم العرفى أى بالعرف والعادة ، واعتقاد المخاطب فى مسائل البيان ، ولم يتطلبوا الزوم العقلى أى الحق والواقع .

ذلك هو مذهب القرآن القصصى ، وهو مذهب يرد على هؤلاء جميعاً اعتراضاتهم ، ذلك لأنهم يبنون هذه الاعتراضات على أساس المخالفات التاريخية ، مخالفات القصص القرآنى لما أثبتته الكشف التاريخى وقال به المؤرخون من غير المسلمين ، وهو بناء لا يستقيم مع هذا العرف الأدبى الذى قررناه ، ذلك لأن الذى يعاب على القصص هو المخالفة التاريخية الصادرة عن جهل بمسائل التاريخ وقضاياها . أما تلك التى تصدر عن مذهب أدبى هو تصوير اعتقاد المخاطب ليتخذ وسيلة إلى ما وراءه فأمر لا يعاب ، وبخاصة إذا كان هذا الكشف التاريخى قد جاء بعد قرون وقرون . إن

المخالفات مع فرض ثبوتها وإقامة الدليل عليها ، إنما هي مخالفات لما كانت تعرفه الببشة من تاريخ ، وأمثال هذه المخالفات لا تضير القرآن في شيء ، لأنه لم يدل على أنه قد قصد إلى التاريخ وإلى تعليمه للناس ونشر وثائقه بينهم . هذا هو رأينا ، لك أن تخالف فيه ولك أن تقره ، وليس بيني وبينك إلا هذه الآية الكريمة : قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله . . .

فهرست

صفحة

المقدمة

٢٢ - ٣

تمهيد . أسباب اختيار الموضوع والمنهج

الباب الاول

المعاني التاريخية والاجتماعية والدينية

٥٤ - ٢٣

الفصل الاول : (١) المعاني التاريخية .

٧١ - ٥٥

(ب) الادب والتاريخ .

الفصل الثاني : القيم الاجتماعية والنفسية .

٧٨ - ٧٢

(١) إيضاح .

٨٢ - ٧٨

(ب) الانبياء والبيئة .

٩٤ - ٨٣

(ج) ظاهرة الانقسام وأسبابها .

١٠٦ - ٩٥

(د) نفس المؤمن لا تطيق المخالف .

١١٢ - ١٠٧

(هـ) الرسول لا يشك في مستقبل دينه .

١٢٠ - ١١٤

الفصل الثالث : القيم الدينية والخلقية .

الباب الثاني

الفن في القصة القرآنية

الفصل الاول : القصة القرآنية وألوانها .

١٣٨ - ١٣٣

(١) تعريف بالقصة .

١٧٤ - ١٣٨

(ب) القصة التاريخية .

١٩٥ - ١٧٥

(ج) القصة التمثيلية .

٢١٠ - ١٩٦

(د) القصة الأسطورية .

صفحة

٢١١ — ٢٢٦	الفصل الثاني : الوحدة القصصية .
٢٢٧ — ٢٥٢	الفصل الثالث : المقاصد والأغراض :
٢٥٣ — ٢٩١	الفصل الرابع : مصادر القصص القرآني .
	الفصل الخامس : العناصر في القصة القرآنية :
٢٩٢ — ٢٩٦	(أ) إيضاح .
٢٩٦ — ٣٢٣	(ب) الأشخاص .
٣٢٣ — ٣٢٦	(ج) الأحداث .
٣٢٦ — ٣٤١	(د) الحوار .
٣٤١ — ٣٤٢	(هـ) القضاء والقدر .
٣٤٢ — ٣٤٣	(و) المناجاة .
٣٤٤ — ٣٦٠	الفصل السادس : تطور الفن القصصي .
٣٦١ — ٣٧٦	الفصل السابع : نفسية الرسول وقصص القرآن .
٣٧٧ — ٨٠	الخاتمة :

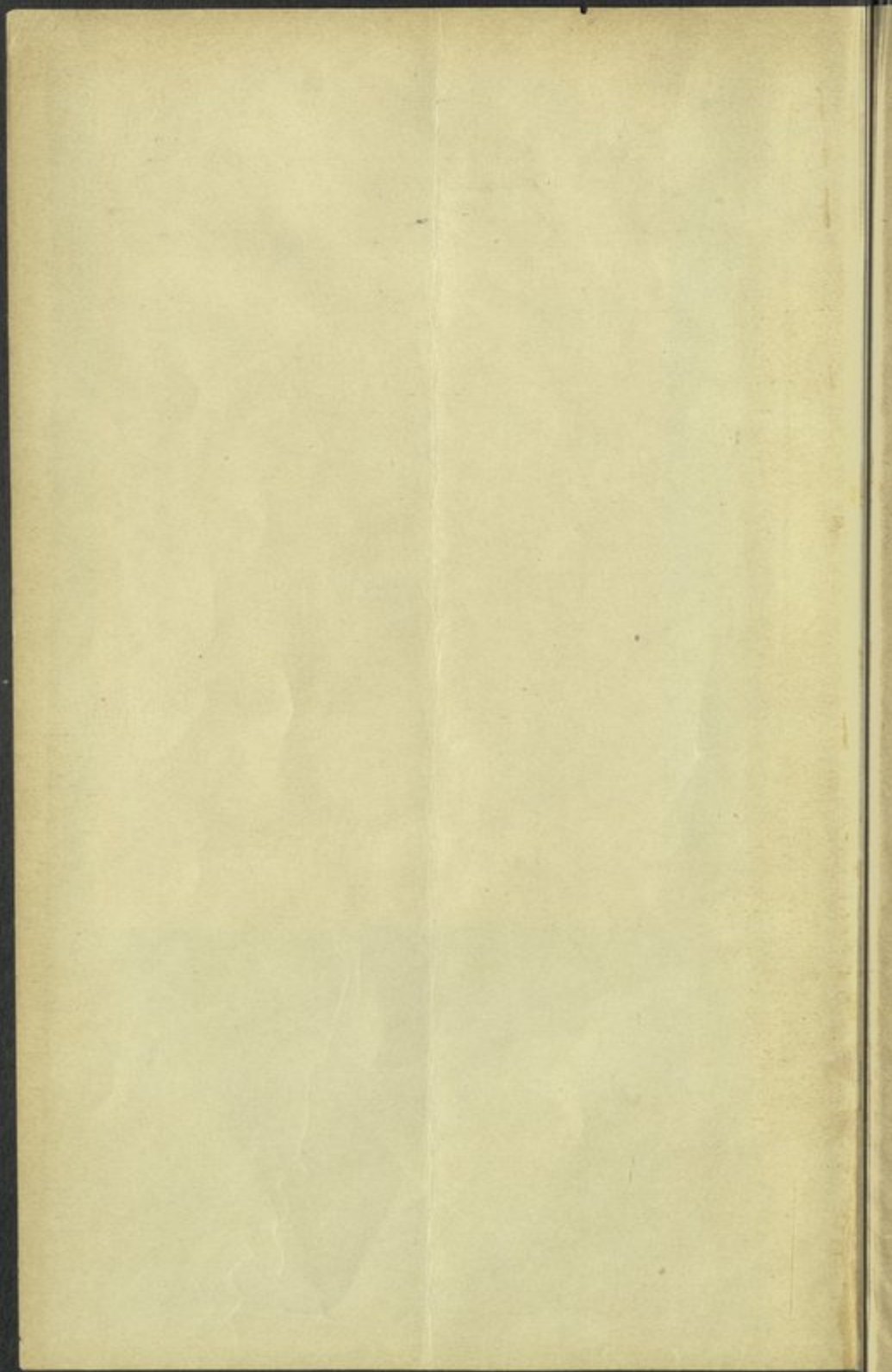
الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	ص	س
الذي	التي	٣	٣
الأصوليين	الأصولين	٣	١٤
الأصوليين	الأصوليني	٤	٥
جرمها	جرمهما	٧	٧
الأصوليين	الأصولين	٩	٨
ما فيها من قيم	ما فيها قيم	١٢	٤
التيارات	التيارات	١٥	١٢
دفعني	دفعني	١٦	الآخر
وأحسن	أو أحسن	٢٣	٢٠
على	عل	٣٨	٩
فكان ود	فكان القرب مكان ود	٤٢	٣
كيف	كيب	٤٦	٨
لا تشتمل	لا تشمل	٤٦	١٨
سحرا	سحر	٥٥	١٠
التاريخية	التاريخه	٥٦	٢
أحداث	أحدث	٥٩	١٧
من شاطئ الواد الايمن	من شاطئ الايمن	٦٢	٢
لرسول	رسول	٦٧	١٠
وضح	أضح	٧٠	١٧
وآيتنا	وآيتنا	٧٣	١٦
لمن	من	٧٣	١٩
القصاص	القصصاص	٧٥	١١
ليخرجوك	ليخرجوك	٧٦	١٥

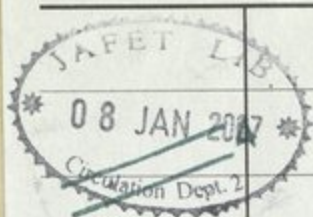
الصواب	الخطأ	ص	س
النواميس	التوميس	٧٧	١٥
الانقسام	الاقسام	٨٣	العنوان
ما هم عليه	ما عليه	٨٧	٦
وأن	وإن	٩٩	١٨
بنايانا	بنايا	١٠٠	١
ما استطعت	ما استعظت	١٠٢	الآخر
وتخليصهم	وتخلصهم	١٠٣	٥
أرحامكم	أرجامكم	١٠٤	٨
وبدا	وبذا	١٠٤	١٠
يخرجوكم	يخرجوكم	١٠٤	١٧
دخيلة	دخلية	١٠٩	١٦
شعر	شعرا	١١٠	١٦
وتجمع	وتجمع	١١١	١٣
نقول	تقول	١١٦	١٨
نصرا	نصر	١١٨	١٣
ينصرون	ينصرون	١١٨	١٤
آذان	آذن	١١٨	١٧
وَلِيٍّ	وَلِيٍّ	١١٨	١٨
لا يسمعون	لا يسمعون	١١٨	٢٠
والاستقسام	والاستقام	١٢٠	١٠
أمه	بامه	١٢٤	١١
ومن	ومر	١٤٦	٣
المعاصرين	العاصرين	١٥٣	٩
خبر	خبرا	١٦٣	١٠

الصواب	الخطأ	ص	س
ما صنعناه	ما صنعنا	١٩٩	١٠
الآيات	آيات	٢٠١	٧
السورة	الصورة	٢١٣	١٢
سورة . وسور	صورة . وصور	٢١٤	١٧ ، ١٦
ولباس التقوى	ولباس من التقوى	٢٤١	٣
بالخلود	بالدخول	٢٤١	١٣
اللغة	العنه	٢٤٩	٢١
إلى	إلا	١٥٩	٧
كما هي في اللغة	كما هي اللغة	٢٦٤	٢١
عند	عن	٢٦٧	٣
لا إختلاف	لاختلاف	٢٦٩	١
الهجرة	الحجرة	٢٧٠	١٧
معان	معاني	٢٧١	٤
ولعل	ولعله	٢٧٤	١
مريدا	مريد	٢٨١	٩
ولا شرابا	ولا شربا	٢٨٢	٥
المذكور كونه	المذكو وكونه	٢٨٧	٦
قصصهم عبرة لأولى	قصصهم لأولى	٢٨٨	١٤
نرى أن العنصر	أن العنصر	٢٩٣	١٧
قال ربك	ربك	٣٠٠	١٨
أكثرهم	كثرم	٣٠٣	٧
لن الناصحين	من الناصحين	٣٠٣	١١
الحكيم	الرحيم	٣١٢	٥
إنه	ولينه	٣١٩	٢

الصواب	الخطأ	ص	س
ستجدني	سجدني	٣٢٠	١٠
أمر	مر	٣٢٦	٤
امراته	امراة	٣٢٩	١٣
سمين	ثمين	٣٣٠	١
ما سقيت	ما سيقث	٣٣٤	١
نحمل	نيجمل	٣٤١	٣
وهنا	وهذا	٣٤٤	١٢
لا يتلقى	يتلقى	٣٤٧	١٢
المحاورة	المحاوة	٣٤٩	٦
فيأخذون	فيأخذون	٣٥٤	١١
ويرين	ويرون	٣٥٤	١٤
وتستشير	ووتستشير	٣٥٩	٩
بما أوحينا	أوحينا	٣٦٢	١٧
أن اختيار	اختيار	٣٦٢	١٨



DATE DUE



297.2088:K45fA:c.1

خلف الله، محمد احمد

الفن القصصي في القرآن الكريم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010757

American University of Beirut



297.2088

K45fA

General Library

